فريق
متميزون
E-BOOK
ريم بسيوني
رواية
الحُبّ
عَلَى الطَّرِيقَةِ العَرَبيَّةِ

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الحبُّ
على الطريقة العربية
(رواية)

ريم بسيوني

عن الرواية..

"لا تدري كيف ولا لماذا بدأت تقبل رقبته قبلات متناثرة، فأمسك برأسها وقبلها في لهفة... بالأمس لقنها درسًا لن تنساه. كانت كشعب يحكمه طاغية ساحر ومحبوب يعذب الشعب، وينفي الشعب، ويسيل دم الشعب، ويهلل له الشعب ويقبّل يده. وعرفت معنى الطغاة كما لم تعر من قبل..

نبيل نصار.. بطل شجاع أم قاتل محترف؟ زوجها سيسميه البعض إرهابيًا والبعض عميلًا مزدوجًا، والبعض ثوريًا شجاعًا!!!

وستسميه هي.. رجلًا رومانسيًا طغت عليه فكرته عن العالم ففتنته وفتنتها..

تزوجها.. عشقها.. مزقها.. أذلها.. أرعبها.. وضع النجم بين يديها وبكى وهو يناجي الشمس..

وهل لرجل آخر في العالم كله أن يتنافس معه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهـــــداء

إلى كل العرب المتناثرين خارج حدود خريطة «الأمة» أهدي هذه الرواية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

بداية

الأماني القليلة دائمًا آمنة، وكانت دائمًا أمانيها قليلة.

الزواج، الشقة، الأثاث الفخم، والنجاح في عملها إلى حد ما، وبالطبع السفر في إجازة من حين إلى حين، وإنجاب الأطفال، ودخول الأطفال مدارس أجنبية، وربما القليل من الحب بينها وبين زوجها، والكثير من التفاهم بينهما.

على كل حال صفاء ككل فتاة مصرية كانت أمانيها قليلة، وفي الحقيقة كانت تنحصر في هدف واحد أو اثنين، وربما ثلاثة، وهو أن يكون عندها خادمة ماليزية، وأن يعمل زوجها في دبي، وأن تمتنع تمامًا تمامًا عن شراء الطماطم من سوق الخضار في الإبراهيمية!

فنحن في عصر الكمبيوتر والأسلحة الكيماوية التي تملأ العالم، ولم تزل أمها تطلب منها كل يوم أن تشتري الطماطم من السوق وهي عائدة من عملها.

وشراء الطماطم في مصر عملية لا تقل في قسوتها عن أي عملية تعذيب يقوم بها حراس الدولة الساهرين على خدمة المواطنين.

فشراء الطماطم يعني أولًا مراسم المشاجرة اليومية مع الخضري، والصراع من أجل فرض الإرادة وفرز الأصوات في الانتخابات المزيفة عادةً.

والخضري كان من أكثر الناس تزييفًا للانتخابات، وفرز الطماطم الفاسدة من الطماطم القوية البنية والشريفة العفيفة لا يمر في سلام.

الخضري يعترض بشدة، وأحيانًا يدفع بيدها بعيدًا عن الطماطم التي رتبها ساعات ليغش الزبائن، وهي تصرخ في وجهه، وتدفع يده، وتتعفص واحدة أو اثـنتان من الطماطم، ويدعو عليها وتدعو عليه، ويستمر الصراع من أجل شرف الطماطم حتى تنتصر صفاء بإرادتها القوية وتصميم المصرية الأصيلة على الخضري انتصارًا باهظ الثمن راح ضحيته الكثير من الطماطم البريئة وسط الهجوم الغادر للأيدي والتشابك، والصراعات التي تملأ المنطقة.

صفاء أمانيها بسيطة.. تريد أن تشتري الطماطم المغلفة من السوبر ماركت الجديد الذي يرتاده الكثير من المصريين كمكان للتنزه، ومشاهدة البضائع الغريبة الآتية من الغرب بدلًا من الجلوس في الحدائق الضيقة وسط اللافتات التي تصرخ «ابتسم فأنت في الإسكندرية». لهجة الأمر هذه تثير أعصابها وحاولت مرارًا أن تبتسم لساعات، وتجلس مع محمود خطيبها، وتبتسم، ويمسك بيدها وتبتسم، وتحني رأسها في خجل، ولكنها لا تنسى أبدًا أن عليها شراء الطماطم غدًا وبعد غد وكل أيام عمرها.

صفاء أمانيها قليلة، ومحمود -لا بد- سيحصل على إعارة لدبي. بالذات دبي. جنة الله على الأرض، حيث الحرية والجمال والبضائع المستوردة والمال الغزير. حيث يمكنك شراء كل شيء، والاستغناء عن كل شيء، حيث الطماطم الطازجة واللآلئ الفضية، والمياه التي تتحول إلى ذهب في لحظات، حيث الأحلام تنتشر، والرمال تنتشر، والحياة تبدأ.

صفاء أمانيها بسيطة إلى أبعد حد.

ومشكلة صفاء أن أمانيها البسيطة دفعت بها إلى طريق غير مألوف، وأشياء غريبة بدأت تحدث لها دون أن يكون لها أي إرادة فيها.

وبينما هي تحاول تحقيق أحلامها البسيطة وجدت نفسها متورطة في أشياء لا تخطر على بال عاقل. لابد أنه سوء الحظ أو حسن الحظ أو الاثنان معًا.

بينما هي منهمكة في تحقيق أحلامها البسيطة وجدت نفسها تنحدر من على جبل عالٍ وتُرفع إلى سماء صافية، ثم تنحدر، ثم تُرفع...و تُرفع.

وجدت نفسها على أرجوحة حبالها في جهنم تمتد لتحيط العالم.

وجدت نفسها متورطة في مشاكل دولية وعشق مستفز و.. حب على الطريقة العربية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأماني القليلة للأسف من الممكن أن تتلاشى وتتناثر في الهواء كحدود الدول وهوية الأفراد وثورات الأقليات.

وللأسف تلاشت أمنيات صفاء القليلة فجأة بعد نجاح ساحق على الصعيد العملي.

فلابد للأماني أن تتلاشى أمام الضغوط القوية من المجتمعات المدنية وغير المدنيَّة.

وأحلام صفاء تلاشت بسبب باب ودولاب وكومودينو.

وهذه أسباب جوهرية في مجتمعنا المصري قد تودي بالأفراد إلى عمليات انتحارية خطيرة.

فمحمود خطيبها لم يستمع إلى صوت العقل ومنطق الديمقراطية، ولم يقدر نجاحها الساحق كمحامية كسبت للتو قضية بين المدعي العام الاشتراكي ورجل أعمال مُهِمٍّ، وكسبتها لصالح رجل الأعمال، يعني صفاء غلبت الحكومة.

صفاء السنهوري بنت حي الإبراهيمية غلبت الحكومة، وانتصرت عليها، ثم يأتي محمود خطيبها ويتمرد على الدولاب والكومودينو اللذين اشتراهما أبوها

من أكبر محل أثاث في محطة الرمل، أو هكذا يقول أبوها، وهو في الحقيقة قد اشتراه من دمياط بالطبع. ولكن هذه ليست المشكلة. المشكلة الأساسية أن «محمود» يتمرد، وأمه تمصمص الشفاه، وترمي بالكلمات اللاذعة والنظرات الحادة لصفاء وأم صفاء وأبي صفاء وكومودينو صفاء ودولاب صفاء ولون باب غرفة النوم الذي اختارته صفاء.

وما دامت أم محمود قد تدخلت، فقد قررت صفاء فسخ الخطبة التعيسة والاستغناء عن محمود الثوري المتعصب. والقدر سيعوضها بمن يتفهم موقفها الجديد وقدرتها الفائقة، ولن تبالي بخطبة استمرت عامين لمحمود المتعصب الذي يريد أن يتحكم فيها، والغيرة تشع من عينيه لنجاحها المستمر. ويتهمها بالغرور طوال الوقت.

صفاء غلبت الحكومة.

من اليوم. لابد أن تفكر بعقلانية وتتخلى عن أمانيها الصغيرة من أجل أماني أكبر. أكبر بكثير.

وإذا كان محمود الطبيب الذي تتمناه كل فتاة في مصر يتهمها بالغرور وقلة الأصل، ويتهم والدها بالطمع والبخل، ويطلب المهر والشبكة.. إذا كان محمود يفعل هذا فهي لم تكن عاقلة قَط في اختياره.

الحمد لله، الخسائر قليلة جدًّا ، فمحمود لم ير حتى شعرها طوال العامين، وقبَّل خدَّها مرة أو مرتين، وكان يحب أن يمسك بيدها لساعات، وهي تكره هذا الملل. ولكنها قَط لم تسمح له بأكثر من هذا. لذا فالخسائر قليلة جدًّا، ولو طلب منها زوجها المقبل الذي سيهاجر معها إلى دبي ولن يسأل عن الدولاب ولا لون الباب.. لو طلب زوجها منها أن تقسم أن رجلًا لم يقبلها قط.. فسوف تقسم بضمير سليم، فقبلة الخد تعريفها غير واضح. وهي محامية، وتعرف كيف تُعرف المصطلحات بدقة ووضوح.

يغور محمود في داهية! هي لم تزل في السادسة والعشرين. وكانت سمراء قليلًا، ولكن ملامح وجهها صغيرة ومريحة، ويعتبرها الكثير جميلة بوجه براق وجسد متناسق.

ربما هي سِنُّ حَسَّاسة بعض الشيء، ولكن نجاحها وخفة ظلها وو.. لا بأس.

الأماني التي تتدمر في ثوان يمكن إعادة بنائها.

في المرة القادمة سوف تبحث عن رجل ليس بماديٍّ كمحمود. لابد أن تبحث عن رجل يريد العيش في دبي ويقدر عملها، وسوف تعمل في دبي معه، وسوف تشتري فيلا في الساحل الشمالي، وتستخدم خادمتين وليس خادمة واحدة. وسوف تتعالى على الجميع، وأبدًا لن تذهب إلى السوق.

أمها تعيد قصة فسخ الخطبة لكل جار وقريب، ومع بعض التعديلات الطفيفة يصبح محمود أبشع رجل في العالم، ويصبح الخلاص منه نهاية حتمية لبنت طيبة بريئة كصفاء.

فمحمود ينصاع لكلام أمه كالعيِّل، وطماع وقليل الأصل وقليل الأدب، و«من عيلة واطية»، وصفاء تحملت منه الكثير حتى إنه كان يدخل عليها كل يوم جمعة «بزجاجة بيبسي صاروخ»! بدلًا من أن يدخل عليها بجاتوه فرنسي أو أنسيال ذهبي أو«ما شاء الله» تعلقها في صدرها لتمنع الحسد عن البنت البريئة الجميلة.

كل هذه التفاصيل الفظيعة كانت أم صفاء تقولها كل يوم، وصفاء ترددها للأصحاب والجيران.

وصفاء كانت محبوبة ومَهيبَة فقد ألهمها القدر القدرة على الرد السريع على أي جار قليل الأدب، والقَدرة على الصياح بصوت يصل إلى الدور العاشر عندما يحاول أحد الجيران أن يركن سيارته في المكان المحجوز لسيارة والدها، حتى لو كانت سيارة الجار مرسيدس وسيارة والدها فيات موديل 75، أي قبل مولد صفاء بأكثر من سبع سنوات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد مرور شهرين على فسخ الخطبة وتخطي فترة النقاهة التي يجب أن تمر بها الفتاة في ظروف صفاء، كان لابد من التفكير في الغد المشرق والرجال «إللى على قفا من يشيل» في مصر، والجودة أيضًا!! فالكم وحده لا يكفي. وبدأت صفاء تمل سماع قصة عذابها مع محمود.. ومادامت بطبعها ضَحُوكًا خفيفة الظل، ولا تبكي على ما فات أبدًا، فقد قررت أن هناك الكثير من المعارك التي لم تَخُضْها بعد. ومادام الرجال موجودين بكثرة في مصر على كل حال، فلابد ألَّا تقلق، ومادامت قد كسبت الكثير من المال من القضية فلابد أن تبدأ معركتها العالمية.

معركتها ضد أمريكا العظمى!!

وفي الحقيقة معركتها ضد أمريكا تنحصر في شخص واحد إرهابي متعصب مستفز قليل الأصل طماع، ويعمل مع أكثر من جهة وحركة وطائفة وحزب وكتلة!

وهذا الشخص الذي تطلق علية صفاء اسم «حركة أمل إللي مفيهاش أمل!!» هي أمل زوجة أخيها المهندس في أمريكا!

أمل بنت حي كليوباترا حمامات التي تشتهر أمها بمحشي ورق العنب المغشوش «بالليّة» وليس باللحم «الضاني» كما تدعي، وتشتهر هي شخصيًّا،

أمل بالكفتة الموفرة التي تتكون من أشلاء الحيوانات الفاسدة والتي تظهر عندما يزورها أهل زوجها!

يعني أمل صاحبة «حركة أمل إللي مفيهاش أمل» بنت قليلة الأصل محدثة غنى! سوقية، بخيلة وتستغل أحمد أخا صفاء أقصى استغلال! والحمار لا يفهم، ولا يعي أنه خاتم في إصبع الإرهابية! وأنه فقد هويته ورجولته وعائلته بين أحضانها!

لابد لصفاء أن تحارب الشر أينما يكون، والشر الآن ينحصر في القضاء على غرور زوجة أخيها وتفردها بالحكم.

فلابد لصفاء أن تزور أخاها وتبقى معه على الأقل ستة أشهر حتى تثبت حقها في الأرض وتمسكها بالسلام العادل الشامل الذي يقوم على احترام الحقوق!!!

وأم صفاء وأبو صفاء كانا يتفقان معها بالطبع على أن سفرها إلى أمريكا قرار صائب، وانتقام من البخيلة أمل التي تهدي حماتها كل عام «إيشارب بولي إستر» وتدعي أنه حرير، وهي غارقة في الكعك الأمريكي والسيارات الفخمة! وهذا ليس عدلًا! وصفاء الوحيدة القادرة على رسم حدود الدول وحدود النساء! وحل كل المشاكل الإقليمية في المنطقة!

لابد لصفاء أن تسافر إلى أمريكا من أجل البحث عن عريس ربما، وفرض الإرادة على زوجة أخيها وصرف مال أخيها، والتنزه بين الثلوج، والتفاخر بأنها زارت أمريكا، وبالطبع رؤية أخيها الذي يأتي كل عام ليشكو من قلة المال في أمريكا!!

لابد أن تسافر.

وفي يوم الثلاثاء سافرت صفاء إلى أمريكا. ومن هنا بدأت الحكاية! ومن هنا دخلت صفاء بسيقان سحرية في أعماق الخريطة.. وكان الخروج صعبًا جدًّا. فلا هي تعرف تعويذة تخرجها ولا هي متأكدة من أنها تريد الخروج. والتعاويذ صعبة هذه الأيام ومكلفة جدًّا. والعشق يُذهب العقول، والخوف يُرجف الحدود، والأماني القليلة تغرق الحواجز كلها.

عندما دخلت صفاء الخريطة، بدأت الحكاية.

خريطة الأمة..

خريطة العرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الباب الأول
أمانٍ قليلة

الفصل الأول

نظرت إلى المحقق الأمريكي الذي يجلس أمامها في لامبالاة وهو يكتب الكثير والكثير من الكلمات الإنجليزية، ويتصفح جواز سفرها المصري وكأنه بطاقة حكم بالإعدام.

كانت تشعر بغضب وشيء من الخوف والندم على السفر إلى أمريكا، والندم على التحرك من الإسكندرية أصلًا!

ولم تكن تثق بالمحقق الأمريكي، ولم تكن تعرف تهمتها! وبدا لها أن المحقق لابد أنَّه يضطهدها بسبب جواز السفر المصري! وأحداث «حداشر» سبتمبر! «الله يخرب بيت الإرهاب وسنينه!» وبالطبع لم تفهم الكثير من أسئلته. ولكنها تعرف أنها متهمة، وأن تهمتها ربما تودي بها إلى السجن.. الاغتصاب.. ربما!

تفحصت المحقق الأمريكي من جديد وقشعريرة تسري في جسدها! هل سيغتصبها هذا الرجل أولًا ثم زملاؤه؟! هل هذه أمريكا إذن؟ هل هذه نهايتها التعيسة. سيغتصبها بالتأكيد.. ربما هذا هو ذنب محمود.. كان لابد أن تتزوج من محمود.

همس المحقق بشيء لزميله، وأخذ يتصفح جواز السفر من جديد ويمدد رأسه على المقعد.. لم يبد عليه أي اهتمام بها كامرأة، وهذا أسعدها كثيرًا!! فعلى الأقل لو انتهى بها الأمر في سجن أمريكي في جوانتانامو! فستعيش شريفة عفيفة ومنسية بالطبع! وأول من سينساها هو أخوها في أمريكا!

دخلت أمريكا من مطار جون كنيدي بنيويورك، وهي في انتظار الطائرة من نيويورك إلى واشنطن حيث سيقابلها أخوها، وفي نيويورك بدأت المأساة! دخلت بالفعل أمريكا، ثم بدأت المأساة! وكل هذا بسبب وصايا أخيها! ماذا قال: صفاء.. لا تنسي ورق البردي والتماثيل الفرعونية و الـ «تي شيرتات» بالرسم الفرعوني.. لا تنسي نفرتيتي بالذات وتوت عنخ آمون! إياك أن تنسي توت عنخ آمون! لو نسيتِ توت عنخ آمون فلن تستفيدي بهذه الرحلة أبدًا! نحن لا شيء بدون توت عنخ آمون!

لا لم تنس توت عنخ آمون وهذه هي النتيجة!

بعد حوالي عشرين دقيقة وهي تسند خدها بيدها وتشعر برغبة جامحة في الصياح في وجه الأمريكي الذي يجلس أمامها.. بعد عشرين دقيقة سمعت صوتًا عربيًّا!

الإنقاذ سيأتي بالطبع.

دخل رجل قصير.. نحيل في منتصف العمر، الشعر الأبيض يظلل رأسه، وفتح فمه بلهجة بدوية أردنية قوية وقال: «جولي ليش عطيتي التي شيرت للأمريكية يا مَرَة؟».

هذا يكفي! ستتحمل إهانات البقاء في هذه الحجرة من الأمريكان، ولكنها لن تتحمل أبدًا وقاحة رجل بدوي لا تدري من أين يأتي، ولا ماذا يريد. قالت في صوت قوي: اسمي صفاء.. ولست «مَرَة»!

ابتسم وجلس قائلًا: صفاء.. أنا أترجم وأنت تجولي.. عرفتِ كيف؟

- عرفت.

- شو أصل الحكاية؟

- كنت أنتظر الطائرة من نيويورك إلى واشنطن.. وأنا جالسة في ساحة الانتظار وجدت سيدة أمريكية، كانت طيبة قوي.. وحبوبة. سألتني من أين آتي، وأخبرتها، وقالت في فخر: مصر! ما أجمل مصر! أتمنى أن أذهب إلى مصر. أي لغة تتكلمون في مصر؟ اللغة المصرية؟ والأهرام والآثار والمصريون القدامى.. ولم أكن أفهم ما تقول بالضبط، ولكنني شعرت بأنها صديقة بحق. وكان معي بعض الهدايا المصرية، فأعطيتها «تي شيرت» مرسومًا عليه توت عنخ آمون وارتدته وهي تشكرني وتصيح: كم أحب مصر والمصريين! ثم قامت لتنظر لنفسها في المرآة، وما إن قامت حتى سقطت على الأرض. لا أدري ماذا حدث.. أعتقد ربما أزمة قلبية.. غيبوبة سكر.. لا شأن لي بشيء من هذا. أعطيتها هدية لا أكثر.

بدأ الرجل في الترجمة بإنجليزية متقطعة والأمريكي يكتب ثم قال: ليش أنت في أمريكا؟

- لزيارة أخي. هو مهندس في شركة.

- وها «المَرَة» ما كنت عم بتعرفيها؟

- أبدًا لم أرها قط من قبل؟

- لماذا أهديتها هدية إذن؟

قالت في فخر: ولم لا؟ أنا مصرية وكريمة، وهي قالت إنها تحب مصر، وكنت أشعر بالفخر بالطبع. فأنا مصرية!

قالت جملتها الأخيرة بالكثير من التأكيد، وكأنها توضح الفرق بينها وبين المترجم.

فقال المترجم في تلقائية: طب اشلحي يا مرة اشلحي!

فتحت فمها في فزع! سيغتصبها هو! هذا الرجل.. طلب منها للتو خلع ملابسها! سيغتصبها الآن! خونة! كانت تظن أنه سيتعاطف معها ولن يكون أول من يخونها!

ماذا تقول عن العرب؟

قال من جديد: إيه اشلحي. لا تستحي.. ليش عم بتستحي.. الجو كتير حار.. ليش بترتدي معطف؟

تنفست الصعداء.. يريدها أن تخلع معطفها. لا أكثر. لماذا كل سوء الظن هذا؟! إنه عربي، ولابد أنَّه سيتعاطف معها فهي مصرية، والمصريون، ما أعظم المصريين!! لابد أن مدرسه في الأردن كان مصريًّا وأستاذه وربما بائع الفلافل أيضًا وماسح الأحذية و.. الفقر.. ما أسوأ الفقر! ولكن لابد أن أستاذه كان مصريًّا! سيتعاطف معها!

- شو اسم أخوك؟

- أحمد السنهوري.

- إيه أعرفه أحمد. يشتغل في شركة نبيل نصار؟

قالت في لامبالاة: يشتغل في شركة رجل لبناني على ما أعتقد.

أمسك بتليفونه المحمول وطلب رقمًا، وقام ليتكلم، ثم قال: لا تخافي.. ما في شيء. بس إجراءات يعني.

آه. كان عربيًّا وطيبًا إذن! هذا ما توقعت بالطبع.

أخذ يتبادل الكلمات مع المحقق بإنجليزيته الركيكة وهي تحاول فهم ما يدور في الخلفية ثم قال: دجايج.. تنتظري دجايج.

هزت رأسها بالإيجاب.

أخذت تدق بيدها على الطاولة. كانت أول مرة في حياتها ترى محققًا أمريكيًّا، وللحق.. كانت أول مرة ترى عربيًّا أيضًا!!

كتب الرجل شيئًا في ورقة، ثم قال: هذا رقم تليفون ابنتي، هي تسكن في واشنطن مع أمها.. أزورهم كل أسبوع. أرجو أن تتصلي بها، فهي تحتاج إلى صديقة عربية. لغتها العربية فظيعة، ربما يمكن أن تساعديها. وهي تعمل في شركة نبيل، اسمها زينة.

قالت في حماس: نعم بالطبع.

ثم أخرجتْ هدية من حقيبتها.. تمثال صغير لتوت عنخ آمون.. مدّت يدها به قائلة: هل يمكن أن تتقبل هذا مني؟

نظر إلى المحقق وقال مسرعًا: لا، أدخليه الآن. سوف يظن أنه رشوة! هذه الإجراءات ربما تمتد يومين، ثلاثة.

- ماذا؟

- لا تقلقي. عليَّ أن أرحل الآن.. ولكن لا تقلقي!

النذل!!

قالت مسرعة: لا تتركني هنا. قل له إنني لا أريد البقاء هنا!

- هناك تحقيق...هذه السيدة ماتت بأزمة قلبية بعد أن أخذت منك هدية وارتدت «التي شيرت».. وهم لا يثقون بك.. هناك تحقيق ربما يمتد بعض الوقت. لا تقلقي.

بدأت الدموع تظهر في عينيها ثم همست: هل يمكن أن تتصل بأخي؟

- وماذا سيفعل أخوك؟ لقد اتصلت بمن يمكنه أن يساعدك، ومن حظك السعيد أنه هنا في المطار اليوم.. ينتظر الوزير اللبناني شهاب الدين، لو قرَّر أن يساعدك فربما تخرجين من هنا.

قالت في يأس: بمن اتصلت؟

- بنبيل نصار بالطبع.

تلاشى من أمامها في ثوان. بقيت مكانها والدموع تتساقط. لا بد أن تتصل بأخيها ثم أمها ثم ترحل عن هنا. بسرعة. بأقصى سرعة!

أخرج المحقق منديلًا من أمامه وأعطاه لها في تلقائية، وقام ليتناول الغداء مع أصدقائه. وتركها جالسة في مكانها.

وهي تبكي في صمت. وكانت قد قررت أن تنفجر في أخيها وزوجته وكل من ستقابله اليوم! هذا كله بسبب أخيها! ولماذا لم ينتظرها في مطار نيويورك بدلًا من أن تأخذ طائرة أخرى لمطار واشنطن؟ بسبب زوجته اللئيمة! سوف تقضي عليها حتمًا!

كم مرَّ؟ ساعة، ساعتان.

أخذت تهز رجليها في عصبية وغيظ. ثم أشارت إلى التليفون. وبدأت تطلب أخاها بيد مرتعشة، فأجابت زوجة أخيها. هل تغلق الخط إذن؟ لا تريد أن تتكلم معها الآن!

قالت في وقاحة: أريد أخي.

- صفاء؟ في إيه؟ أنت مركبتيش الطيارة!

تساقطت الدموع من عينيها وقالت: هو فين؟

- في الشغل!

- خليه يكلم المطار.. واحدة ماتت.. كنت قد أعطيتها «تي شيرت» لا أكثر..

- ماتت!! يا لهوي!! لن تخرجي من هنا أبدًا! سوف أطلب أحمد على طول. ليه كده بس يا صفاء؟ مش تخلي بالك.. طول عمرك متهورة!

صاحت صفاء: وأنت مالك أنت؟ ده حاجة بيني وبين أخويا! هو أنا اللي قتلتها؟

نفخت أمل في أذنيها وقالت: حستحملك بس علشان أحمد! لما نشوف حكاية القتل دي كمان!

أغلقت الخط، ووجدت الأمريكي ينظر إليها في استغراب وكأنها كائن غريب! كانت تصيح في التليفون. وتبكي.. وترتجف. كانت على وشك الانهيار الكامل.

وكانت جَوْعى جدًّا جدًّا! والجوع محزن بالطبع.

طأطأت رأسها وهي تبحث عن شيء في حقيبتها، ولم تجد سوى الكثير من التماثيل الصغيرة وجُعْران ومفتاح الحياة وكل الهدايا المصرية.

طرقعة مصافحة حارة أثارت انتباهها. نظرت أمامها للمحقق الأمريكي وهو يصافح رجلًا. يبدو عربيًّا.. لابد أنه عربي، في الأربعين ربما، لا تدري. نحيف ويرتدي حذاء كاوتش. هذا كل ما لفت انتباهها. يتكلم الإنجليزية بفصاحة على ما يبدو.

لم ينظر إليها على الإطلاق. تبادل الكثير من الكلمات مع المحقق، وبدا على المحقق التفاؤل والسعادة، قام المحقق.. نظر إليها.. والعربي لا يلتفت إليها. لم ينطق بكلمة عربية، لذا لم تكن تدري من أين يكون. ربما مصري إذن! لا ليس مصريًّا!.

أشار إليها المحقق بأن توقع على بعض الأوراق. قامت واتجهت إلى مكتبه.. والعربي لا يلتفت إليها. وقَّعت بيد مرتعشة، ثم قالت للعربي: هل سأرحل الآن؟

قال وهو يوقع بعض الأوراق: نعم.

نظرت إليه، أطالت نظرها إليه، كان يتصرف بهدوء وحرفية ثم قالت: أنت نبيل نصار؟

لأول مرة ينظر إليها. ابتسم قائلًا: نعم.

قالت في شيء من الهيستيرية والحماس والخوف: سمعت عنك كثيرًا من أخي. هل سأخرج الآن؟ هل ستجعلني أخرج الآن؟ هل تسمعني؟ هل سأخرج الآن؟

ترك الأوراق من يده وقال: نعم. قلت نعم. ستخرجين الآن.

قالت في حماس: لا أدري كيف أشكرك؟ ماذا فعلت؟ ضمان؟ هل وقعت على ضمان؟ لا يهم. لن أسأل، لابد ألا أتكلم كثيرًا فالكلام الكثير الآن ليس له داعٍ. لا أدري كيف أرد جميلك.. لا أدري ماذا أقول.. كيف سأذهب إلى واشنطن؟

قال دون أن ينظر إليها: معي إذا أردت.

قالت في تلعثم: نعم معك بالطبع. بالطبع معك.. من أنت؟ كيف أعرف أنك نبيل نصار؟ ربما.. اعذرني، أصلي أنا محامية، ورأيت الكثير من حوادث الخطف يعني خاصةً في أمريكا.

نظر إليها من جديد، وقال: ستأتين معي يا صفاء أو تنتظرين الطائرة القادمة غدًا.

قالت دون تردد: على الفور. هل يمكن أن نذهب الآن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تفحَّصت هذا الرجل الذي أنقذها من مصير مظلم واغتصاب أكيد وتعذيب شديد وأسئلة وانهيارات واعترافات وو.

تفحَّصته وقارنت في لحظات بينه وبين محمود. كان يتكلم معها بلهجة مصرية متقنة لا يعيبها إلا البطء ربما.. وكانت ملامحه أرقَّ بعض الشيء من ملامح محمود، ولونه أكثر بياضًا من محمود ومنها هي. لبناني إذن؟ أم سوري؟ أم الاثنان معًا؟ لم تتأكد قط.

لم تجرؤ على الكلام معه الآن. كانت متوترة وعقلها في حيرة وعزم.

قارنت بين يده ويدها. يده أكثر بياضًا من يدها؟ في صورة الزفاف هذه ستكون مشكلة لابد من حلها، ربما المصور يستطيع معالجة هذا الأمر.

زفاف؟

هو طويل وغني.. يبدو غنيًّا، ويتكلم المصرية بفصاحة، إذن هو عريس مناسب جدًّا. وأهم من كل هذا قد أنقذها للتو من مصير مظلم.

بلعت ريقها، وحملقت في يدها في صمت حتى قال هو في رقة: اسمك صفاء؟

هزَّت رأسها بالإيجاب.

ابتسم وقال: اسم عربي جميل، ولكن كنت أسأل أحمد دائمًا عن معنى سنهوري. مكان هذا؟ مكان في مصر؟

لم تنظر إليه، أجابت في تلقائية وأنفاسها تتلاحق: لا أعرف. لابد أن أسأل عن معنى اسمي، نعم بالطبع. فأنا محامية كما تعرف. هل تعرف؟ لقد كسبت منذ أشهر قضية مهمة جدًّا.

نظر إليها وقال: قضية سياسية؟

قالت مسرعة: لا قضية ضد الحكومة من رجل أعمال كبير..

صمتت، ثم قالت فجأة: كم تبقى من الوقت لنصل إلى واشنطن؟

- الكثير.

بدأت تشعر بعدم ارتياح. ربما كان هو أسوأ من المخابرات الأمريكية، ربما يخطفها هو. من يدري؟ ثم ماذا كان يفعل في المطار وما علاقته بالمخابرات الأمريكية؟

نظرت إليه من جديد.. شعيرات بيضاء ممتزجة بشعره الأسود.. أكبر منها بكم عام؟ خمسة عشر ربما وربما أكثر..

ارتجفت يدها، ووضعت رأسها على حجابها لتتأكد من أنه في مكانه، وساد الصمت. حتى توقف أمام مطعم صغير.

قال بعد ثوان: صفاء هل تريدين أن تأكلي شيئًا؟ لابد أنك جوعى، كانت رحلة طويلة ومجهدة والاستجواب كان بالطبع تجربة مخيفة بعض الشيء.

قالت في حماس: المشكلة أنني لم أكن أعرف ماذا سيفعلون بي!

ابتسم وقال: لا شيء.

قالت في حماس وهي تبدأ في صيدها الذي عزمت الأمر عليه: لو لم تأت.. لا أدري ماذا كانوا سيفعلون بي.. لا أعرف كيف أشكرك. سوف أطلب من أحمد أن يشكرك أيضًا، حقًّا... التجربة كانت..

التقت أعينهما وهمست وهي تنظر إليه دون أن تحرك مقلتيها: كانت تجربة فظيعة.

كان بنظرته شيء من الدهشة، شيء من السرور.. لا تدري.. لم يرفع عينيه عنها. هل كان معجبًا بها؟ هل تحققت كل أحلامها في يوم واحد. محظوظة قوي صفاء.. جدًّا.

نظرت إلى الأرض في خجل.

ساد الصمت برهة.

كان مختلفًا. نعم. كان يصمت كثيرًا وفجأة، ولا يضحك بصوت عال، ولا يضحك أصلًا. وكان يتكلم ببطء، ويتكلم معها بلهجتها في فصاحة غريبة.

فتح باب السيارة وقال: فلنأكل شيئًا أولًا.

لم تتناقش معه.

كانت تفكر في أمل زوجة أخيها، وتفكر في أن زواجها منه سيجعلها أعظم شأنًا من أمل وأخيها وعائلتها، فهو رئيس أخيها وهو غني، وهو وسيم، وهو.. ليس مصريًّا!!

لم تفكر في هذا من قبل.

ستفكر في هذا، ولكن ليس الآن. الآن لابد أن تركز كل طاقتها للفوز في قضية مصيرية ليست ضد الحكومة فقط ولكن ضد العالم بأجمعه!

أخذت تعبث بطعامها في خجل وهو ينظر إليها من جديد، ثم قالت في شيء من الدلال: كيف تتكلم المصرية هكذا؟

- كل العرب يستطيعون الكلام باللهجة المصرية.

ابتسمت في فخر. لا بد أن تتزوجه.

- ولكنك لبناني إذن؟

- في أمريكا لبناني.

- وخارج أمريكا؟

- عربي؟

تذكرت كلمات أخيها عن رئيسه اللبناني وحبه للعرب جميعًا، وكيف يجد دائمًا وظائف لهم. لابد أنه يقدر المصريين وحضارتهم وثقافتهم وتفوقهم ومسلسلاتهم وأفلامهم ورؤساءهم.

ابتسم وقال وكأنه يفهمها: عندما كنت في السادسة من عمري مات جمال عبد الناصر، وكنت أتذكر أمي وأبي وهما يبكيان عليه لساعات. كان قائدًا

عظيمًا، وعنده رؤية لمستقبل عربي.

قالت وهي تحاول أن تحسب عمره، في الأربعين كما توقعت: والسادات.. أحمد يقول إن الأمريكان لا يعرفون عن مصر سوى الأهرام والسادات. كان قائدًا عظيمًا.

نظر إليها لثوان. أبدا عليه الضيق أم كانت تتخيل هذا؟

ثم قال: لماذا لا تأكلين؟

قالت في تصميم: ألا تظن أن السادات قائد ذكي؟ أعني انتصارنا في حرب أكتوبر والسلام مع إسرائيل.. ضروري لمستقبل مصر والعالم العربي..

أكيد بدا عليه الضيق.

وهذا استفزها أكثر، فأكملت: أحمد يقول: إن العرب لا يحبون السادات، ولكن لولاه لكنا الآن ننادي بسيناء كما تنادي سوريا بالجولان، كنا سنبقى نحارب ونموت و..

صمتت وهي تنظر إليه.. لم ينطق، ولم يعد يبدو عليه أي شيء.

قال في هدوء وتأمل: من يدري.. لن نعرف بالطبع.. ماذا لو؟ سؤال عابث ليس له معنى.

يبدو أمكر مما كانت تظن..

قالت فجأة: كيف تعرف كل هؤلاء في المخابرات الأمريكية؟

قال في لامبالاة: كنت أعمل معهم!

قالت مازحة: جاسوسًا؟

لم يجب، ولم يبد عليه أي تأثير. ولم يضحك، وهذا أقلقها، فقالت مسرعة: كنت أمزح بالطبع. ماذا كنت تفعل في مطار كنيدي؟

- أنتظر شخصية لبنانية مهمة.

- ولم تأتِ؟

- لا، لم تأت.

ساد الصمت، فقالت وهي تخشى أن تكون قد حطمت كل شيء قبل أن يبدأ:كنت أمزح. أنا آسفة، دائمًا أمزح هكذا. يبدو أنهم يقدِّرونك جدًّا! جدًّا. أنا فخورة بأنك عربي وتحظى بهذا التقدير من المخابرات الأمريكية.

قال وهو ينظر إليها: نعم عربي. وأنت مصرية طبعًا! المصريون مصريون أولًا. لماذا لا تأكلين؟ ألا يعجبك الطعام؟ لابد أنك جوعى، كان طريقًا طويلًا!

تذكرت فجأة أنها لم تنظر لنفسها في المرآة، وأنها لابد تبدو في أسوأ صورة! وأنه لن يحبها أبدًا، وأنها بعد ساعات قليلة سوف تقابل زوجة أخيها، وأنَّ المخابرات الأمريكية احتجزتها وأنها لم تَنْتَهِ بعد من قضية قتل، وأنها جوعى ولن تأكل أمامه!

تساقطت الدموع من عينيها، وأزاحتها بيدها.

وقالت: كان يومًا رهيبًا! «من خرج من داره اتقل مقداره» كما نقول في مصر. أريد العودة إلى مصر الآن.

قال في رقة: أحيانًا عندما نكون جائعين نشعر بالانهيار. لذا أتمنى أن تأكلي شيئًا.

ثم قام قائلًا: سوف أقوم بمكالمة تليفونية، ثم علينا أن نستمر في الرحلة.

وما إن قام حتى بدأت الأكل، وبالطبع كان يعرف أنها لن تأكل أمامه.

تنهدت في ارتياح، ووضعت رأسها على الكرسي في السيارة، وبدأت تتخيل الزفاف وفستان الزفاف. والخطة المحكمة.

ولكنه ليس مصريًّا!!

لابد أن هناك مخرجًا من هذا المأزق!

كانت تختلس النظرات إليه طوال الطريق. عربته فخمة ومريحة، ويقود السيارة بثقة وكأنه يعرف كل شيء. لا يضحك كثيرًا، ولكن لا بأس. هو ليس مصريًّا، ودمه ليس خفيفًا كدم المصريين بالطبع.

قال بعد برهة: أخبريني يا صفاء. كسبت قضية ضد الحكومة كيف؟

- رجل أعمال مهم كلفني بالترافع ضد البنك الحكومي الذي لجأ إلى المدعي الاشتراكي، وفي الحقيقة الرجل كان بريئًا، لذا لجأ إليَّ وأنا محامية صغيرة، وكنت أسافر في السوبرجيت إلى القاهرة كل يوم. وأذهب إلى مبنى المدعي وأنا متعبة، وربما عندما رأى المدعي هذا رأف بحالي! وربما كنت محامية شاطرة لا أدري! ولكنه كان بريئًا حقًّا هذا الرجل.. أنت تعرف في مصر إذا كنت نزيهًا فالناس تحطمك وهو كان نزيهًا. بالطبع العمل المتواصل وأشياء أخرى تدخلت في إنهاء علاقتي بخطيبي.

كان لابد أن تتكلم عن خطيبها الآن قبل أن يعرف من مصدر آخر.

أكملت: هو كان كويس وابن ناس، ولكن مشاكل ، واضطررت أن أتركه.. لم أكن أحبه أصلًا.. أهلي غضبوا علي وهو.. كنت أشفق عليه، طلب العودة إليَّ مرَّة ومرَّات.. حتى أمس كان يحاول أن يتصل بي، ولذا قررت التخلي عن الموبايل نهائيًّا حتى لا أشعر بكل هذا الإحراج!

ابتسم وقال في رقة: بالطبع. أتفهم. فأنت جميلة يا صفاء!

لا. لابد أنها تحلم. يبدو الحلم أقرب مما تتصور.

أقرب بكثير. هل عنده استعداد للسفر لدبي؟ لابد أن تسأل الآن قبل أن تبدأ في التخطيط.

قالت مسرعة: وكان يريد أن يهاجر أيضًا إلى دبي.. وأمي لا تريدني أن أتركها. كنت سأوافق على الهجرة لو كنت أحبه.. فالحب أهم شيء في علاقة الرجل بالمرأة. الماديات التي تسيطر على الأمور الآن شيء فظيع. البنت تفكر في المهر والشبكة والشقة وكل هذه الأشياء التافهة. أنا أريد رجلًا أعتمد عليه لا أكثر، ويمكنني أن أسافر معه لو أراد. هل ذهبت إلى دبي من قبل؟

- لا. عزة عندنا في الشركة عملت في دبي.. لابد أن تتكلمي معها، هي تعرف الكثير عن دبي.

قالت والموضوع يستهويها: ولم تسافر مع زوجتك إلى دبي؟

سوف ينطق بالكلمة التي تتمناها.. سوف يقول لا أنا لست متزوجًا! سوف يقولها!

- لا لم أذهب مع زوجتي إلى دبي!

كادت أنفاسها تتوقف. متزوج إذن!! كل أحلامها ضاعت في ثوان.

أغمضت عينيها.. لابد أن تنام بقية الطريق وإلَّا ستنفجر في البكاء الآن.

ولابد ألا يبدو عليها أي تأثر.

قالت في لامبالاة وهي مغمضة العينين: ماذا تعمل زوجتك؟

قال وهو ينظر إليها: زوجتي؟ أنا لست متزوجًا!

والآن لابد من تغيير الموضوع قبل أن يبدو وكأنها تستدرجه إلى مصير مجهول.

- هل ترى كيف تبهدل أمريكا العراق؟

- هل ترى كيف يتقاتل العراقيون بعضهم مع بعض كالضباع!

- نعم ولكن هذا بسبب أمريكا!

قال في نفس هدوئه: ربما.

إجاباته لم تكن واضحة وكلامه «مَيَّاني» بلا لون ولا رائحة.

لم يكن مريحًا قط وخاصةً علاقته بالمخابرات التي لا تفهمها! لا تثق به من أول وهلة.

بعد ثوان تذكرت السيدة الملقاة على أرض المطار بعد أن لفظت أنفاسها الأخيرة في لحظات قليلة وهي مرتدية «تي شيرت» توت عنخ آمون! كم تشفق عليها. كانت ست طيبة قوي!

بدأت الدموع تترقرق في عينيها وهمست: ياعيني.. الست ماتت أمامي كده في لحظات! كانت طيبة قوي.. قوي.

نظر إليها، وابتسم ابتسامة صغيرة ولم ينطق.

- كانت صديقة.. مع أنني لم أقابلها سوى دقائق، كنت مـتأكدة أنها صديقة..

ثم صمتت فجأة وهي تنظر إلى السيارة التي تقترب منهما، وبحركة بهلوانية تنتقل إلى الحارة الأخرى أمامه، وقالت وهي تصيح: زمَّرله! زمَّرله!

ثم وضعت يدها بلا إرادة على الكلاكس فخرج الصوت العالي، وبدا عليه أخيرًا بعض المشاعر..

ربما اندهاش، ذهول.. لا تدري!

لم تكن تأبه بهذا الآن. قالت في غضب: حمار! بيسوق زي الحمار. كان ممكن تعمل حادثة دلوقتي. لازم يفهم انك مش حتسكت عن حقك وإلا يستغلك. مش علشان إحنا في أمريكا! أمريكا زي مصر أهي! وسايط ومحسوبية! هو أنت علاقتك إيه بالراجل في المخابرات؟ هو يعرفك؟ صح؟

لم ينطق.

قالت مسرعة: أنا آسفة، أتكلم كثيرًا. أرجو ألَّا تكون قد مللت الحديث معي. أصل إنت عارف المحاميين بقى متعودين على الكلام الكثير. أصل أنا صريحة جدًّا و..

بدا وكأنه لم يسمع شيئًا مما تقول.

ولم يبد عليه الإعجاب بها قط.

لا بأس. من قال إنها معجبة به؟ بالعكس. هو لا يتكلم، لا يضحك.. واقف، ودمه تقيل قوي!

لا. سوف تنسى موضوع الزواج هذا. وهذا أفضل بكثير بدلًا من أن تضطر إلى أن تفاصل مع المُصوِّراتي لتزوير الصورة وتبييض العروسة، وإضافة بعض السُّمْرة على يد العريس. ستنسى هذا الموضوع نهائيًّا.

وستنام بقية الطريق.

مغرورًا يبدو هذا الرجل! مغرورًا جدًّا! وليس تلقائيًّا على الإطلاق، ولا طيِّبًا على الإطلاق، ولا بريئًا على الإطلاق!

لن تندم على محمود! هل ستندم على تركها لمحمود؟! كان يضحك على الأقل! ويصيح ويتكلم! كلامًا تافهًا بالطبع، ولكنه كان يتكلم.

قضت بقية المسافة تستمع إلى مكالماته التليفونية التي يقوم بها، بعضها بالإنجليزية، وبعضها باللهجة اللبنانية، وكلها عن صفقات وأموال.. كلها عن أموال.. قضى ساعتين لا يتكلم إلا عن الأموال!

ماذا كنا نقول عن اللبنانيين؟

تذكرت كل الأفكار المسبقة والتحامل والأحكام! ولم تر من لبنان سوى الشفاه الغليظة والصدور الكبيرة والخصر النحيف، والنساء التي تتأوه والرجال السَّحَرة النصَّابين! لا مشاعر، لا علاقات.. المال يسيطر عليهم! يبيعون كل شيء. صح؟؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمسك أخوها بالحقيبة من يد نبيل في حرج، وقال: لا أعرف كيف أشكرك.

رأت رهبة غريبة في عيني أخيها، والكثير من الخجل والارتباك.

ربت على كتفه، وقال: إحنا اخوات يا أحمد. لابد أن تبقى صفاء في أمريكا حتى تنتهي الإجراءات. سوف أخبرك عندما تنتهي الإجراءات.

ثم رحل في ثوان.. دون كلمة واحدة لها.

لم تحتضن أخاها.

احتضنتها زوجته وقبلتها، ولم تشاركها القبلات والأحضان. وكانت في هذه اللحظة تكره أخاها وزوجته وأمريكا ولبنان، وكل البلاد على حوض البحر الأبيض المتوسط، وكل البلاد في الشرق الأوسط والشرق الأقصى، وكل شيء.

جلست داخل شقة أخيها. وكانت في الحقيقة شقة صغيرة، حجرتي نوم وصالة فسيحة متصلة بمطبخ صغير يصلح لكل الأغراض! الكلام والنوم والأكل والطبخ والمشاجرات ولعب الأطفال.

- كيف حالك الآن يا صفاء؟

قالت في جفاء: لماذا لم تترك عملك وتذهب إلى نيويورك لتأخذني من المطار؟ هل يمكن لأخ أن يفعل هذا بأخته؟

قال وهو يبتسم.. وكان أخوها هادئًا إلى أبعد حد: أنا آسف.. لقد كنت أظن كل شيء سيكون على ما يرام، وكنا ننتظرك هنا في المطار. هل أنت بخير؟ أخبريني بكل شيء.

فتحت فمها لتبدأ.. قال في شيء من الإحراج: نبيل.. كيف كان معك؟

قالت في لامبالاة: هو بارد بعض الشيء، ولكنه شخص محترم على ما أعتقد.

قال في حماس: نعم، هو محترم جدًّا ، ويحب المصريين والعرب. أنا أعمل معه منذ ثلاث سنوات كما أخبرتك من قبل. الحمد لله أنه كان في المطار.

قالت أمل وهي تذهب إلى المطبخ: تريدين شايًا؟ أم تأكلين شيئًا؟

لسبب ما كانت تشعر بعدم ارتياح في حركات أخيها وتنقل جسده على المقعد وعينيه اللتين تتحرَّكان في كل اتجاه.. وكأنه يريد أن يقول شيئًا ولا يعرف كيف..

قالت لزوجة أخيها في جفاء: أكلت.

نظر إليها أحمد.. هذه المرة رأت الاهتمام والقلق في عينيه وقال: أكلتِ مع نبيل؟

قالت في شيء من الدهشة: نعم.

تنفس في بطء وقال في تردد: صفاء.. يبدو أنه ضَمَنَكِ عند البوليس أو شيء من هذا القبيل.. سأتفاهم معه غدًا.. وأشكره بالطبع..

قالت أمل مسرعة: ربما ندعوه على العشاء.

فقاطعها في حدة: لا.

لم تر أخاها بهذا التوتر من قبل ولا بهذه الحدَّة.. ولم تكن تعرف ماذا يدور بداخله: ماذا بك؟ هل قلقت علي؟

قال مسرعًا: نعم.. جدًّا.

شعرت فجأة بكم افتقدت أخاها.. احتضنته هي هذه المرة وقالت: أحمد، كم افتقدتك!

ربت على كتفها والقلق لم يزل يسيطر عليه..

قالت في حماس فجأة: نبيل قال لي إن هناك مصرية تعمل معك في الشركة أيضًا!

تركها وقال في حدة: مَنْ؟

- عَزَّة على ما أعتقد.

- صفاء، أنا أعرف أنك اجتماعية، ولكن هناك أشياء وقواعد يجب اتباعها هنا! انسي عزَّة هذه تمامًا. هي ليست في مستواك، وأنا لا أريدك أن تتكلمي معها أبدًا، هي خادمة في الشركة تنظف المكتب وتصنع القهوة ونبيل أيضًا لا أريدك أن تتكلمي معه أبدًا؟

قالت في غضب: إذا كنت ستتحكم فيَّ فسوف أرحل..

- أولًا لا يمكنك أن ترحلي. وأنا أخاف عليك.

- كنت تقول إن نبيل هذا طيب ويحب المصريين.

قال في تلقائية: هو ليس مصريًّا يا صفاء و.. حياته مختلفة. ظروفه مختلفة. لا أحد يعرفها بالضبط. وأنا لم أكن مرتاحًا على الإطلاق وأنت مسافرة معه في سيارته!

- لا أفهمك.

- لا يهم.

قام قائلًا: هيا لتنامي بعض الوقت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن دخلت صفاء الحجرة حتى نفخت في فزع وهي تتذكر ما حدث.. هل تسبب توت عنخ آمون في مقتل السيدة الأمريكية؟ هل تسببت هي في هذا؟ هل تسبب الفراعنة في هذا؟

ربما الرجل اللبناني أنقذها إنقاذًا مؤقتًا من المصيبة، ولكن إلى أين سينتهي الأمر؟!

المشكلة أن من ماتت أمريكية، وكلنا نعرف أن الناس ليسوا سواسية على الإطلاق. هناك المتحضر والمتخلف! وهناك العاقل والمجنون، وهناك الظالم والمظلوم، وهناك المستعمِر والمستعمَر! والإرهابي والراهب والمرهوب!

يالحَظَها التعس!

ضربت بيدها على جبهتها في غيظ! ليتها لم تعطِ السيدة «التي شيرت»!

ها هي الآن تدين بالولاء لرجل.. لبناني، وهذا لا يعني شيئًا على وجه التحديد كما يقول الكثيرون، فلا لبنان جزء منا، ولا جزء من أوروبا.

ومن نحن؟

المصريون ربما؟ العرب بالطبع.

لابد أن تفكر جيدًا في أمر الوفاة.

كانت سيدة بدينة و«التي شيرت» كان ضيقًا بعض الشيء. وربما عندما لبست السيدة «التي شيرت» شعرت بضيق في التنفس؟ أو ربما شعرت بعدم ثقة في نفسها وباليأس من أن تستطيع أن تكون يومًا بسيقان مسلوعة كالممثلات الأمريكيات أو بقفص صدري واضح والعظام بارزة منه بشفافية كأطفال إفريقيا وممثلات أمريكا بالطبع!

نعم لابد أن هذا هو السبب! صدمة عصبية قتلتها.

أم هي قدرة الفراعنة التي أعجزتها عن التنفس! لابد أنها لحظة رأت عظمة الفراعنة وقدم الحضارة والقدرة على البقاء التي يتميز بها المصريون، شعرت بالعجز، فبلدها غني وقوي فقط. وماذا يعني الغنى بلا تاريخ؟ لا عراقة لا أهرام ولا جثث محنطة! كم تشفق على الأمريكان! يبحثون عن الأجداد كما تبحث الفلاحة عن ابنها الضائع في المولد.. بلا أمل ولا دراية بالطريق الصحيح!

لابد أن الشعور بالعجز قضى على الأمريكية. فلا التاريخ يشترى ولا الشرف والنسب والحضارة للبيع!

معذرة يا أمريكا! حضارتنا ليست للبيع، ولا نستطيع مساعدتكم لو شعرتم بالعجز. ولكن يمكنكم زيارتنا في مصر في إجازة وشراء التماثيل التذكارية بالطبع! نحن نشجع السياحة! ونعيش على السياحة!

سبب موتها هو العجز.

أم سبب موتها لعنة الفراعنة؟ أصابتها كما تصيب المصريين كل يوم؟ فلعنة الفراعنة تصيب كل مصري يحاول اختراق الحواجز والمطالبة بالحقوق!

لابد أنها لعنة الفراعنة!

ولابد أنها قد أصابت صفاء أيضًا! مسكينة صفاء تبدأ رحلتها إلى بلاد الرخاء بالموت، ولا تدري كيف ستنتهي الرحلة.

ولكنها بطبعها قوية، ولن تفكر في موضوع السيدة الأمريكية، سوف تركز على اللبناني الذي أنقذها! فروحها في يده! ولابد أن تتأكد من أن روحه في يدها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيام صفاء مع أخيها وزوجته كانت بعد ذلك مزيجًا من المشاحنات اليومية والاضطرابات والتصالح والأحضان والغضب وتجهيز حقائب للسفر.

أمل كانت امرأة مليئة بالحياة والغضب الداخلي والعصبية. فهناك نوعان من النساء.. نوع هادئ يستقبل الحياة، ونوع تعج الحياة من بين أضلعه. وأمل كانت دائمًا تتحرك.. تنظف البيت، توصل الأطفال إلى المدرسة، تشتري الأشياء، كل الأشياء.. تجهز احتفالات دينية واجتماعية مع المصريين والعرب.. تطبخ محشي ورق العنب..

كانت عصبية، ودموعها تسيل لأهون سبب.. والغربة كانت تشع فيها الطاقة. كانت «مدبّ»، تقذف بالكلمات كالقنابل، وتلوم كل من حولها، ماعدا نفسها!

أحمد كان يعمل حتى السابعة مساء، وطوال اليوم كانت أمل تنظف، تتكلم مع الأصدقاء، وتطبخ، ثم تبدأ مراسم الواجبات المدرسية مع طفليها.. التي تبدأ بصياح أمل ثم ضرب أمل لأحدهما، ثم جلوس الأطفال.. وجلوس أمل معهم وفي يدها عدة دولارات.. وكلما أنجز أحدهما جزءًا من الواجب أعطته دولارًا! وتقول: ولو خلَّصت كل الواجب حجيب لك اللعبة إللي نفسك فيها.

وبدا لصفاء أن هذه طريقة مادية للتعامل مع الأمور.. وأن ثلاثة دولارات عادةً تفتح بيتًا مصريًّا يومًا كاملًا ولا حسد بالطبع! ولا تدخل.. فقط مصمصة شفاه على الحظ التعس تصدر من صفاء.

ما أثار أعصاب صفاء حقًّا، أكثر حتى من موت الأمريكية في المطار هو كارت الفيزا الذي أعطاه أحمد لزوجته أمل تعويضًا عن الغربة والوحدة.

وكان كارتًا صغيرًا منتشرًا الآن في مصر بين ذوي النفوذ وأولادهم بالطبع.. كان كارتًا يعطي أمل الحرية في شراء أي شيء وكل شيء.. دون أن تفكر في العواقب والجمعيات والمديونية والادخار..

وشعرت صفاء بأنَّ هذا الكارت السحري هو الحل الأمثل لكل مشاكل الوطن العربي والعالم بأكمله، وشعرت بأنَّها لو امتلكت هذا الكارت فستفعل المستحيل.. تُوقِفُ الحروب والمشاحنات بين الحركات المختلفة في الوطن العربي.. وتُضفي السكينة على العلاقات الخليجية الإيرانية.. والهدوء على العلاقات التركية السورية، والسعادة على العلاقات بين الحكومة والأفراد في مصر..

شعرت بأنَّ تملكها هذا الكارت سوف يحوِّلها إلى مغنية لبنانية شهيرة تتدلل على العالم، وترتدي الزينة، وتضم شفتيها في شجن في انتظار القبلة القادمة من الوسيم ذي الشعر الأسود الناعم الثقيل..

ياه! ماذا يفعل هذا الكارت السحري؟

وكيف يعطيه أخوها المعتوه لأمل بتاعة كليوباترا لأنها تشعر بالملل! هذا ليس عدلًا! لماذا لا يعطيه لأخته، لأمه التي ربته وعلَّمته، لأبيه الذي ينتظر رغيف العيش المدعوم في صبر! ولو كان عنده الكارت لكان سيشتري الرغيف بجنيه وثلاثة وأربعة بالتليفون من السوبر ماركت!

لن تفكر صفاء بهذه الطريقة المادية! ربما تكون أمل مادية جدًّا، ولكن صفاء بنت ناس، ولا تفكر في هذه الأشياء التافهة أبدًا.. لا فرق بين الرغيف المدعوم ورغيف السوبر ماركت.. كما أن خبز قدماء المصريين كان مليئًا بالحجارة كما اكتشفوا مؤخَّرًا.. وربما حجارة الخبز ساعدت على إقامة الحضارة.. من يدري؟ ربما الزلط والحجارة والتراب في الخبز المدعوم هي ما نحتاج إليه لنسمو فوق البشر بذكائنا وقوتنا البدنية.

لا، هي ليست مادية.

ومحمود لا يعرف أصلًا شكل الكارت السحري وحمدًا لله أنها تركته!

ولكن عصبية أمل وعجرفتها وصياحها المستمر بدأ حقًّا يثير أعصاب صفاء، وقررت دون تدخل مباشر منها أن تتكلم مع أخيها في هذا الموضوع.

وأخبرت أخاها في ساعة صفا أنه يجهد نفسه إلى أبعد حدٍّ، وأن زوجته لا تقدر مجهوده، وأن زوجته محظوظة جدًّا ، وأنها عصبية مع الجميع، وأنها تعامل صفاء بعجرفة، وأنها تصلي كل يوم وتذهب إلى الجامع مع الصديقات المسلمات، ولكنها تبذر وتبعثر ماله على كل شيء: الملابس الجديدة.. لعب الأطفال.. المأكولات الجاهزة.. القهوة الأمريكية..

وقالت في وضوح إن وجود الكارت في يد أمل مثل إعطاء إسرائيل مفتاح القدس! جريمة في حق الإنسانية!

وأخوها لا يستمع إلى صوت العقل بالطبع.. ودائمًا يأخذ صف زوجته المسكينة التي تتحمل الغربة من أجله..

وبعد مرور حوالي أسبوعين من حالة اللا سلم واللا حرب.. كانت صفاء قد جهزَّت حقيبتها للسفر على الأقل أربع مرات.. وصرخت في وجه زوجة أخيها على الأقل سبع مرات.. وصرخت زوجة أخيها في وجهها على الأقل ست

مرات، وتعانقا والدموع في عيونهما ثلاث مرات.. واشتكت صفاء من أخيها لوالدتها مرتين.. وصالحها عشرين مرة.

وبعد أسبوعين.. بدأت الحالة الأمنية تستقر.. بعض الشيء. وكانت صفاء قد قررت ألا تساعد زوجة أخيها في البيت على الإطلاق.. وأن تأخذ دور الأطفال في البيت.. تستقبل الدولارات والهدايا، وتخرج في الصباح مع بعض المصريين المغتربين أصحاب أمل، وتشاهد القنوات الفضائية. وتلعب بألعاب الكمبيوتر مع الطفلين.

وما دام هذا كان يعني أن الهدوء سيعم المنطقة فقد ضحَّت أمل، وتقبلت الصلح الظالم حتى حين، حتى إنها بدأت تتكلم كلمات بسيطة مع صفاء من حين إلى حين.. ثم كلمات كثيرة..

وكانت صفاء تتهم أمل بالغرور والمادية والعصبية وباللسُّخرية! كانت أمل تتهم صفاء أيضًا بالغرور والمادية والعصبية.. وبدا أن صفاء وأمل أصلح شخصين لصداقة تدوم العمر كله، ولكن الظروف أبت هذا.. لأن صفاء وُلدت في الإبراهيمية، وأمل في كليوباترا، والفرق محطة أو اثنتان بالترام.. والحيّان متماثلان إلى أبعد حد.. ولكن الظروف الصعبة جعلت أمل زوجة أخي صفاء. ما أبشع الظروف، وعلى رأي أم كلثوم «لا تقل شئنا فإن الحظ شاء!»

بدءا يتبادلان الكلمات، وأحيانًا الحوارات القصيرة والطويلة أيضًا.

وطوال هذه المدة لم تنسَ صفاء نبيل نصار.

لا لم تَنْسَهُ قط. لم يعجبها بروده، ولكنه أثار فضولها. فسألت أمل يومًا وهي جالسة معها في أحد المقاهي تحتسي القهوة العملاقة بالكريمة: من هو نبيل نصار؟

قالت أمل: هو طيب القلب جدًّا ، وجدع جدًّا حقًّا.

- ولكن أحمد لا يحبه.

- لا، بالعكس يحبه جدًّا ، ويتكلم عنه كثيرًا! يقول إنه عبقري حقًّا. ولكنه يتوقع الكثير من المهندسين. أحمد يعمل ليلًا ونهارًا.

كان لابد من المغامرة في الأسئلة: يبدو في الأربعين وليس متزوجًا؟ أليس هذا غريبًا؟

ابتسمت أمل قائلة: لماذا تسألين؟

وبالطبع أمل تفهم.. ولابد لصفاء من الحرص، والفضول القاتل لا يتركها!

- شيء غريب فقط. أنا لا أعرفه على الإطلاق. ولكن ألا تعتقدين أنه شيء غريب؟!

قالت في لامبالاة: كان متزوجًا على ما أعتقد من أمريكية أو عربية لا أعرف.. حياته الخاصة خاصة جدًّا ، ولا أحد يعرف عنه الكثير.

- عنده عيال؟

- لا. لا أعتقد هذا!

حمدت صفاء ربها. وكانت قد عزمت أمرها أن تعبر عن امتنانها له وتهديه هدية بسيطة لأنه ساعدها وأنقذها من مصير مظلم. ولحسن حظها كانت شركة نبيل تبعد خطوات عن بيت أخيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

ارتدت صفاء أجمل ما عندها من بلوزات بيضاء وبنطلونات جينز واسعة من أسفل كمغنيات لبنان، وحجاب أبيض رقيق، ووضعت الكثير من الكحل ليظهر عينيها الكبيرتين ورموشها الكثيفة، وأحمر شفاه باهتًا حتى لا تبدو أكبر من سنها. ونظرت إلى نفسها في المرآة قبل الخروج، وكانت معجبة بما رأته. وبدأت رحلتها إلى شركة نبيل نصار على الأقدام لمدة نصف ساعة، وهي تفكر وتخطط.

أمسكت بورق البردي وتمثال توت عنخ آمون وهي تنتظر أن تسمح لها السكرتيرة بالدخول. نظرت إلى السكرتيرة.. كانت ترتدي بنطلونًا أسود وبلوزة سوداء ضيقة، وكانت نحيفة وطويلة وملامحها تبدو عربية، مع أنها لم تبتسم ولم تبدأ في الكلام.. وتذكرت فجأة أنها ربما تكون ابنة الأردني الذي قابلته في المطار.. وأن صداقة تجمعهما ستكون مفيدة جدًّا إذا ما قررت أن تنصب شباكها على نبيل نصار.

ابتسمت وقالت: أنت من أصل عربي.

فردت السكرتيرة كفَّها وقالت: نعم. أنا زينة.

كانت تتكلم العربية الأردنية بصعوبة وبلهجة أمريكية، وكانت تبدو مباشرة ومختلفة.

تعرفت عليها، تبادلتا أرقام التليفونات، وتواعدتا على موعد للغداء.

انتظرت خمس دقائق. عشر دقائق. ثم بدأت تشعر بالاستياء فقالت في تحدٍّ: هل يمكن أن تخبري الأستاذ نبيل بأنني أنتظره هنا لأعطيه شيئًا، وأن عليَّ العودة إلى البيت بسرعة.

قالت في لامبالاة بعربيتها الأردنية الأمريكية: لقد أخبرته، وطلب مني أن تنتظريه.

قالت في إصرار: أخبريه بأنني سأرحل إذن وسوف آتي في وقت آخر.

قالت في لامبالاة: حسنًا.

ثم دخلت مكتبه.

عادت مبتسمة وقالت: يمكنك الدخول الآن. ولا تنسي دروس العربية كما وعدتِني.

دخلت مكتبه.

وكانت لحظة تاريخية، وكان مشهدًا لم تتوقعه قط!

كان جالسًا إلى مكتب فخم ضخم ويتكلم مع أحد الموظفين، ولم يأبه بدخولها قط.. نظر إليها نظرة خاطفة وهز رأسه، وقال في ميكانيكية: إزيك.

ثم استمر في الكلام مع الموظف الأمريكي..

فجلست في عدم ارتياح، وكان عندها بعض الوقت لتمتص محتويات الغرفة الغريبة!

آيات قرآنية كثيرة تملأ المكان. وصور لبعض رجال الدين على ما تعتقد، أو ربما أئمة، لا تعرف بالضبط. يبدو كأنهم شخصيات مهمة بالنسبة إليه، ويبدو على وجوههم الوقار والمعرفة. وكان عنده الكثير من الأرفف المكتظّة بالكتب العربية.. كتب تاريخ، أدب، تفسير وأصول الدين، جغرافيا، فلسفة إسلامية، ثم صورة أمامه معلقة على الحائط.. رأتها لأول مرة!!!

نعم رأتها.. كانت تتوقع أن ترى صورة حبيبة

أمٍّ ربما.

ابنة ربما.

أخت ربما.

زوجة ربما.

إمام ربما!

أمامه على الحائط. على كل الحائط رأت خريطة كبيرة بحجم الزاوية.

خريطة للوطن العربي!

حدَّد هو أبعادها.. ورسم كلمات أو رموزًا عند كل موقع على الخريطة، وكأنه يذاكرها منذ سنين.

قلمه الأسود الحبر الغالي كان يعلم ويسيطر على الخريطة الكبيرة.. وكانت تشم رائحة الحبر الطازج، وكأنه فرغ للتو من تحديد معالم الأمة وذبح كل الثوار!

نظرت إلى مكتبه من جديد.. كان هناك خريطة أخرى صغيرة يحتفظ بها على الجانب الأيمن من المكتب أمامه.. يسند عليها ذراعه ويضع قلمه ويشرب قهوته ويضع خده لينام في سلام عندما يكون متعبًا!

كان غريبًا.. مغرورًا وغير مريح على الإطلاق، ولا تفهم لماذا زارته اليوم!

ولكنه أنقذها، ولابد من أن تعطيه هدية وترد الجميل.

بدأت تهز رِجليها في عصبية، ثم همست: ربما آتي في وقت آخر فأنت مشغول اليوم.

قال في ميكانيكية دون أن ينظر إليها: انتظري يا صفاء.. سأكون معك بعد دقائق.

ثم فرغ من عمله مع الموظف، وذهب الموظف. وبقيت هي جالسة في مكانها تحملق في الخريطة الكبيرة في قلق؛ فاللونان الأزرق والأخضر عندما يطغيان على المكان تشعر بالقلق الشديد.

قام واتجه إليها.. جلس على مقعد أمامها وكان مقعدًا عاليًا ويلف في كل اتجاه، وقال: كيف حالك؟

قالت وهي تمد يدها بالهدية: بخير.. كنت أريد أن أشكرك. لم يكن عندي فرصة لأن أعطيك الهدية عندما ساعدتني في المطار. هي بسيطة جدًّا وأرجو أن تتقبلها مني.

تفحَّص وجهها، وكانت متوترة خاصَّةً وهي جالسة على الكنبة القصيرة وهو جالس على الكرسي العالي يسند ذراعه على ظهر الكرسي، ويفرد رِجليه على طرفي الكرسي، وكأن العالم كله ملكه هو ويتفحصها هكذا.

بدا مختلفًا، أكثر حدة وأكثر جنونًا! لا لم تشعر بالارتياح على الإطلاق.

مدَّت يدها بلفافة الهدية قائلة وهي تقوم: اتفضل.. هي حاجة بسيطة قوي.

أمسك بها، التقت أعينهما، وقال في رقة: اجلسي.. هل يمكن أن أفتحها الآن إذن؟

هزت رأسها بالإيجاب.

فتحها في بطء وهو يختلس النظرات إليها. نظر أولًا إلى ورقة البردي.. فردها أمامه.. أبعدها عنه بعض الشيء لينظر إليها نظرة كلية، ثم قال في دهشة: ماذا تقول؟

قالت في حيرة: لا أفهم.

- ما المكتوب عليها؟

- لا أعرف.

ثم أمسك بالتمثال وقال: هذا توت عنخ آمون؟

قالت في تأكيد: نعم.

نظر إلى الورقة من جديد، ثم إليها، ثم قال: أمتأكدة أنتِ من أنَّك لا تستطيعين أن تقرئي المكتوب عليها؟

قالت في إحراج وشيء من الغضب: هذه تذكار فقط.

قام في هدوء.

وضع الهدية على مكتبه، ثم أمسك بكتاب من مكتبته وأعطاه لها، وقال: هل عندك وقت؟ ربع ساعة ربما. ما رأيك في أن نشرب قهوة معًا؟

قالت في حماس: نعم. ربع ساعة ربما لا أكثر.

- هل قابلت عزة؟

- ليس بعد.

- وأنت مرتاحة مع أخيك؟

- نعم، هو طيب جدًّا وكريم، وأمل.. يعني أنت تعرف أنَّها مختلفة عني طبعًا.. جدًّا ، ولا أحب طريقتها مع زوجها ولا مع أولادها، يعني لا تسئ فهمي، هي طيبة، ولكن مادية قوي! كارت الفيزا لا يترك يدها!

ابتسم، واقترب بالكرسي منها ومدَّ لها يده بالكتاب قائلًا: وأنت لست مادية على الإطلاق!

- لا طبعًا!

ابتسم وهو يتفحصها من جديد، ولم تكن تحب نظرات التفحص هذه، ثم قال: جميلة. من هو توت عنخ آمون بالنسبة إليك؟ جدُّك؟ إذا أردتُ أن أطلب منك الزواج أذهبُ له هو إذن!

فتحت فمها في فزع، ثم قالت في غضب وارتباك وحيرة: بالطبع جدِّي، لا أفهم ماذا تعني؟

- وماذا سيطلب جدُّك مهرًا لصاحبة النسب العريق والحضارة القديمة؟

قالت في تحدٍّ وسخريته لا تعجبها: أنا لا أقدَّر بمال.

نظر إلى يدها التي قبضتها على ساقيها في عصبية وهمس: لا، لا تقدَّرين بمال أبدًا.

ثم وضع يده على خده، وانحنى ناحيتها، وقال في جدِّية: هل يمكن أن أسألك سؤالًا محرجًا بعض الشيء؟

- يعتمد على السؤال.

- في مصر.. ألم تقابلي رجلًا فاسدًا يحاول إغواءك؟ رئيسك في العمل مثلًا!

قالت مسرعة: قابلت ربما.

- أريد أن أعرف أكثر عن أحفاد توت عنخ آمون. وعندما يحاول رئيسك إغواءك ماذا تفعلين؟ تخبرين جدك ليتصدى له؟

قالت وهي تتجاهل سخريته: هناك ثلاثة حلول عادةً في هذه الحالات. أولًا ألبس الملابس الفضفاضة، ولا أضع أيَّ زينة على وجهي، وأبدو بوجه متجهِّم يقطع الخميرة من البيت وينفِّر كل الرجال.

- وثانيًا!

- أحاول أن أتحاشاه بكل الطرق ولا أختلي به أبدًا.

- وثالثًا

- أخبر زوجته، ولكن هذا آخر حل، ولا أفعله إلا للضرورة القصوى!

- جرَّبتِ كل الحلول بالطبع!

- أولًا أنا لست جميلة! ولكن أحيانًا الرجال لا تميِّز وتريد امرأة فقط، وأحيانًا كان عليَّ الدفاع عن نفسي وأنا عادةً قوية.

- لا شك في أنك قوية! ولكنني أشك في أن الرجال تريد امرأة فقط! لا بأس. هديتك أذهلتني ولا أدري كيف أردها لك!

- ربما يمكنك أن تعطيني شيئًا لبنانيًّا جدًّا! زيت زيتون.. تبولة.. فرع شجرة الأرز، او امرأة جميلة بحق بشفاه غليظة وقوام ساحر!

هزَّ رأسه في بطء، وقال: أرى أن فكرتك عن لبنان إيجابية جدًّا! ومعلوماتك بالطبع. هل يمكن أن أطلب منك هدية أخرى؟

نظرت إليه في شك، فابتسم وقال: لا تقلقي مني يا صفاء. أبدًا لا تقلقي مني. صفحة خمسة وعشرين في الكتاب الذي في يدك.. شعر حافظ إبراهيم. هل يمكن أن تقرئيه؟

لابد أنه فقد عقله تمامًا!

أو ربما يحاول الزجَّ بها إلى مصير مجهول. لا تفهم هذا الرجل وتخافه، وبدأت تنجذب إليه جدًّا.

بدأت في قراءة متقطعة «أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامن.. فهل ساءلوا الغوَّاصَ عن صدفاتي» وأكملت بقية القصيدة والعرق يتصبب منها، وعربيتها الركيكة تبدو في كل جملة عندما تتوقف أو تبدأ من جديد.. وهو يستمع في انتباه غريب، عابس الوجه.

توقفت وقالت في خجل: أنا آسفة، العربي بتاعي..

قاطعها وهو يبتسم: جميل جدًّا. هل يمكن أن نفعل هذا بين الحين والآخر.. نقرأ الشعر معًا.. نستمع إلى الموسيقى..

قالت في حدة: لماذا؟ كأصدقاء مثلًا!

فكَّر قليلًا ثم قال: لابد ألا نحدد العلاقة بعد. ولكن لا تقلقي على مستقبلك معي، فأنا كما ترين مباشر جدًّا وصريح. تعلمت هذا من الأمريكان. وأبدًا لن أحاول ولن أجرؤ على أن أطلب المزيد من حفيدة توت عنخ آمون.

مدَّ يده ليصافحها وقال: ديري بالك على حالك. الله معك!

قال جملته الأخيرة باللبنانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عزَّة كانت سيدة في الخمسين، ترتدي إيشارب أزرق وفستانًا ضيقًا يظهر إيجابيات وسلبيات جسدها المخضرم. لم تكن صفاء متأكدة من معنى الإيشارب الأزرق. هل يعني أن عزَّة محجبة أم محتشمة أم راقصة معتزلة؟

بعد دقائق من المقابلة بدا الاحتمال الأخير أقربها إلى الصحة!

ضمتها عزَّة وكأنها تعرفها منذ سنين، وجلست، وأشارت لها بالجلوس، ثم نظرت حولها وكأنها تتأكد من أن المكان خالٍ وقالت: إزيك يا حبيبتي. أنا مبسوطة قوي إني شفت واحدة مصرية زيك هناً في أمريكا.

قالت في حماس: كنت أزور أخي كام يوم يعني.

تغيَّر وجه عزَّة بعض الشيء وكأنها تكره أحمد كرهًا شديدًا، وقالت في عدم ارتياح: نعم أنتِ مختلفة عن أحمد. هو متعجرف ولا يتكلم معي أبدًا ولكنك أنت مختلفة!

لم يبد لها أن أخاها متعجرف قط وبدأت تفهم قليلًا لماذا لا يتكلم أحمد معها كثيرًا.. كانت حركاتها تدل على ماض مليء بالمغامرات وأحداث الشغب.

موضوعان كانا يستهويانها: نبيل ودبي! وهذه السيدة تبدو تلقائية، ويبدو أنها فقدت كل الأشياء التي تؤدي بالمرأة للكذب والتحفظ كالشرف والكرامة والكبرياء والعائلة.

قالت مسرعة: تعرفين نبيل من زمان يا عزَّة؟

ابتسمت وقالت في شيء من الدفء: نبيل.. بالطبع، أعرفه منذ زمن.

نظرت إلى صفاء ثم مصمصت شفتيها وغمزتها بيدها، وقالت: لو كنت في سنك لكنت سأحبه على الفور!

قالت مسرعة وصراحتها بدأت تقلقها: لا، أنا لا أعرفه أصلًا!

- بالضبط. كنت سأحبه على الفور، ولا أحاول أن أعرفه أبدًا. نصيحة مني يا صفاء، إنت زي بنتي، وأنا عرفت رجالة كتير في حياتي. دلوقتي ممكن أقول، مفيش مشكلة! نصيحة.. إياك! إياك أن تحاولي معرفة رجل. اعشقيه دون محاولة التفتيش عن هويته. فالرجل المُعرَّف يفقد رونقه! تفهمين؟ ده الفرق بين الرجالة الأمريكان والعرب. الراجل الأمريكي زي الصفحة المقروءة أمامك. كل شيء واضح من البداية حتى الكذب لا يتقنه. أما العربي يا صفاء.. العربي.. فاخشيه! واعشقيه.. يتقن الكذب وكأنه وُلِد ليكذب، ويتقن العشق وكأنه وُلِد ليعشق، ويتقن تشكيل المرأة بأصابعه وكأنه قائد طاغية. اسمعي كلامي، أنا جربت ده وده. أنت امرأة عربية أيضًا، وتحتاجين إلى الطاغية الذي يذيبك ويفتتك بداخله.

قالت في تلقائية: نحن مصريون يا عزة.

ابتسمت: نعم، مصريون.

- لماذا تركتِ دبي. هل جننتِ؟ كيف تتركين دبي ؟ يقولون إنها جنة الله على الأرض.

أمسكت بيدها وهمست: هي جنة على الأرض، وجنة الأرض مختلفة عن جنة السماء. في جنة الأرض هناك الفقير والغني.. الكفيل والمكفول.. البائع والمشتري. العبد والحر، يا حبيبتي، هناك فقط بدأت أشعر بأنني عربية ولست فقط مصرية.. كنت أعمل أنا والكثيرات من المغربيات واللبنانيات وغيرهن من الفقيرات! أصحاب الذهب لا يعملون كأصحاب الطين والتراب والتاريخ والماضي.

- ماذا كنتِ تعملين في دبي؟

قالت في لامبالاة وهي تمسك بفنجان لتضع القهوة: مع البنات يعني، ولكن لابد من الحرص، فالبوليس كان يبحث عنا دائمًا. الزبائن من كل مكان.. الأمريكي والعربي والهندي.. كل مكان. وكلما زاد الضغط على الرجال زادت الزبائن. وكلما عمل الرجل كالطاحونة ليكفل زوجته زادت الزبائن.. الكثير من الزبائن.

بدا على صفاء الخجل وقالت: عزة.. الحمد لله أنك تركتِ هذا المجال.

- لم أكن أستطيع أن أستمر.. تفهمين؟ السن بدأت تتقدَّم والبوليس يقبض على الكثيرات، والأمراض.. لم نكن نعرف كل هذه الأمراض، البنات الآن أكثر حذرًا منَّا. نحن جيل الرواد يا حبيبتي. و.. أقمت علاقة بأمريكي هناك، رجل عجوز، تزوجني وانتقلنا إلى هنا. عملت راقصة في مطعم لبناني، وهناك قابلت نبيل مع زوجته الأولى.. طلبت مساعدته وساعدني.

قالت صفاء: متى ترك زوجته؟

- منذ عشر سنوات على ما أعتقد. زوجته كانت أمريكية. لم تقابليها بعد!

- كيف سأقابلها؟

- لأنها تعمل هنا أحيانًا! ربما تقابلينها؟ يعني هي باردة شوية، وأعتقد أنه كان زواج مصلحة.

قالت في شيء من الاستياء: شخصية الأستاذ نبيل هذا..

قاطعتها: ماذا قلت لك من قبل؟ لا تبحثي عنه، ولا تحاولي فهمه. نبيل رجل غريب. أحيانًا أعتقد أنه فقد عقله منذ زمن، وأحيانًا أعتقد أنه عبقري. وهو أكبر منك بكثير.. لذا صعب أن تفهميه، وصعب أن يفتح قلبه لك أبدًا.

قالت مسرعة: لا أريد أن أفهمه. أنا لا أهتم بموضوع الزواج هذا أصلًا!

ابتسمت في مكر: من يتكلم عن الزواج يا حبيبتي؟ يقطع الزواج وسنينه. كنت متزوجة من مصري.. عامل في شركة وأنا في دبي. كان في مصر مع الأطفال. ينتظر عودتي في الصيف، وينتظر الدولارات والدراهم دون أن يسأل عن مصدرها.

- لا أتخيل رجلًا مصريًّا بهذه..

قاطعتها: مصري ولبناني ومغربي وكل الجنسيات يا حبيبتي. أنا والبنات كان بيننا ما تسمينه الوحدة العربية! كنا نشعر بنفس الآلام والقرف أحيانًا!

قالت وهي تقوم: ماذا تقصدين بهذا؟ أنا لا أفكر في الزواج، وأنا بالطبع بنت محترمة، هل تعتقدين أنني..

ابتسمت في مكر: أخوك حذَّرك من الكلام معي، أليس كذلك؟ ولكنك جئت. تكلمتِ معي.

قالت في فزع: أنا لا أحكم على الناس مثله، ولكن هذا لا يعني..

قاطعتها: البنت المحترمة عادة محترمة لأنها لم تقابل رجلًا يستطيع أن يغويها يا عزيزتي. وكل امرأة يمكنها أن تقابل رجلًا يستطيع غوايتها. الفرق بين الشريفة وغير الشريفة هو الحظ. وحظك يا حبيبتي لا يبدو جميلًا لي إذا كان الرجل الذي تهتمين به هو نبيل. حظك لا يبدو جميلًا على الإطلاق.

بلعت ريقها في شيء من الخوف، وقالت وهي على وشك الرحيل: هنا نختلف. ولكنني لا أفهم أتحذرينني أم تَعِدِينَني أم تُمَنِّينَني أم..

- ربما الثلاث معًا يا حبيبتي. في كل الحالات ستعرفين ما أقصد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عضَّت على شفتيها وهي تتذكر وجهه.. وسيمًا.. كيف لم تلاحظ من قبل وسامته؟.. وجسده الذي يشع قوة، والخطوط الرقيقة التي تظلل زوايا عينيه عندما يبتسم.. والنغزة المحاطة بتجاعيد طفيفة.. والوجه الحازم الذي يشع بالرجولة والنضج.

كان مختلفًا عن محمود.. كان يكبر محمودًا بخمسة عشر عامًا على الأقل.. محمود في مثل سنها، وكانا يتعاركان كالديوك! ولا تتخيل نفسها ديكًا أمام هذا الرجل.. في لحظات سيطر على مشاعرها تمامًا.

وكانت ترى في ذراعيه القويتين تجارب وحياة وعمرًا طويلًا، وتتمنى لو تنام بينهما.

نعم أعجبت به إلى أبعد حد. بذكائه.. بقوته.. بتحكمه في كل شيء.. وبالوعود في عينيه.. والدهاء في ابتسامته.. والخبرة في خطوط طفيفة تراها بوضوح.

كان رجلًا.. ساحرًا.. وليس للسحر وصف. كان رجلًا يحتوي امرأة بإصبع يده، ويحب امرأة بكيانه كله. وكان هناك عُنْف تراه في عضلات فمه التي تختلج محتبسة بين فكيه.. كانت تستشف العنف وتخافه.

تخافه.. وخوفها زادها فضولًا وانجذابًا وإعجابًا.

كيف يمارس هذا الرجل الحب مع امرأة؟

ترى ما طعم قبلاته؟.. كيف ينبض قلبه؟ وصدره الخفي بماذا ستشعر يوم تنام عليه؟..

كان لابد ألا تفكر بهذه الطريقة.. فقد رأته مرتين فقط. وهو غير مناسب على الإطلاق.

عليها أن تركز في شيء آخر.

ولكنها بطبعها ذكية، حتى لو كانت بريئة في أمور التجارب الجسدية فهي خبيرة في الأمور الحياتية، ولديها الذكاء الفطري للبنت المصرية.

هو معجب بها. بالطبع معجب بها. عليها أن تبدأ في خطة محكمة تودي به إلى الزواج. لابد أن تخطط بحرص ودقة فهي تتعامل مع رجل داهية. ويكبرها في العمر والخبرات، ولكنَّ للبراءة طعمًا مختلفًا وذكاءً طازجًا، وللعيش في الإبراهيمية والمشاجرة مع البواب والبقال والتاكسي مميزات كثيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظرت لسندوتش الهامبورجر الكبير، ولم تكن متأكدة من أين تبدأ أكله بالضبط، ونظرت إلى زينة التي طلبت طبقًا من السلاطة، وجلست تلتقط كل ورقة من الخَسِّ بملعقتها كالعصفورة، وقالت:ماذا تأكلين؟

- سلاطة بجبن الماعز وعين الجمل.

نظرت إليها صفاء بقرف واستغراب! ثم قالت:احكي لي يا زينة عن حبيبك الأمريكي؟

بدأت زينة في الكلام في حماس، ثم أخرجت صورة من حقيبتها، وقالت: صفاء.. هل تريدين رؤية جدتي؟ هي ماتت العام الماضي. كنا نراها كل عام عندما نذهب إلى الأردن.

في البداية التبس الأمر على صفاء، فتغيير الموضوع جاء سريعًا، ثم فهمت بعد ذلك أن زينة من عادتها فتح الموضوعات المفاجئة وإغلاق الموضوعات في أي لحظة، وتأكدت من أن زينة لا تصلح لأي محاولة تواصل، ولم تفهم كيف تحب زينة رجلًا أمريكيًّا. وكيف تتواصل معه، إلا إذا كان الأمريكان جميعًا يعانون من مشكلة في التواصل مع الآخرين، وهذا جائز بالطبع، والدليل على ذلك موت السيدة الأمريكية في المطار، لأنها صُدِمت عندما وجدت فتاة مصرية تتواصل معها بطريقة طبيعية!

لا بأس. نظرت صفاء إلى الصورة، وفتحت عينيها في ذهول. وقالت مسرعة: زينة! يبدو أنك اتلخبطتي ولّا حاجة! ده صورة من على كارت، صح؟ دي مش جدتك.

نظرت إليها زينة وكأنها لا تفهم، ثم أخذت الصورة منها، ونظرت إليها، وقالت في تأكيد: هذه جدتي. أليست جميلة؟

آه كم كنت أتمنى أن أعيش مثلها مع الصحراء والطبيعة.

أعادت صفاء نظرها إلى الصورة.. كانت صورة لامرأة بدوية ترتدي جلبابًا أسود، وغطاء رأس أسود بملامح قوية وتجاعيد طاغية، وكانت تصنع الجبن

بطريقة بدائية.. وتهز الجبن لساعات! وظنت صفاء أن هذه صورة من كارت سياحي بالتأكيد، وأن زينة فشّارة بطبيعتها!

قالت زينة في فخر: لماذا كل هذه الدهشة؟. قبيلتنا شهيرة في الأردن. أتعرفين؟ قبيلتنا لا تتزوج من الخارج أبدًا، ولا حتى من عَمَّان للحفاظ على الدم. أبي هو ابن عم أمي وربما أبي يتوقع أن أتزوج من ابن عمي! آه كل هذه التوقعات!

ثم صمتت وقالت فجأة:و أنت يا صفاء.. هل أنت معجبة بنبيل؟

قالت دون تردد: نعم.

وكانت تشعر بمساحة لا بأس بها من الحرية في التعبير.. ربما تأتي مع الجو البارد أو المساحات الشاسعة أو غياب الأقارب والأصدقاء.

قالت وهي تبتسم: أعرف.. كل النساء تعجب به. أتعرفين ماذا قالت لي زوجته الأولى؟ كانت صديقتي، قالت: إن الرجل اللبناني قلبه ينبض لشخص واحد فقط.. أمه! أما النساء في حياته فكالصفقات، يتعامل معهن بعقله فقط. وقالت أيضًا إن نبيل.. يعني.. خانها في الكثير من المرات ولم تستطع العيش معه.. كانت تقول: الرجل العربي لا يحترم المرأة وخاصَّةً المرأة الأمريكية. لأن المرأة الأمريكية تأتي دون ثمن، وعادةً في سن زوجته الأولى لا تكون عذراء. وهي تقول: الرجل العربي يريد أن يدفع القرابين للعذراء، ويتعذب ويسهر، ولا يفهم علاقة المساواة بين المرأة والرجل. في الحقيقة هو خانها مع لينا، وهي لبنانية أيضًا، أقام معها علاقة دامت لسنوات بعد زواجه. كان الكل يعرفها.

قالت في فضول: ولماذا انتهت العلاقة؟

- لا أحد يعرف بالضبط! ملَّها على ما أعتقد. كانت بارعة الجمال والذكاء. كانت طالبة دكتوراه ومن أصل أمريكي لبناني. ولكنها كانت غيورة وتطبق يدها على رقبته وكأنها تريد قتله!

قالت صفاء في حماس: شيء طبيعي أن يتركها. كلام زوجته الأمريكية صحيح، الرجل يريد العذراء صعبة المنال يريد أن..

بدا على زينة الارتباك، وفهمت صفاء في لحظات أن زينة فقدت عذريتها منذ زمن ليس بقريب. فقالت صفاء مسرعة: أنا صديقتك يا زينة، وأفهم، وإذا كنت تريدين لتوم هذا أن يتزوجك فلابدَّ أن تتوقفي عن علاقتك الجنسية معه! فلا سبب له الآن من الزواج منك. توقفي عن العلاقة، ثم أعطيه إنذارًا.. قولي إنها رغبة والدك، وإنه لا حيلة لك فيها. قولي إنك تحبينه وتقاومين مشاعرك. وتحتاجين دعمه وإخلاصه! هلِ تفهمين؟ بعضِ التفكير يسِاعد مِع الرجال.

- ولو ذهب لأخرى؟ لو ظن أنني معقدة وأنانية لأنني أريده أن يقوم بخطوة غير مستعد لها؟

- ربما يقول كل هذا، ولكنه لو كان يحبك حقًّا فسيتزوجك! جربي نصيحتي.

نظرت إليها وهي تبتسم في مكر، ثم قالت: وكيف عرفت كل هذا يا صديقتي؟ هل هذه خطتك مع نبيل!

- ربما. تعلمت كل هذا بالفطرة بالطبع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن متأكدة بالضبط من يصطاد من، ولم تكن تدري لماذا تريده هو على وجه التحديد.

تمدَّد على كرسيه كعادته، وتفحص وجهها، ولم ينطق.

كانت نظراته تُشعرها بالارتباك والحيرة إلى أبعد حد، وكان هناك خوف كامن من مستقبل مجهول هنا!

ابتسم وقال: تشربين قهوة معي؟

- أمريكية أم عربية؟

- عربية بالطبع.

- هل يمكنني أن اسأل سؤالًا خاصًّا بعض الشيء؟

نظر إليها وقال: تحت أمرك.

- لماذا تعلق هذه الخريطة الكبيرة هنا؟

نظر إلى الخريطة ثم إليها، وقال: لأحدد معالمها بالطبع..

- كيف؟

- هذا وطني.

أشار للخريطة.. بإصبعه.

- لبنان؟

- ليس على وجه التحديد.. جدَّتي سورية، وجدِّي أردني، وعمي فلسطيني.. من بلاد الشام.. منذ حوالي ثمانين عامًا لم يكن هناك لبنان ولا سوريا.. ولا الأردن..

بدأت تسأم الكلام في السياسة، وكانت تتمنى أن تتكلم معه عن نفسه.

نظرت إلى وجهه بعينين مفتوحتين لا ترمشان.. تفحصته دون أدنى خجل، وكأنها طفل لم يتعلم الخوف بعد.

التقت أعينهما، فابتسم ابتسامته التي بدأت تعشقها، وبدت الخطوط عند زاوية عينيه من جديد.. همس وهو يعتدل في جلسته ويسند ذراعه على ظهر الكرسي كعادته: ماذا وجدت؟

- معذرة؟

- لابد أنك رأيت شيئًا جديدًا لم ألاحظه من قبل وأنت تنظرين إليَّ.. ما هو؟

نظرت إلى الأرض في خجل فقال مسرعًا: لا تخجلي مني أنا.. أبدًا. ماذا رأيت؟

أغمضت عينيها وهمست في دلال: تبدو أجمل عندما تبتسم. أجمل بكثير..

فتحت عينيها في بطء ولم تنظر إليه، وأكملت: تلك الخطوط حول عينيك تعطيك براءة و..

صمتت. احمرت وجنتاها بعض الشيء، وشعرت بدقات قلبها على مسمع منها.

كانت تتعمد بالطبع المغازلة البريئة.. المغازلة البريئة لا تضر أبدًا، وربما تلفت الانتباه للكنز المدفون والحب الذي سيبدأ.

لابد أن تتصرف بلياقة، ولكن بعض الدلال لا بأس به.

رفع حاجبيه في دهشة ثم همس: ابتسامتي.. نعم.. لم ألاحظ هذا من قبل.. ولكنني لست بكل هذا الذكاء. ولم أكسب قضية حسين عبد الحميد وأقف أمام الدولة والحكومة.. لا لا أجرؤ على هذا.

فتحت عينيها في شيء من الفزع وقالت: كيف عرفت اسمه؟

قَرَّب الكرسي أكثر وقال: كنت أظنكِ قد قلتِهِ؟ ألم تقوليه؟ ربما لم تقولي اسمه إذن.. ربما بحثت عنه ووجدته.. أفعل هذا من حين إلى حين.

قالت في شيء من الخوف، شيء من الانبهار: هل تعمل مع المخابرات الأمريكية والمصرية؟

- قلت لك لست بكل ذكائك. قرأت ملف الترافع في المحكمة.. كنت مهتمًّا بهذه المصرية الجريئة وتصميمها الكبير.. أنت مميزة يا صفاء. ذكية ومميزة.

هذا ما لم تتوقعه قط! وهذه اللعبة لا تبدو في صالحها على الإطلاق. ربما تعترف بالهزيمة الآن إذن.. قبل أن تجد نفسها عاشقة له ومعذبة بين يديه.

أبدًا.. لا يوجد رجل يهتم بعملها.

لا محمود ولا أحمد، ولا حتى والدها المفتش في مدرسة الإبراهيمية للبنات. لا يوجد رجل يهتم بتفاصيل القضية ويقرؤها لأنه مهتم بها!

كان يمكنه الآن أن يهمس بكم هي جميلة وجذابة، وكان يمكنه أن يهمس لها بجمال جسدها ونظرتها وطول رموشها وحلاوة صوتها وفمها وأنفها.. وإذا فعل كل هذا كانت ستشعر بالفخر، ربما لا أكثر.. ولكنه لم يفعل هذا!

فاجأها مفاجأة لم تتوقعها.. كان يهتم بها كمحامية.. بعملها، بنجاحها.. كان يغازلها كما لم يغازلها رجل من قبل، وخافت أن تضعف أمامه كما لم تضعف أمام رجل من قبل.

قالت مرة أخرى في ذهول: كيف؟

ابتسم من جديد، وقال في هدوء: عندما يريد الرجل شيئًا.. يحصل عليه.

- ليس هذا صحيحًا.

- بل صحيحًا.

- أخي تمنى الكثير ولم يحصل عليه، وأبي..

- لم يكن يريده فعلًا.

- ولماذا كنت تريد أن تقرأ القضية فعلًا؟

- لأعرفك أكثر بالطبع. لأن عملك جزء منك أريد أن أعرفه.

كان السؤال القادم هو: لماذا تريد أن تعرفني؟ ولكنها قررت ألَّا تسأل هذا السؤال الآن.. فهي تعرف القليل عن الرجال، وتعرف أن الرجال لا يحبون الإلحاح وتضييق الخناق.. ستترك هذا الموضوع إذن.

نظرت إلى الخريطة من جديد، وقالت: وكيف ستحدد حدود العراق؟ ستقسمه إلى سنة وشيعة؟

قال وهو ينظر إلى الخريطة: شيء مقزز ما يجرى في العراق، أليس كذلك؟

قالت في لامبالاة: لا أعرف أصلًا الفرق بين السنة والشيعة..

قال في اهتمام: فارق تاريخي وسياسي وليس دينيًّا.

- ماذا يقولون عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟ هل كانوا يعتقدون أنه هو الذي كان سيصبح نبي الله حقًّا؟

قال في تأكيد: لا، الشيعة يقولون مثلك تمامًا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

قالت في تلقائية: وكيف عرفت؟

- لأنني أنا شيعي.

ظهر عليها الفزع.. هل تحطَّمت كل أحلامها في ثوانٍ..

أولًا- لا تدري أتستطيع الزواج منه أم لا، وثانيًا- لن يتزوجها أبدًا بعد كل ما قالت!!

قالت وهي تقوم في ارتباك: أنا آسفة جدًّا.. حقًّا.. تعرف نحن في مصر نحتفل بعاشوراء.. حقًّا نحتفل بهذا العيد أيضًا..

ثم سكتت لحظات وقد تذكرت أنها بكلماتها ربما تزيد الأمر سوءًا، وقالت بصوت مبحوح:أنا آسفة. أعتقد في مصر هو يمثل شيئًا آخر. لا ننظر إلى اليوم بنفس الطريقة.. أعني..

صمتت من جديد، لا تدري ماذا تقول.

ضحك قائلًا: لماذا تتأسفين؟

- لابد أن أذهب، تأخرت و.. بالطبع لا تريد أن تراني مرة أخرى.

قال في تلقائية: بالطبع أريد أن أراك مرات كثيرة.. ولكنني أريد أن أنصحك نصيحة.

هزت رأسها وهي تتوقع توبيخًا.. سوف يقول إنها ضيقة الأفق ولا تعرف أي شيء عن الشيعة، وإنها متعصبة وإرهابية وإن عليها أن تقرأ أكثر، وإنه من العار أن تكون محامية و..

ولكنه قال في رقة وهو يمد لها يده: أنت مميزة.. أتوقع لك مستقبلًا باهرًا.. لابد أن تتعلمي الإنجليزية ثم تعملي في المحكمة الدولية في الأمم المتحدة في عمل مهم.. سأساعدك لو كنت أستطيع.

همست في شيء من الألم: لماذا؟

نظر إلى وجهها وقال: عندك وجه عربي ممتلئ بالكبرياء.. يعجبني. سأراك قريبًا.

ضغط على يدها لثوانٍ ثم ترك كفها. وتركها تمشي في ذهول.. فزع.. حيرة.. وانبهار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يبدو أنها تحقِّق نصرًا غير متوقع وبسرعة غريبة أيضًا. هو يهتم بها، هذا مؤكد. وخطتها مستمرة في التقدم. ولكنه شيعي. لابد أن تفكر في هذا مليًّا، وتسأل ما إذا كان يمكنها الزواج منه، هو شيعي، وهو ليس مصريًّا.. ولن تبيع نفسها كالفتيات في القرى لأصحاب الخليج.. لا لن تبيع نفسها لعربي أبدًا.

فهي مصرية، وكبرياؤها لا يسمح لها بأن تبيع نفسها.

ولكن كلماته اليوم.. اهتمامه بها هي.. كإنسان.. بطموحها، بمستقبلها.. سَحَرَها هذا الاهتمام. وأصبحت كالطفل الذي لا يفكر إلا في لعبة واحدة ويريدها هي فقط. لابد من حل للمشاكل الاقليمية واختلاف المذاهب وإغلاق الحدود. ستبحث عن حل.

وهي ذكية، والغزل البريء يساعد كثيرًا بالطبع، والتخطيط الدقيق يقرِّب الهدف.

ولكن كان لابد من المعوقات والمطبَّات الصناعية، وأهمها أخوها أحمد.

عندما عادت من مقابلة نبيل.. كان أخوها ينتظر قدومها في عصبية غريبة.. وكان جالسًا على كرسي في حجرة الطعام..

وعندما فتحت لها أمل الباب بدا عليها القلق، ولأول مرة تجد نظرات شفقة في عيني أمل، وقالت: أين كنتِ؟ أحمد يريدك في غرفة الطعام.

لم تكن تخاف بسهولة.. كانت جريئة إلى أبعد حد.. ودخلت وقالت لأخيها مسرعة: كنتُ في الشركة اليوم أزور زينة.

قال في عصبية: لا أريدك أن تذهبي إلى الشركة أبدًا.

- ستحبسني إذن؟ ربما، لابد أن أرحل.

- نعم.. ربما من الأفضل أن ترحلي، ولكن لا يمكنك أن ترحلي الآن.. نبيل يمسك رقبتنا كالعادة. لابد أن ننتظر إذنًا برحيلك!

قالت في غضب: تطرد أختك؟

قال في صرامة: لا أدري كيف تفكرين؟ أنت لست مراهقة صغيرة. تركتِ خطيبك، وأنا معترض على هذا.. كان رجلًا محترمًا، ولكنك كنت مغرورة، وتريدين التحكم فيه، وأنت زرت نبيل مرتين، أليس كذلك؟

لم تفقد أعصابها.. قالت في قوة: نعم. أعطيته هدية أول مرة، وهذه المرة كنت أزور زينة، وكان باب مكتبه مفتوحًا، فقررت أنه ليس من الأدب ألَّا أسلم عليه لا أكثر. لا أدري.. إذا كنت تخاف منه هكذا فلماذا تعمل معه؟

صاح فجاة: أنا لا أخاف منه. أنا أخاف عليك.

قالت في سخرية: هل من عادته أن يلوث شرف البنات الأبرياء؟

- لا. لا يفعل هذا.

- إذن لماذا تخاف عليَّ؟ أنا أتعامل مع الرجال في مصر كل يوم؟ عملي كله مع الرجال.

- أنت لا تفهمين شيئًا.. نبيل مختلف.

- نعم، لا أفهم شيئًا. مختلف كيف؟

- اجلسي يا صفاء. أريد الكلام معك.

قالت في غضب: لماذا تعاملني على أنني بلهاء؟ أنا محامية، وكسبت قضية ضد الحكومة. هل تظن أنني بلهاء؟

- لا. ربما. لا أدري. أنا أعمل معه منذ ثلاث سنوات فقط. سمعت القليل عن علاقاته الكثيرة. كان عنده علاقة بعد طلاقه بطالبة دكتوراه من أصل عربي دامت سنين.. تركها على ما يبدو بقسوة.

قالت في لامبالاة: بنت صايعة بالطبع.

- نعم، ربما بنت صايعة.. ولكنها إنسان.. سمعتها يومًا ترجوه. جاءت لتزوره، وكانت ترجوه وتبكي، ولم تهتز شعرة من رأسه.. سمعت أنها حاولت الانتحار مرة واثنتين.. ستنجح يومًا. الرجل الذي يفعل هذا بامرأة لا يمكن الثقة به. هو «جدع» معنا جميعًا.. ولكن به قسوة مخيفة. ربما لا يتقي الله في النساء، لا أدري.

لم تحرك قصة الصديقة التي حاولت الانتحار أي مشاعر بداخلها. ولم تكن تأبه بمصيرها. وكانت تعرف أنها ليست بغباء أي فتاة تسلِّم نفسها لرجل قبل الزواج. ولم تكن تنوي هذا. كانت تنوي أن تكون زوجته وليس عشيقته. ولذا لم تؤثر فيها كلمات أخيها. تعلمت كيف تحافظ على نفسها وكيف تدفع بيدها الفتن بعيدًا. تربت في الإبراهيمية، وبين الجيران والعمل في المحاكم كانت تعرف أي زر تضغط عليه لتوقف الرجل. لا، لم تؤثر فيها القصة.. بل أثارت فضولها.

- ولماذا ترك زوجته الأمريكية.

- صفاء.. العرب أحيانًا والمصريون أيضًا يتزوجون من أمريكيات فقط للحصول على الإقامة والجنسية لا أكثر.

- زواج مصلحة إذن!

- لا أدري. رأيتها مرة أو مرتين.. تكرهه كرهًا شديدًا. بدا لي أنه يخرج أسوأ ما في النساء.. يستعملهنَّ ويلقي بهن في السلة، وأنا لا أحترم هذا.

قالت في جدية: لا شيء بيننا. لقد رأيته مرة أو مرتين لا أكثر. في الحقيقة هو لا يعجبني على الإطلاق، وهو شيعي، هل تعرف؟

هز أخوها رأسه بالإيجاب ثم قال: لا أريدك أن تذهبي إلى الشركة مرة أخرى، وأيضًا زينة صديقتك لا تعجبني.

- أحمد، إذا كنت لا تريدني أن أذهب إلى الشركة فسوف أنفذ ما تريد، ولكن زينة صديقتي، وأنت لست وصيًّا عليَّ، ووالدي لم يزل على قيد الحياة.

ثم قامت قبل أن ينطق، وقالت: وأريد أن أنام الآن، فلم أنم جيدًا أمس.

دخلت أمل على زوجها، وبدأت تهدئته ببعض الكلام الرقيق معه أثناء تجهيز الغداء.

ودخلت صفاء حجرتها وهي تفكر في شيء واحد.. كيف سترى «نبيل» لو لم تذهب إلى الشركة؟ هل سيحاول هو الاتصال بها؟ ماذا عن زينة؟ يا لَسذاجة أخيها! ينظر إلى الأمور نظرة سطحية جدًّا. ولا يعرف ثمن البراءة والشرف. الرجل مثل نبيل يتمنى فتاة مثلها في براءتها وذكائها و.. أولًا لابد أن تسأل في موضوع زواج الشيعي بالسنية! ثم تبدأ خططها من جديد بإتقان وبلا غرور.

بعثت برسالة إلكترونية لصديقتها هند في مصر تطلب فيها من هند أن تسأل ما إذا كان زواج السنة والشيعة حرامًا أم حلالًا. وكان هناك موقع على الإنترنت للفتاوى تعرفه صفاء جيدًا ولكن بحثها فيه عن أمر زواج السنة والشيعة كان يعطيها نتائج مفزعة!! ولذا أرادت من الصديقة أن تسأل شيخًا متنورًا.. وبعثت لها الصديقة برسالة طويلة تسأل فيها عن سر العلاقة بالرجل الشيعي، وتقول في النهاية إن الشيخ يحلُّ هذا الزواج ما دام الرجل ينطق بالشهادتين.

الطريق أصبح ممهدًا لانتصار ساحق على الصعيد العاطفي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرَّ أكثر من أسبوعين.. لم تره بعد.

بدأت تفتقده وتغتاظ لأنه لم يحاول الاتصال بها.

لابد من مخرج.

وجاء المخرج.

سافر أخوها يومين. الآن يمكنها أن تذهب إلى الشركة.

وعندما يعرف؟

لابد ألَّا يعرف. ستخبر زينة أنها لا تريده أن يعرف. والآن وقد تأكدت من أن هذا الزواج جائز شرعًا فلابدَّ أن تتصرف بسرعة. ستزوره وستخبره بأن أخاها منعها من رؤيته، وسوف توضح له أنها تميل إليه، وأنها تتمنى رؤيته، وأنها تقاسي مع أخ غيور وظالم، وتحتاج إلى إنقاذ من القهر والاحتلال، ومادام نبيل رجلًا شهمًا أنقذها من قبل فسينقذها من جديد، وستصبح رئيسة أحمد وأمل قبل مرور شهرين على زيارتها لأمريكا.

ما أجمل الأحلام والخطط القصيرة المدى.

فلنبدأ من اليوم.

نظرت للثلوج من حولها. أنعشها الثلج وهي تسير في هدوء إلى الشركة.. ساعة كاملة وهي تسير في الثلوج وتخطط للقاء.

وعندما كانت على بوابة الشركة خفق قلبها.

لا، بالطبع لا تحبه على الإطلاق. تعجب بذكائه ورقته لا أكثر.

احتضنت زينة وقالت: ما الأخبار يا صديقتي؟

قالت زينة في صوت خافت: أنتِ أذكى امرأة رأتها عيناي! لن تصدقي! لقد طلب توم مني الزواج، وهو مستعد للزواج في الكنيسة الكاثوليكية، خطتك نجحت يا صفاء.

ابتسمت صفاء في فخر: ألم أخبرك! أنا أفهم كل الرجال. تتمنَّعين عنه يذوب بين يديك! الآن فهمت؟

- نعم. الآن أنت مستشاري الخاص يا صفاء.

نظرت صفاء حولها وهمست: لا تخبري أخي أنني جئت اليوم.

- لماذا؟

- فقط لا تخبريه. احكي لي كيف وصلت إلى الاعتراف من توم؟

- في البداية كان شديد الغضب، واتهمني بأنني أضغط عليه وأنني أنانية وأنه سيتركني، وبعد مرور أسبوعين طلب مقابلتي، وتكلمنا معًا، وقال إنه يتفهم موقفي ويريد الزواج!

- الأمريكان دول لا يختلفون عن الرجال في كل مكان على الإطلاق. هل نبيل هنا اليوم؟

نظرت إلى ساعتها وقالت: سيأتي بعد دقائق.

ثم أكملت في برود: ولكنه مشغول جدًّا اليوم يا صفاء، ففاطمة تزور الشركة.

قالت في فزع وهي تلعن هذا اليوم: فاطمة من؟

- لا، لا تقولي اسمها. لابد من استعمال اللقب كاملًا.. هي من عائلة كبيرة جدًّا في الخليج، ولها أسهم في شركتنا، وتعرف نبيل منذ سنين.

ردَّدت في بلاهة: منذ سنين!

قالت مسرعة: علاقة عمل فقط بالطبع. هي مطلقة ولكنها جميلة، بارعة الجمال! سوف ترينها بعد دقائق.

- بعد دقائق!

- ماذا بك يا صفاء؟

- لا شيء. فقط المفاجأة. كنت تقولين إن علاقتهما علاقة عمل؟

ابتسمت في مكر: لا أدري. بالطبع لا أحد يدري بهذه الأشياء.

- جميلة؟

- جدًّا!

- غنية!

- هل تمزحين؟ هي من الخليج.

- إذن لا يوجد أمل.

- أمل في ماذا؟

- في التعاون العربي بالطبع. لابد أن أرحل.

قامت. نظرت أمامها.. كان هو.. مع فاطمة الخليجية!

وكانت فاطمة نحيفة وطويلة، وترتدي عباءة سوداء، وغطاء رأس أسود عاليًا من الوراء، لأنها رفعت شعرها الطويل في كعكة كبيرة، وكان شعرها البني الناعم واضحًا على جبهتها، وغطاء الرأس يحجب نصف الشعر فقط. وكانت سمراء.. ربما.. وملامحها قوية، وأحمر الشفاه الغامق يزين شفتيها.

ورائحة العطر الخليجي الزاعق الفاتن تعبق المكان وتنتشر لتغطي العالم.

قال نبيل: صفاء، كيف حالك؟

ابتسمت في برود وهي تتمنى لو كانت تملك زجاجة العطر الكبيرة لتسكبها على رأسه وترحل. فقال للخليجية: هذه صفاء.. مصرية.

مدَّت فاطمة يدها بأصابع مغلقة وقالت مبتسمة: كيفك يا صفاء؟

صافحتها صفاء، ولن تنسى ما دامت على قيد الحياة ملمس يدها. كانت ناعمة كالريشة البيضاء التي وقعت من عصفورة السلطان. وتمنت لو تسألها عن نوع الكريم الذي تستعمله.. وبقيت رائحة العطر في كفها سبعة أيام.

لابد أن المال يرهب القلوب.

فصفاء نفسها تشعر بالرهبة.. والخليجية محاطة بهالة من الذهب والرخاء وكأنها ملكة الكون. ومصير صفاء مظلم على ما تعتقد.

قالت في تردد: كنت أزور زينة. عليَّ أن أذهب.

ابتسم.. التقت أعينهما.. قال من جديد: الله معك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امرأة خليجية.. فتحت باب المغارة ووجدت الكنز.. ولأنها كريمة كانت تلقي بالذهب للأيدي الممتدة.. وكلما ألقت الذهب امتدت الأيدي وفُتحت البلاد فمها في تَرَجٍ. وأصبحت المدن تُشيد باسم أصحاب الخليج.. والموانئ تُفتح وتشترىً.. والبشر في العالم ينتظر في شوق لاهثًا وراء الذهب المتناثر.. حتى أصبح الذهب المتناثر هو الشغل الشاغل لكل عربي وأمريكي، وكل مثقف وسياسي.. وبغير أن تلقي اليد المخضبة بالحناء الذهب للشعوب الجائعة.. فلا ثقافة ولا حياة ولا مدن ولا موانئ.. وبغير أن تلقي اليد المخضبة بالحناء الذهب لأصحاب المقام الرفيع الأمريكان.. فإن العالم قد انقلب رأسًا على عقب وانتشر الظلم وعم الفساد المنطقة.

هناك الغني والفقير.

دائمًا هناك الغني والفقير.

وفي أيام الفقر.. لن ينفع الماضي العريق والرسوم الفرعونية..

وفي أيام الغنى لا يهم من يكون الأصدقاء ومن يكون الحلفاء.. فالعالم بين الأصابع نتحكم فيه كيفما نشاء.

الغني لا يخطئ ولا يكذب.

والغني يحب الغني فقط.

والفقير لا يحب سوى الغني فقط!

ويبقى مثلث الحب غير المتبادل بين غني وفقير..

لا هذا يعرف هذا ولا هذا يأبه بهذا.

ويبقى شبح العروبة.. بين يدي الغني.. يعبث فيه كيفما يشاء.. يرفعه.. يطويه، يدفنه ويحييه..

لا بأس.

امرأة الخليج مختلفة كل الاختلاف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد ضاع مستقبلها حتى قبل أن يبدأ.

لابد لأخيها ألَّا يقلق، فالأمل تلاشى.

أين هي من أصحاب الذهب والعطر والحناء؟

ماذا تملك؟ تماثيل فرعونية وأوراق بردي؟

أين هي ممن يبنى الجُزر على أطراف السحاب ويعيد تقييم قطرات المطر؟

لا بأس.

ستتناساه تمامًا، وهي قادرة على هذا.

وعندما بعثت لها صديقتها برسالة إلكترونية: كيف حال صديقك الشيعي؟

أجابت في قوة: مات في حادث أمس.

ولم يكن من طبع صفاء الحزن في صمت وكبرياء. كانت تحب أن تجرَّ العالم في أحزانها. ولكن هذه المرة بالذات لأنها مهزومة أمام الخليج في مباراة كرة قدم مهمة للدور النهائي كانت تريد أن تحزن في هدوء.

وأحمد لم يعرف أنها ذهبت إلى الشركة. وهي لم تسمع من نبيل بالطبع كما توقعت. أسبوع آخر. وفضولها عن فاطمة صاحبة الأملاك كان كبيرًا ولم تدرِ من تسأل.

أحمد كان زوجًا هادئًا رقيقًا، ولم تره ينهر زوجته قط. وكان يعشق أطفاله، ولا يحب الكلام كثيرًا عن الناس. يصلي الفرض في وقته، ويعيش من أجل الذهاب إلى مصر في الصيف. لم يكن سيخبرها بأي شيء. فلتحاول إذن مع زوجة أخيها ربما هناك أمل.

حاولت مع زوجة أخيها.. لم تكن تعرف شيئًا.

فلتحاول من جديد مع زينة فهي الآن صديقة عزيزة.

لكنها وعدت نفسها ألا تسأل عنه.

أمسكت بالتليفون، وطلبت رقم زينة، سألتها عن أخبارها، واشتكت زينة من رفض والديها زواجها بشدة، واضطرت صفاء إلى أن تستمع للشكوى ربع ساعة وتعطي النصيحة، ثم قالت: أما زالت فاطمة موجودة؟

قالت في لامبالاة: آه، نسيت أن أخبرك، هناك حفل عربي كبير على شرف الوزير اللبناني يوم السبت، لابد أن تأتي يا صفاء.

- لن يوافق أحمد.

- هو حفل كبير سيجتمع فيه كل العرب، وستتعرفين عليهم جميعًا، والوزير اللبناني صديق حميم لنبيل.

- نعم. كان ينتظره في المطار، أليس كذلك؟

- أعتقد ذلك. هو مشغول جدًّا معه.

قالت في فرح: وفاطمة. رحلت؟

- لا لم ترحل. ستكون في الحفل بالطبع.

- زينة، أنتِ صديقتي.. أريد أن أعرف، هل هناك علاقة بين نبيل وفاطمة؟

صمتت زينة لثوان، فقالت صفاء مسرعة: نحن صديقتان.

- نعم، صديقتان وأنت معجبة بنبيل.

- بعض الشيء، ولكنني قوية ولو أردت أن أنساه فسأنساه. أريد أن أعرف.

- في الحقيقة أحيانًا أعتقد أنه على علاقة بها، وأحيانًا لا. لا أحد يعرف كل شيء عن نبيل، ولكنه يعرفها منذ زمن، وهي في مثل عمره وهما على الأقل صديقان.

- هو على علاقة بها منذ زمن؟

- صدقيني، لا أعرف.

- لا بأس.

- هل ستأتين معي إلى الحفل؟ توم يريد مقابلتك أيضًا.

- سأحاول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان النوم هذه الأيام صعبًا، وكانت تتخيل كلّ يوم فاطمة بين ذراعي نبيل.. يقبلها في رقة، يلمسها في رقة. وكانت تنفخ في غيظ، وتلعن اليوم الذي رأته فيه. ثم تتذكر يده القوية وعينيه السوداوين وحاجبيه الثقيلين، ونظرته الهادئة المليئة بالغواية. ولا تحب هذا الإحساس الجديد الذي ينبض في جسدها لأول مرة. الشوق لشيء لا تعرفه ولا تفهمه. الشوق لرائحته ولمسته وقبلته.

هي لا تعرفه أصلًا. ولن تفكر فيه بعد اليوم. ولابد أن تقنع أخاها بالذهاب إلى الحفل! بأي طريقة. ربما لو أخذت معها أمل. نعم ستتكلم مع أمل أولًا ثم مع أخيها.

فأخوها صعب هذه الأيام، ولم تعد تحتمل سيطرته أبدًا.

ستتكلم اليوم مع أمل. تريد أن تتأكد بنفسها من العلاقة بينه وبين فاطمة. فيبدو أن فكرة نبيل عن الوحدة العربية وتوحيد القبائل المتقاتلة تمتد إلى نساء العرب جميعًا! وهذا يقلقها جدًّا.

ولكن صفاء حفيدة الفراعنة لا تهزم أبدًا، والإلحاح والمكر والابتزاز العاطفي والمعنوي والمادي عادةً ما تأتي بنتيجة إيجابية مع الرجال والنساء على حد سواء.

وعلى مضض وافق أحمد على أن تذهب صفاء إلى الحفل مع أمل، وألا تبقى سوى ساعة فقط، وفَضَّلَ هو أن يبقى مع الأولاد في البيت ويشاهد القنوات الفضائية.

وكان حفلًا لا ينسى.

فتح عينيها وقلبها على العالم العربي بالطبع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث

لم تستطع أن تستقر على كرسيها.. كانت عيناها تبحثان عنه.. أذناها تتوقان إلى صوته.. جسدها يشتاق إلى قربه. ولم يأت.

ربما سيأتي، ربما تأخر بعض الشيء. بالطبع سيأتي.

وكان عشاءً مصيريًّا قابلت فيه ولأول مرة مجموعة لا بأس بها من «العرب».

كانت مائدة الطعام كبيرة، وجلست هي إلى جانب أمل تستمع وتشاهد وكأنها طفل يشاهد الدرفيل يقفز خارج المياه ويعود لأول مرة. كانت تستمع إلى الكلمات والضحكات وتنتظر قدومه مع الوزير اللبناني. لا بد سيأتي.

جلست زينة إلى جانبها.

صافحتها في حرارة وإلى جانبها توم! وكان توم في غاية النشوة وهو يشاهد هذا العالم الذي لا يعرفه واللغة التي لا يفهمها. كان يهمس لزينة بأن تترجم له ما يجري.

وحظ صفاء الجميل جعلها محاطة بمجموعة من العراقيين والسوريين والفلسطينيين.

وبدأت تسمع حواراتهم وتتدخل أحيانًا، ولم تكن بطبعها خجولًا. كانت اجتماعية، تعشق الكلام والضحك.

التفتت لمي السورية وبدأت تتحدث معها عن الفرق بين المقلوبة السورية والمقلوبة الفلسطينية.. ثم التفتت إلى العراقيين وبدأت حديثها معهم عن الوضع في العراق والمجازر.. وأمامها كان يجلس عُمير الفلسطيني.. وكان شابًّا ربما في الثلاثين.. في غاية الغرابة.

كانت المرة الأولى التي تقابل فيها فلسطينيًّا في الحقيقة.. ولم يكن مثل الفلسطينيين الذين تراهم على صفحات الجرائد، جثثًا هامدة بوجه مكشوف، محمولة على الأكتاف، لم يكن يصرخ، ولم يكن يهلل، ولم يكن يبكي على الأرض الضائعة.

كان يجلس إلى جانب صديقته الألمانية وشعره الأسود الناعم مربوط ذيل حصان. شعره هو. أما شعر صديقته الألمانية فكان قصيرًا جدًّا كشعر الرجال. وكان يحمل في جيب بنطلونه مفتاحًا كبيرًا قديمًا تآكل من الصدأ، لا تدري لماذا. لم تحبه على الإطلاق، وودت لو هزَّته وقالت: ألا تشعر بالأزمة والمشكلة! ولكن في الحقيقة عمير كان يشعر.. كان غارقًا في الأزمة والمشكلة!

قال أحد اللبنانيين: أنا لا أحب شهاب الدين الوزير اللبناني على الإطلاق. يريد أن يفتح الباب على مصراعيه للتجارة في لبنان ويتحد مع إسرائيل.. أليس من الأولى للبنان أن تتحالف مع جيرانها العرب، سورية مثلًا؟! لولا حزب الله الذي رفع رأس العرب وهزم إسرائيل لبقيت لبنان محتلة إلى الأبد. سأخبره برأيي عندما يأتي. سأخبره صراحة.

ثم نظر اللبناني إلى مي السورية وقال: ما رأيك أنت؟ السوريون يقولون: لولا سورية لسلَّمت لبنان مفتاح البلاد لإسرائيل ما دامت مصر في سلام مع إسرائيل، والأردن كذلك، فستصبح إسرائيل المسيطر الأساسي في المنطقة.

همست مي السورية في عدم ارتياح: أرجوك توقف عن هذه الأسئلة، وإلَّا فسأرحل.

ويبدو أن مي كانت معتادة على نظام صارم من ضبط النفس وعدم الكلام عن السياسة أبدًا. وإلَّا فستكون العواقب وخيمة.

أكمل اللبناني وهو ينظر إلى صفاء: مشكلة ثلاثة وسبعين أن السادات توقف دون أن يخبر الجبهة السورية. كنا نحارب معًا، وتوقف وحده عن الحرب، ودمَّر الحرب بتوقفه المفاجئ!

قالت صفاء مسرعة: من تقصد بكنا؟ لبنان؟

- سورية بالطبع.

- أنت سوري أم لبناني؟

- سوري ولبناني. والدي سوري وأمي لبنانية. في أمريكا كلنا لبنانيون.

نظرت صفاء إلى مجموعة مهندسي الذرة العراقيين الذين يعملون في أمريكا وقالت: كل هذا بسبب احتلال العراق للكويت.

فأجاب العراقي: كنا كعراقيين لدينا أمنية واحدة وقت أن احتلت العراق الكويت.

جلس الجميع يستمعون في صمت لكلام المهندس العراقي.. وقال اللبناني: ما هذه الأمنية؟

- أن تحتلنا الكويت طبعًا. لتغدق علينا من المال والكنوز.

تنفس كل منهم الصعداء.. وكأنهم جميعًا كانوا يخافون من كلمات العراقي. وضحكوا كلُّهم في وقت واحد.

بدأ الكلام يستهويها جدًّا. فأكمل المهندس العراقي: جواز السفر العراقي الآن في أمريكا معناه «إرهابي». في الحقيقة تركت العراق بعد أن قتل صدام أبي. لم يقتله ولكن أبي اختفى عشرين عامًا. كان من الجماعات الإسلامية، ورفض أن يصلي على مسيحي مات في حرب العراق وإيران. قال لضابط المخابرات: إن المسلم لا يصلي على مسيحي، فاعتقله الضابط. وأمي كانت تذهب كل يوم إلى نفس القسم تسأل عن حاله وتعطي العسكري الطعام ليوصله إليه.. عشرين عامًا. يتغير العسكري وأمي تنتظر.. حتى قال أحد العساكر لها في شفقة: إنت لسه فاكرة يا حاجة. انسي يا حاجة؟

ولم تنس. لم يزل عندها أمل أن يعود. بالطبع الأمريكان يقدرون على كل شيء، ولكنهم لا يحيون الموتى، ولا يسيطرون على أمن العراق!

لفت انتباهها أن العراقي ترك لهجته وسط الحكاية وتكلَّم بالعامية المصرية. وكأن العسكري لم يكن يتكلم عن امرأة عراقية، بل مصرية. لا بد أنه غيّر لهجته كما يفعل نبيل من أجلها فقط. وربما لم يشعر بأنه غيَّر لهجته. ربما خرجت كلماته الأخيرة بالمصرية بلا قصد.

حركتها قصة العراقي. وتوحدت لأبعد حد مع أمه. لسبب ما أخافتها القصة وتشاءمت منها. هل يمكن لامرأة ألا تفقد الأمل أبدًا!

الخوف تسرب إلى قلبها، لا تدري لماذا.

لم تزل عيناها تبحثان عنه.

قال العراقي من جديد: لو عندك جواز سفر مصري. فهذه ليست مشكلة. أما جواز السفر العراقي فمشكلة ولكن! الأسوأ حظًّا في العالم هو الفلسطيني.. لو كنت فلسطينيًّا فأنت مغضوب عليك من القريب والحبيب قبل العدو البعيد.

قال عُمير الفلسطيني في هدوء: أنا الآن أعيش في غزة، أهلي من القدس.

لم تكن تدري ماذا تقول.. قالت في حماس: أهلًا بيك.. أحسن ناس والله.

أكمل عُمير وهو يثبت نظره على صفاء:أختي متزوجة من مصري.. كنت أريد زيارتها في العام الماضي. ولم أستطع، فمصر لا تعطي الفيزا للفلسطينيين بسهولة.. ربما لا تعطيها أبدًا.

قالت صفاء بتأثر: لماذا؟ هذا ليس عدلًا.

قال في حماس: حمير بعيد عنك!!!

فتحت فمها في فزع.. فلسطيني وتتعاطف معه، نعم! ولكن لا بد ألا يجرح مصر أبدًا!

قالت صفاء في جفاء: حاربنا من أجل فلسطين أربع حروب مع إسرائيل في أقل من خمسين عامًا. هل فعل هذا أي بلد عربي آخر؟

ابتسم وهو يهز المفتاح الكبير: لا تغضبي. كنت أمزح.

قالت في تلقائية: ما هذا المفتاح؟

- مفتاح بيتنا في القدس، تركناه بالطبع تحت تهديد السلاح الإسرائيلي، ولكننا نحتفظ بالمفتاح. تركه جدي منذ أكثر من خمسين عامًا. وأقسم أن يعود إلى بيته.. إلى كل تفاصيل بيته، إلى الحائط الأبيض والسجاجيد الصوفية.

قالت صفاء وهي تنظر إلى صديقته: وصديقتك لا تبدو عربية.

قال في شيء من الغضب: هي زوجتي، ألمانية.

قالت في مرارة: بالطبع.

بدأت عيناها تبحثان من جديد. متى يأتي؟

توقف الكل عن الكلام.. بدا الوجل على الوجوه.

كانت تشم رائحة تعرفها جيِّدًا. قوية وصارخة وبها رهبة الذهب.

دنت وانكشفت بردائها الأسود ووجهها القوي. فاطمة الخليجية..

والمقاعد تُنظف، والكل يقف لتجلس، والكل يريدها إلى جانبه، اليد المخضبة بالحناء التي تعطي في سخاء لتبني كل مشروع وكل مدينة وتفتح كل قناة وكل نهر وكل بحر.

طأطأت صفاء رأسها حتى لا ترى مصيرها المظلم، هي لا تغار بالطبع، واللهم لا حسد.

جلست في صمت. تبحث عنه من جديد.

على الأقل جاءت فاطمة مع صديقات أخريات من الخليج، ولم تأتِ مع نبيل. هذه بداية مبشرة بالطبع.

حتى توم الأمريكي نظر إلى فاطمة في وجل، وقام ليعطيها مقعده، ويطلب الرضا والسخاء.

بعد حوالي ربع ساعة دخل نبيل مع الوزير اللبناني.

جلس في الطرف الآخر من الطاولة.. حاولت أن تراه من بعيد ولم تستطع. هل عرف بوجودها؟ تتمنى لو يعرف بوجودها على الأقل.

وكانت تستمع إلى كلمات متناثرة من الوزير اللبناني.. كان يقول: لبنان يريد عملية تجميل وإنقاذ كامل أولًا من سنوات الحرب والاحتلال.. نحتاج إلى السلام. وبعض الأحزاب لا تريد هذا.. تريد التدخل السوري.. والتحالف الإيراني. لا نريدها مسألة شيعة وسنة كما هو الحال في العراق.

ربت نبيل على كتف الوزير وقال: نعم ولكن لبنان تحتاجك، لا بد أن تحافظ على نفسك من أجلها. وأنت تعرف هناك أكثر من تهديد بالقتل.

قال الوزير في فخر: لا يهمني.

قال نبيل والقلق على وجهه: بل لا بد أن يهمك. نحتاجك في لبنان ليشيع السلام.

قامت وقد ملَّت الحديث. قامت تستنشق الهواء في الخارج.

وكان الثلج باردًا برودة لم تألفها.. مشت خطوات في البرد، ثم اتجهت لكابينة تليفونية لتقيها من الثلوج وهي تتمتم لنفسها: لم يرني بالطبع ولا يأبه بي.

طأطأت رأسها من جديد والغيظ يأكل قلبها، ثم رفعته وهي تشعر بريح إنسان داخل الكابينة الصغيرة..

فتحت عينيها لتجده يسند ذراعه على باب الكابينة ويبتسم ابتسامة سحرتها قائلًا في رقة: كنت تبحثين عن شيء؟

لم تنطق.

السعادة انسكبت من عينيها.. هل تقول: كنت أبحث عنك.. عنك فقط.. طوال الوقت أبحث عنك؟

قال في رقة: ألم تعجبك الحفلة؟

لا بد أن تتكلم قبل أن تلقي بنفسها بين ذراعيه، وكم تتمنى أن تلقي بنفسها بين ذراعيه.. نظرت إلى ذراعه كما ينظر الثعلب في الصحراء الجرداء إلى الماء.. قالت في تردد: هل تعرف «عُمير» الفلسطيني؟

قال وهو يتصنَّع الجدية: ماذا فعل؟ يغازلك؟

قالت مسرعة: لا.. كان وقحًا جدًّا. حقًّا أعني..

قال في هدوئه الذي يدغدغها:الفلسطينيون يا صفاء كأولاد الشوارع.. الكل يعطف عليهم ويشفق عليهم ويرمي لهم بفتات الخبز والنقود الفضية، ولا أحد يريدهم في بيته.. الكل يخافهم ويشمئز منهم.. هل تفهمين؟ مصر تعطيهم

وثيقة سفر حتى لا يفقدوا الهوية وماذا يفعلون بالهوية؟ الهوية وحدها قاسية قسوة الشارع.

- ولكنه كان وقحًا! نحن نتعاطف مع..

قاطعها: صفاء.. المصريون الذين قابلتهم يتعاطفون مع الفلسطينيين، ولكنهم يهمسون في شفقة: هم من باعوا الأرض ورحلوا عن البيت.. هم من باعوا الأرض.

فتحت فمها لتنطق فأكمل: ماذا يفعل طفل الشارع الذي لم يترك البيت بإرادته ولم يبع الأرض؟ تستضيفه عائلة شهرًا أو شهرين؟ وهي خائفة، وهي تحاول تغييره، وهي تحاول أن تنزع الغبار عن ملابسه؟ يحتاج إلى أن يعود إلى بيته.

- هذا صعب الآن.. ربما مستحيل.

- ربما.. ربما لا. أتعرفين أنا أعرف «عُمير» جيِّدًا، ويومًا ما جلسنا معًا نستمع إلى فيروز وأغنية القدس، وانهمر في البكاء أمامي، وارتجف وكأنه طفل يفتقد أمه، وباع نفسه لزوجته الألمانية، وهويته كالصخرة داخله تريد التنفس ولا تموت من الاختناق. ولن تموت أبدًا مهما حاول قتلها.

نظرت إلى عينيه.. شعرت بالحب يطفو على السطح، وهمست: أنت تعرف كل شيء! حقًّا. أحيانًا أختلف معك، ولكنني..

ابتسم: لكنك ماذا؟

قالت: لابد أن أرحل.

وتمنت لو يضمها إلى صدره.. مرَّة ربما.

تسمرت عيناها على الأرض، وهمست: لا بد أن أعود.. تأخرت..

هل قرأ أمنيتها؟ هل عرفها؟

اقترب منها.. لم تتحرك.. اقترب أكثر ثم أمسك بيدها في بطء.

ثم نظر إلى معصمها، فتح كفها.. وأصابعه تعبث بمعصمها في حرفية غريبة، وكأنه مثَّال ينحت تحفته.. كانت أصابع تتقن عملها وتعرفه.. مرَّ بإصبعه على عروق معصمها وكفِّها، وتوقف عند عروق معصمها، وهمس: هنا يكمن سر الحياة.. هل تعرفين؟ ليس في القلب.. ليس في العقل.. هنا في هذه النقطة.

ثم أخذ يدور بأصبعه على معصمها والعروق البارزة، وكأنه يحدد معالمه ويرسمها، وكأنها خريطة بين يديه يقسمها ويبني حدودها.

كانت تشعر بقشعريرة في كل جسدها.. لم يلمسها رجل هكذا قط.. بهذه الحرفية والرقة والإتقان. وبدأت مشاعر غريبة تطغى عليها تدريجيًّا، لا تفهمها ولا تعرفها. وكانت تتمنى من جديد أن يضمها إلى صدره ولو مرة واحدة. ولا تحاول فهم المشاعر المتضاربة والشوق الذي يتوغل في العروق.

قرَّب كفها من فمه.. قبَّله قبلات متناثرة.. ثم قبّل معصمها.. قبلة أو اثنتين.. حيث تكمن العروق.. وهو يهمس من بين قبلاته: عروق قوية ثائرة.. مخيفة.. تنبثق الدماء منها وفيها.. خلي بالك من نفسك. وفي بطء.. دفع بيدها إلى كتفه، وأحاط خصرها بيديه، وألقى برأسها على كتفه، وهمس: الجو بارد جدًّا بالنسبة إليك. ولكن ليس بالنسبة إليَّ.. لم أجد بلدًا أبرد من لبنان في الشتاء. يومًا ما سآخذك إلى لبنان في الشتاء.

فتحت عينيها في دهشة ولم تنطق. كيف قرأ أفكارها؟ كيف عرف أنها تتمنى ذراعيه؟ لن تسأله.. ستبقى دقائق بين ذراعيه..

كان رقيقًا معها ولم يلصق جسده بجسدها، أبقى مسافة قليلة جدًّا بينهما وقلبها يكاد يقفز إلى قلبه ولم تعبر المسافة.. كان وبر البلوفر الصوف يكاد يلمس صدره ولا يلتصق به، وكانت تحبه.. تحبه كما لم تحب شيئًا من قبل.. لا خطيبها، ولا السوبر ماركت الترفيهي في الإسكندرية، ولا حتى دبي!

حرَّكت أصابعها على كتفه في تردد، وهمست: مَنْ أنا من نساء الخليج؟ لا يوجد منافسة!

همس في أذنيها وأصابعه تمُّرعلى خدِّها وفمها وكأنها خريطة يقرؤها بين يديه: لا يوجد منافسة؛ لأنه لا يوجد شيء بيننا.

همست في ألم وقلبها يرتجف: حقًّا؟ لا تعبث بمشاعري، أليس كذلك؟

همس وهو يقرب خدَّه من خدها: أنا أكبرك بكم عام؟ خمسة عشر ربما؟ الكثير على ما أعتقد.

قالت في حماس وهي تنظر إليه: لا، ليس الكثير على الإطلاق. عمتي الفرق بينها وبين زوجها عشرون عامًا، وأمي.. أمي..

وضعت يدها على فمها في خجل! ماذا قالت؟ وكأنها تطلب منه الزواج!

ابتسم وحرَّك يده في بطء وهو يحاول أن ينتزعها من على خصرها وقال: هل سأراك غدًا؟

قالت دون تردد: نعم.

- سأنتظرك إذن لتقرئي لي بعض الشعر بعربيتك الركيكة! بدأت أدمنها!

قالت في استغاثة: ولكن أحمد.. أحمد

سكتت فأكمل: منعك من رؤيتي؟ يخاف عليك. لا بد أن تنفذي كلامه بالطبع، ولكن أحمد لن يكون في الشركة غدًا، وأتمنى أن أراك غدًا.

قالت دون تردد وهي تنظر إلى الكابينة الصغيرة المغلقة عليهم والبرد القارس خارجها: سأراك غدًا.

تلاشى من أمامها كالهواء الدافئ.

عادت إلى الحفل وأنفاسها تتلاحق، والجو المنعش في الخارج لا يطفئ نار قلبها المشتعلة. عادت وهي تحب كلَّ من في الحفل من المحيط إلى الخليج.

وبدا الانسجام الكامل بين كل العرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما أجمل العرب عندما يلتقون على مائدة طعام ويستمعون إلى الموسيقى ويرقصون ويفرحون. شيء ما يجمعهم. شيء وثيق. ثقافة سمعية ومرئية ومكتوبة. تفهمها الآن أكثر بكثير.

وتشعر بالحنين للكسكسي المغربي، وجبال أطلس، والصحراء الليبية، وكبرياء السوريين، وطيبة السودانيين، وسحر اللبنانيين، وورد تونس الخضراء، وبترول الخليج والعباءات السوداء والجلاليب الحرير البيضاء، والكلمات العربية المختلفة، والعجرفة المصرية لذوي التاريخ والفقر والفراعنة.

ما أجمل العرب وهم معًا، دون سياسة ولا حدود ولا اتهامات ولا مؤامرات ولا تدخل أجنبي ولا مستوطنات ولا مدافع وأسلحة مشروعة وغير مشروعة!

ما أجمل العرب وهم وحدة ثقافية تتوغل في العالم فتفكك كل الثقافات الأخرى، وتشع بالعدل والخير لتلتهم الشر والجهل!

ما أجمل العرب وهم يتعلمون الطبخات المختلفة للبلاد المختلفة، ويشاهدون كل القنوات الفضائية، ويستمعون إلى غَنّي خليجي وغني لبناني وغني مصري، ويتعاطفون مع أطفال الحجارة وأطفال البؤس والاحتلال!

ماذا نعرف أيضًا عن العالم العربي؟ تاريخ مشترك من الظلم والقهر والدم الذي يسيل أحيانًا بأيدينا وكثيرًا بأيدي الآخرين. دائمًا قاسم مشترك في كل الحروب والصراعات.. البطل الأساسي للموت والدمار.

وكأن العالم يستأجرنا كدرع بشرية في كل معركة، ومهما جرحنا وسالت الدماء لا يرحمنا، ويستأجرنا من جديد!

ماذا نعرف عن العرب؟

وما علاقتنا بالبكاء على الأطلال، والذم والمدح، ووصف السيف والخيل والبيداء، والانتقال من مكان إلى مكان بحصان أو جمل!

ماذا نعرف عن صائدي اللؤلؤ الذين وجدوا كنوز سليمان في الأعماق! لم نكن نصطاد لؤلؤًا ولا وجدنا كنوز سليمان! ولا أي كنوز!

نعمل كالدابة في يد رجل سكير قاس لا يريحها ولا يرحمها لنكسب قوت يومنا بالكاد. لا نجد لا كنزًا ولا ماسًا ولا ذهبًا.

يكتظ بنا العالم ويسير بعضنا فوق بعض.. ويبقى بيننا تاريخ من الظلم والشقاء.. ويبقى شيء مشترك يصعب فهمه.

اليوم وهي بين كلِّ هؤلاء بالتاريخ المختلف، والجغرافيا التي لا تفهمها، والعادات والملابس والموسيقى والمأكولات، شعرت بشيء غريب.

شيء ما يربطها بهم، ربما، ولا تستطيع أن تحدده أو تعرفه.

ربما هو فقط حبها لرجل عربي! أو هكذا يعرف نفسه!

هل تحبه إذن؟!!

لن تفكر في هذا الآن.

ما أجمل الوحدة العربية!

والحب على الطريقة العربية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرت فجأة بالشفقة من أجل محمود، فهي لم تحبه ولقاءاتهما المتقطعة كانت تشبه مسرحية، تعليق المتفرجين فيها يحدِّد مسار الأحداث.

هل ضمها محمود هكذا؟

لا.

معظم مقابلاتهما كانت في بيت عائلتها أو بيت عائلته، وكانت هي تقدِّم تقريرًا مفصَّلًا لوالدتها عن كل شيء بينهما، وكانت تعرف أنه هو أيضًا يقدم تقريرًا مفصَّلًا بالوصف الدقيق لأمه. حتى أيقنت أن الخلاف بينهما كان ينبع أصلًا من خلاف بين أمه وأمها.

تعرَّفت على محمود في زفاف ابنة عمتها وما دامت أمها اجتماعية جدًّا، وكانت قد قرَّرت منذ كانت صفاء في السادسة عشرة أن وقت الزواج قد

حان، فلم يكن محمود أول عريس يتقدم لصفاء، وصفاء نسبيًّا عنيدة وصعبة الإقناع، وطموحها لم يجعلها توافق على أي عريس. كانت قد قرَّرت بعد أن شاهدت فيلمًا وهي في الثامنة عن طبيب ناجح أنها ستتزوج طبيبًا، وعندما تقدم لها محمود وافقت على الفور. ومحمود كان هادئًا في البداية وملامحه لا بأس بها. وكان يحترمها مع أنه لم يقدِّر عملها، وكثيرًا ما كان يقول إنها لا بد أن تتفرغ للأولاد بعد الزواج، وعادةً كانت تغضب ثم يصالحها.

ويومًا اشترى لها حقيبة يد فضية، ولم يعجبها لونها، فذهبا معًا إلى المحل في شارع بيلوز لاستبدال الحقيبة، وبالطبع قامت صفاء بمشاجرة صغيرة مع البائعة في المحل، واستبدلت الحقيبة وكان هذا بعد ثلاثة أشهر من خطبتها، ثم ركبت السيارة بجانب محمود، وعندما أوقف السيارة في شارع جانبي مظلم.. فهمت أنه يريد تقبيلها. فَرَدَ ذراعه ليحيط كتفها، وعقلها لا يرى سوى أمه. إذا قبَّلها الآن فسوف يعود إلى بيت أمه ويخبرها أنه قبَّل خطيبته. وسوف تفرح الأم بابنها الرجل القوي! وسوف ينتصر عليها. وما دامت القضيَّة قضيَّة حَرب.. فلا بد لصفاء أن تنتصر: أزاحت صفاء يده دون أن تشعر بأي شيء على الإطلاق. لم تكن تريده أن يعانقها ويقبلها، ولا كانت تكره لمسته، ولم يكن في عقلها سوى وجه حماتها المبتسم المنتصر الساخر!

همس محمود وهو يقترب منها: أحبك يا صفاء..

قالت في صرامة وهي تتصنَّع الخجل: محمود، أريد العودة إلى البيت. إياك أن تفعل هذا. لا تقبلني. حرام.

قال في ارتباك وهو ينظر إلى عجلة القيادة: أنا آسف.

لم يحاول من جديد.و تفاخرت هي أمام كلِّ أصدقائها أنها لم تقبل خطيبها ولا مرة واحدة، وأخبرت أمها وحماتها أيضًا.

المشكلة أن محمودًا.. لم يحرك أي شيء فيها لا الكره ولا الحب. كان رجلًا لا أكثر.. مثله مثل أي رجل تراه في الشارع وكانت مستعدة للزواج منه لولا تدخل الكثير من الأطراف المتناحرة، وربما بعض الغرور الذي طغى عليها بعد نجاحها جعلها تصرخ في وجه محمود لأهون سبب، وتنهر محمودًا لأهون سبب.

لا.. محمود لم يضمها هكذا قط. ولم يجرؤ. أما هذا الرجل فيجرؤ على كل شيء.

الآن تشعر بالذنب بعض الشيء. الآن تفهم أنها ربما لم تحب محمودًا قط.

أصبح كل شيء واضحًا، وتمنت أن تعتذر لمحمود عن سوء معاملتها له.. وتتمنى له مستقبلًا أفضل مع من تحبه حقًّا. تمنت أن تتصالح مع العالم.

فقد قابلت رجلًا.. مختلفًا عن كل رجال العالم. وهو لها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

باتت ليلتها وقلبها يخفق بمشاعر جديدة. كان رجلًا.. بماذا تصفه؟ ربما كما وصفت عزة الرجال.. طاغية يسيطر على كل الحواس والمشاعر. وأيقظ جسدها وقلبها كما لم يفعل شخص من قبل.

وبالطبع ستراه، ولا بد أن تُحْكم الخطة لتأتي النهاية التي تريدها. إذا كان معجبًا بها، وهذا واضح، فلا بد أن الطريق إلى الزواج سيكون شديد السهولة من هذه النقطة. وتصميمها لا يوصف.

كانت تجري إلى الشركة ولمساته لا تترك مخيلتها، ووجنتاها ساخنتان وقلبها ذائب.

انتظرته في الخارج، وقالت في صوت بالكاد يسمع لزينة: هل يمكنني أن أقابل نبيل؟

قالت زينة وهي تبتسم: انتظريني لحظة.

ثم دخلت عليه، وخرجت وهي تقول في ترحيب: تفضلي يا صفاء.

كان جالسًا على مكتبه يتكلم مع ثلاثة موظفين في ثلاثة موضوعات مختلفة معًا، وما إن دخلت حتى ابتسم لها، وأشار لها بالجلوس.

جلست على الأريكة كالعادة.

وهي تشاهده وهو يدير أعماله، تتأمله في رهبة. كان هادئًا وسريع الحركة، ويلتفت إلى كل رجل على حدة، ويتكلم مع أحدهم بالإنجليزية الفصيحة، والآخر باللهجة اللبنانية.

ومع أنها لم تكن تفهم الإنجليزية جيِّدًا، كانت تنظر إلى الأمريكي الذي يخاطبه، ورأت رجفة في يد الأمريكي، وبدا لها أن «نبيل» كان يهدده ربما، يوبخه ربما، أو يفصله لم تتأكد. وكان الأمريكي يردد: «حسنًا» خمس مرات على الأقل.

ثم ساد الصمت فجأة ونبيل يفكر وهو يحملق في الخريطة، ثم قال من جديد للأمريكي الآخر شيئًا، وبدأ الحديث مرة أخرى.

كان يسلط عينيه على من يتكلم معه، ومع أنه يتكلم في بطء والكثير من الهدوء، كانت عيناه تنبضان بالحياة والطموح والمعرفة والسلطة.

من بعيد بدأت تراه حلمًا يصعب الوصول إليه، ولثوان وربما للمرة الأولى بدأت تفقد الثقة في نفسها وقدراتها. لماذا ينظر إليها هي؟ وإذا كان

الأمريكان يخافونه فما مصيرها هي؟

خرج الثلاثة معًا، فوقف وهو ينظر إليها وابتسم من جديد.

حاولت السيطرة على نفسها، ولكنها هذه المرة كانت تشعر بأنفاسها تتلاحق. والكلام يخرج متقطعًا ومتلعثمًا بعض الشيء من فمها.

- أنا آسفة! هل جئت في وقت غير مناسب؟

قال في صرامة: لا. كيف حالك؟

- بخير.

ثم أكملت وهي تحاول أن تبدو طبيعية: الوزير اللبناني شهاب الدين يبدو رجلًا عاقلًا يهتم بمصالح لبنان.

قال وهو لم يزل واقفًا: نعم. نعم هو لبناني، ويهتم بمصلحة لبنان قبل كل شيء. مصلحة لبنان فقط.

لم تدر ماذا تقول. لماذا لا يتحدث هو؟

ساد الصمت والقلق يسيطر عليها، ثم قال هو: تكلمي معي عن ارتباطك بالفراعنة.

كان يستهويه موضوع الهوية إلى أبعد حد.

- أنا مصرية، نظرتي اختلفت بعض الشيء عن نظرة أجدادي كما تختلف الأجيال، ولكنني مرتبطة بهم، دمي دمهم، وعقلي عقلهم، وتفكيري وإرادتي وصبري ومعتقداتي.. فالفراعنة أول من فكر في التوحيد، والفراعنة أول من..

قاطعها: أول من فكر في الموت.. لا بأس. أخبريني عن بقية الأجداد.. الفراعنة أجدادك منذ خمسة آلاف سنة.. ثم؟ مَنْ أجدادك منذ خمسمائة سنة؟ ماذا عن الإغريق والرومان والعرب والعثمانيين؟

- كلهم محتلون.

- وما تعريفك للمصري؟

- مصري. والده مصري وأمه مصرية.

- ويتكلم العربية، ويستمع إلى الموسيقى العربية. ويصلي بالعربية، ويسافر إلى الخليج.. ويصبر في سلام واستسلام على كل مصائب الزمن وذل القريب والحبيب قبل الغريب.

لم تجب. ولم تكن تريد أن تتكلم عن الهوية والسياسة. كانت تريد عرض الزواج بأسرع ما يمكن.

قال في رقة ولمعان جديد في عينيه: صفاء، تكلمي معي عن مصر وتاريخ مصر القديم إذن، تشعرين بأنك مصرية كما اتفقنا، أليس كذلك؟

قالت في حماس: نعم بالطبع..

وبدأت تفكر في أشياء تربطها بأجدادها..

- شم النسيم مثلًا عادة فرعونية و.. أكل الفسيخ.. هل تعرف الفسيخ؟ و..

قال وكأنه لم يسمعها: عندما أرى طفلًا عربيًّا غارقًا في دمائه لا أسأل من أين هو.. أرى فيه صورتي، في عينيه، في شعره الأسود، في نظرات الغضب والخوف والموت.. صورته تحركني أينما يكون، ويحركني الموت عادة، ولكن الموت العربي لا يحركني..

اقترب منها في بطء، وجلس على الأريكة وهي تستمع إليه في تركيز شديد: الموت العربي يا صفاء لا يحركني ولا يغضبني، بل يحرقني كالصاعقة.

لم تشعر بكم يقترب منها.. شعرت بأصابعه فجأة على شفتها السفلى، يمررها على شفتها وكأنه يستكشف أحجارًا جديدة لمقابر القدماء في دهشة ورهبة وكثير من الفضول.

أغمضت عينيها وارتجفت يدها.. ولم تكن تدري ماذا عليها أن تفعل.. توقفه الآن إذن؟ ربما يتوقف هو نفسه.

استمر في تمرير إصبعه في بطء على شفتيها، وهمس: كنا نتكلم عن الموت الذي يحاصرنا، ما رأيك؟

فتحت فمها وشعورها به طاغ، وهي تشعر بالذنب لرغبتها في أن تقترب منه أكثر.. أن تدفع برأسها على صدره.. أن تلصق جسدها بجسده! منذ متى وهي بهذه الجرأة والفُجْر.. لا، لابد أن ترحل بسرعة.. بأسرع ما يمكن.

اقترب ثم خَطا الخطوة المتبقية، وقبلها قبلة لن تنساها أبدًا.

لم يستأذنها، ولم يراع مشاعرها، ولم يكن عنيفًا. كان يعرف ماذا يريد وماذا يفعل، وكان يفتت عقلها وجسدها، ويغمرها، وقشعريرة تسري في جسدها، وشفتاه لا تتوقَّفان ولاتزالان تستكشفان في حماس، وكانت قبلة مفزعة جريئة، ولم تكن قط قبلة بريئة..

كان يخترقها دون تردد.

أفزعتها فجأة، فدفعت صدره بيدها.. بكل قوتها.. وهي خائفة كما لم تخف من قبل، وسعيدة كما لم تسعد من قبل.

ابتعد عنها بعض الشيء، ثم همس: عن شوعم كنا بنحكي؟ عن الفسيخ؟

لاحظت اللهجة اللبنانية التي اقتحمت لهجته فجأة وسَرَّها هذا وملأها بالغرور. لا بد أن القبلة أثَّرت فيه هو أيضًا.. ولابد أن ترحل قبل فوات الأوان. بسرعة.

ولم تكن تستطيع.

نظرت إلى عينيه ولم تنطق.

ابتسم، وهمس وهو يتجه بأصابعه إلى شفتيها من جديد: جريئة وجميلة وقوية وعيناك ممتلئتان بالخبث والغواية، هل تعرفين؟

طأطأت رأسها في خجل ولم تنطق..

همس: أي لغة تتكلمين؟ تتكلمين بأي لغة؟ تتنفسين أي هواء؟ تشعرين بأي موت؟

ويده هذه المرة لم تتوقف عند شفتيها بل انحدرت إلى رقبتها ثم إلى صدرها، أصابعه تبحث وتستقر وتشيِّد خيامًا من الشوق بداخل جسدها.

انتفضت من مكانها، وجرت بأقصى سرعة، ولم تنظر إليه، جرت وجرت وسط الثلوج لساعة على الأقل..

وقلبها يختلج.. تحبه.

تحبه.. تعشقه..

خجلت من مشاعرها ومن القشعريرة التي تسري في جسدها كلما تذكرت لمساته وقبلته وكلماته.. لابد ألَّا تراه مرة أخرى أبدًا حتى يطلب منها الزواج. نعم لابد ألَّا تراه أبدًا.. ولابد أن يطلب منها الزواج سريعًا جدًّا. فسوف تفتقده اليوم. فليطلب منها الزواج اليوم!

ولو لم يفعل؟ فلابد من الضغط عليه واستعمال كل الأسلحة!

شعرت بالذنب وهي تلمس رقبتها.. صدرها.. كان لابد أن توقفه. لقد أوقفته، أليس كذلك؟ لم يتلاش الشعور بالذنب، ازداد بداخلها، وازداد الشوق لشيء مجهول. وبدأ العذاب.

لن تختلي به أبدًا من اليوم.

وبعد أن قررت هذا خرجت لتتغدى مع زينة كما تفعل، وبدأت تسألها عنه بلا حرج ولا خجل.

قالت في حماس: زينة، أخبريني هل نبيل محبوب بين الموظفين؟ هل يخافونه؟

فكرت قليلًا ثم قالت: هو لا يفقد أعصابه ولا يصيح أبدًا ولكنه شديد الصرامة، ولا يعرف شيئًا عن الديمقراطية. لا يستشير أحدًا. يعطي الأوامر فقط كأنه حاكم عربي. الموظفون في أمريكا لا يحبون هذا الأسلوب، ولكنه يدفع أجورًا جيدة؛ لذا لا يخسر أيًّا من مهندسيه وموظفيه. ولكنني أنا شخصيًّا كثيرًا ما أقسم ألَّا أعمل معه، يطلب مني عشرة أشياء في نفس الدقيقة، وإذا لم يجدها يوبخني، ويتهمني بأنني غير منظمة. صعب في التعامل يا صديقتي جدًّا. ماذا نقول؟ رجل عربي. لذا أقسمت ألا أتزوج عربيًّا حتى لا يأمرني ويلومني وأخافه!

فتحت صفاء عينيها في فضول وقالت: تخافينه؟

- أحيانًا.. عندما يغضب لابد من الابتعاد عنه.

- ولكنك قلت إنه لا يفقد أعصابه أبدًا.

- هذه هي المشكلة. لا يفقد أعصابه ويقطعك أمامه باتهامات وتهديدات و.. يمكن أن يكون قاسيًا ومرعبًا. أحيانًا كنت أخرج من حجرته وأنا أبكي. مرة كان ينظر إلى الملفات التي أعطيتها له ثم يفندها أمامي، وينظر إليَّ في سخرية، ويبدأ في التقاط الأخطاء، وبعد أن يعدِّد كل الأخطاء يبتسم في فتور ويقول: هل تظنين أنني أدفع لك أجرك لأراجع أخطاءك؟! ألهذا أنت هنا لتضييع وقتي؟ لو رأيتُ خطأً واحدًا مرة أخرى فستذهبين إلى بيتك ولا تعودين! تصوري يقول لي هذا؟ قرَّرت بالطبع أن أترك الشركة وأبي تكلَّم معه و.. صفاء.. إياك أن تخبريه بأنني حكيت لك أي شيء. صفاء.

قالت صفاء في تأكيد: أنت صديقتي، لا تقولي هذا. أكملي..

- لا أدري. لا أفهم نبيل.

- لا أحد يفهمه.

- أحيانًا يبقى في مكتبه لساعات دون أن يقابل أحدًا على الإطلاق. هل تصدقين؟ يأتي صباحًا ويجلس ليحتسي القهوة ساعات وحده، ولو حاولتُ أن أدقَّ الباب يفتح ثم يقول في قوة وعدم صبر: أنا مشغول.

ويفكر على ما أعتقد. لا أعرف ماذا يفعل. لا أحد يعرف ماذا يفعل. هو غريب.

في تلقائية نسيت صفاء قرارها بالطبع، وطلبت من زينة أن تهيئ لهما مكانًا للمقابلة وفرصة ليتقدَّم للزواج منها. وقرَّرت زينة أن تدعوه هو وتوم وأم توم وصفاء للغداء يوم السبت في شقتها الصغيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت المرة الأولى التي تزور صفاء فيها زينة في شقتها الصغيرة، وكانت شقة ضيقة للغاية. وكانت صفاء تنتظر قدوم نبيل بفارغ الصبر.

ظهر على زينة التوتر الشديد ودخلت المطبخ ووضعت الأطباق، وهمست لصفاء: لا أدري ماذا أفعل. هل تظنِّين أن أمه ستعجب بي؟

قالت في قوة: بالطبع. هو كان يطول يتزوج مثلك. لابد أن تثقي بنفسك بعض الشيء.

وضعت طبقًا كبيرًا من السلاطة. وكانت قد طبخت مكرونة بالدجاج وسلاطة فقط، وكان هذا بالنسبة لصفاء كامرأة تحفر قبرها بيدها! لو طبخت مكرونة وحماتها تزورها لأول مرة.. فلابد أنها تحفر قبرها بيدها.

أمسكت بزجاجة النبيذ وقالت: سامحيني يا صفاء أنا بعرف إنك ما بتشربي.

قالت صفاء مسرعة: لا يهم. لا يوجد مشكلة.

قالت زينة في حماس: لم أكن أتوقع أن يقبل نبيل دعوتي! هو مشغول طوال الوقت. لابد أنه معجب بك جدًّا!

ابتسمت صفاء ولم تجب. اليوم. يجب أن يخطبها، اليوم. سوف تتأكد من هذا.

دق جرس الباب.

دخل توم.. كان طويلًا وباهت اللون، شعره بني، وبشرته بيضاء. ولم تكن صفاء تحب هذا النوع من الرجال. ووراءه دخلت أمه. كانت مختلفة. ضئيلة ونحيفة، وترتدي جيبة طويلة واسعة وقميصًا بأكمام طويلة، وترتدي على شعرها غطاء صوف. ليقيها من البرد بالتأكيد.

كانت أشدَّ دُكنة من ابنها. وبدت ضعيفة ومترددة.

دخلت.. قالت زينة في حماس بالإنجليزية وهي تقبل توم على خده: كيف حالك يا حبيبي.

قدَّم لها أمه. صافحتها في برود. وبدا لصفاء أن أمه لا تبدو مرتاحة إطلاقًا. بل تبدو في غاية العصبية! يا سبحان الله! الحماة حماة في كل العالم.

جلسا على طاولة الطعام.

وجلست زينة إلى جانبها، وبدأت أمه تسألها عن حالها وعملها وعائلتها. كانت تسأل أسئلة كثيرة وبسرعة كبيرة.

وشعرت صفاء بأنَّ هذه السيِّدة محافظة جدًّا. رداؤها محتشم، ولم تحرك غطاء الرأس الذي ترتديه من على رأسها.

محتشمة بالطبع! لابد أن تخبر أصدقاءها في مصر أن الأمريكان ليسوا جميعًا بلا احتشام. هناك محافظون وأصحاب دين.

وبعد برهة دق نبيل الباب وجرت صفاء لتفتح هي.

شعرت بقلبها يختلج عندما رأته، وصوتها يتحشرج وكأنها مراهقة!

سلَّم على زينة وقبلها.. لابد أن يمتنع عن هذا بعد الزواج! فهي زوجة غيور جدًّا!

جلسا معًا على مائدة الطعام. ولم تلمس والدة توم أيًّا من الطعام.

همست زينة في ارتباك لتوم: لماذا لا تأكل أمك؟ أنا لم أطبخ أي شيء بلحم خنزير.

قال: لا تستطيع يا زينة. الأطباق ليست مجهزة بطريقة دينية، لا تستطيع. لا تقلقي بالك يا حبيبتي.. فلتأكلي أنت.

كانت صفاء تنظر إلى نبيل طوال الوقت. التقت أعينهما مرات ومرات. وكان يجلس إلى جانبها، وشعرت بجسده إلى جانبها. شعرت بجسده كما لم تشعر بجسد رجل من قبل.

همست وهي تحاول أن تداري خجلها: أنا لا أفهم الإنجليزية، ولكنني سمعت كلمة خنزير. لماذا لا تأكل أم توم الخنزير؟ لماذا لا تأكل أيَّ شيء؟

همس نبيل في أذنيها بصوته الرقيق: لأنها يهودية متدينة بالطبع.

فتحت فمها في فزع.

تركت الملعقة وهمست له: هل تمزح؟!

أمسك بيدها وهمس: تحكمي في نفسك يا صفاء.

قامت. اتجهت إلى المطبخ، وأخذت نفسًا طويلًا.. شعرت بزينة تقترب منها.

قالت زينة في خجل وارتباك: هل أنت بخير؟

قالت صفاء في غضب: توم يهودي؟ وهذه السيدة المحافظة يهودية؟

- صفاء.. استمعي إليَّ. نحن هنا في أمريكا وأنا وتوم يحبُّ أحدنا الآخر. مشاكل السياسة ليس لها علاقة بحبنا. العالم كله ضدنا. أمه كما ترين تكرهني كل الكره، ولا توافق على الزواج في الكنيسة وأبي.. لا أتصور ماذا سيفعل. كنت أظنك صديقتي!

قالت صفاء في دهشة: أنا صديقتك، ولكن من كل الرجال في أمريكا لم تقعي في حب رجل سوى رجل يهودي؟

- هنا نحن سواسية. هنا الحَمَل والذئب ينامان معًا بلا خوف. هل تفهمين؟

- وعندما يستيقظان ماذا يفعلان؟

- لا أفهم؟

- يتقاتلان أم يداريان الفضيحة؟

- هل تمزحين؟

- مصيبة! ماذا أفعل سوى المزاح؟ لماذا لم تخبريني من قبل؟

- كنت أخاف من رد فعلك هذا. هل يمكن أن تأتي وتتصرفي وكأنك لست متعصبة!

قالت في غضب: أنا متعصبة!

- أقصد.. يا إلهي، لا أدري ماذا أقصد. أشعر بالرغبة في البكاء. هذا الغداء مصيبة. أمه لا تريد أن تأكل، وأنت تكرهينني و..

ترقرقت الدموع في عينيها. فاحتضنتها صفاء بسرعة، وقالت: معلهش يا زينة. متزعليش يا حبيبتي. الله يقطع الحب وسنينه! تعالي!

جلست من جديد.

واتضحت العصبية على كل الموجودين فيما عدا توم ونبيل. وتوم ينظر إلى زينة طوال الوقت بلهفة وخوف عليها.

ثم طوَّق كتفيها بذراعه وقال: شكرًا يا حبيبتي.

اضطربت صفاء من الموقف الرومانسي، ونظرت إلى نبيل، وقامت في ارتباك قائلة: لابد أن أعود وإلَّا فسيقلق أحمد.

قام نبيل وقال في رقة: سوف أوصلك للبيت.

ثم قبل أن تنطق. أمسك بيدها وجرَّها وراءه وشعرت بأنها دخلت الجنة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت في غضب وإحراج وهي إلى جانبه في السيارة: لم أكن أعرف أنه يهودي! صدقني. كيف تفعل هذا؟ ستقتل والدها بالطبع. هذه آخرة العيش في أمريكا! ستقتل والدها. الرجل المسكين.

قال في هدوء: سأعود إلى المكتب الآن.. نصف ساعة. هل تريدين أن تشربي القهوة معي في المكتب ثم أوصلك إلى البيت؟

قالت في تردد: أحمد طلب مني ألَّا أزورك في المكتب.

- نعم، أعرف أخبرتني بهذا. كم عمرك؟ خمسة وعشرون؟ ستة وعشرون؟ المكتب مكان عام ومفتوح.

قالت دون تفكير: أنا أثق بك بالطبع ولكن.. ربما لو كان..

كانت على وشك طلب خطبة رسمية بوضوح، ولكنها لم تكن تريد إخافته بعد.

هذه فرصتها. لابد أن يطلب منها الزواج اليوم. من سيكسب المعركة! هي أم هو؟

ذكاؤها الفطري سينتصر بالطبع.

دخلت معه إلى المكتب. كان هناك بعض العمال مما أشعرها بالطمأنينة، وعزة أيضًا كانت هناك. التقت أعينهما هي وعزة فابتسمت لها عزة في انتصار وشيء من النشوة مما أقلق صفاء إلى حد مخيف. الساعة لم تزل السادسة مساءً. ماذا يقلقها؟ ولماذا هذه المرة تشعر بكل هذا القلق؟

جلست على الأريكة في مكتبه وبين يديها فنجان القهوة الذي أعطاه لها.

أغلق الباب، ثم قال في إعجاب ودهشة وهو يجلس إلى جانبها على الأريكة: كيف استطعتِ أن تجعلي توم يطلب من زينة الزواج؟

قالت مسرعة وهي تدافع عن نفسها: لم أكن أعرف أنه يهودي. صدقني.

ابتسم قائلًا: لا أقصد هذا. ماذا كانت خطتك؟ أنت أذكى مما توقعت.

هل تخبره عن خطتها؟ ولو فعلت.. كيف ستوقع به هو. لابد ألَّا تخبره عن خطتها أبدًا. ولكن ربما المناورات تنفع أحيانًا، لابد أن تخبره عن موقفها إذن.

قالت في حماس: لا أفهم النساء هنا، يعطون الرجال كل شيء. هل تفهمني؟.. لا كرامة لا كبرياء عندما تعطي المرأة كل ما تملك بلا مقابل فهي بلهاء، وهذا حرام بالطبع.

ابتسم والحديث يستهويه إلى أبعد مدى، واقترب منها بعض الشيء.. مما ضايقها جدًّا. فابتعدت هي. لم يقترب من جديد.

قال في رقة: أكملي. نتكلم عن المرأة التي تعطي بلا مقابل كل ما تملك، وهل كل ما تملك المرأة هو الجنس.

بلعت ريقها من الكلمة الجريئة التي لم تنطقها أبدًا. احمرت وجنتاها بعض الشيء، وقالت في ضعف: أقصد الشرف.. هو سلاحها الوحيد، وعندما تتنازل عنه..

هزَّ رأسه بالنفي ثم قال في رقة: لا.. تقصدين أن الجنس سلاح في يد المرأة تستعمله عندما تريد شيئًا من الرجل. تتمنع وتناور وكأنها تمثال من الشمع. هكذا تربينا كلنا. الجنس عطية من المرأة للرجل.

فتحت فمها لتنطق فأكمل في شيء من المكر: لم يخبرك أحد يومًا أن الجنس يمكن أن يكون سلاحًا في يد الرجل أيضًا.. يناور به ويتحدَّى؟ بالطبع لم يخبرك أحد. ستفهمين ما أعني في المستقبل فمازلت صغيرة. يومًا ما ستفهمين ما أعني.

قامت والخجل يطغى عليها: لابد أن أعود..

قال في نفس رقته: لا، لا تذهبي بعد. لن نتكلم في هذه الموضوعات، فلنتكلم عن شيء آخر.

قام من الأريكة مما جعلها تشعر براحة كبيرة.

تمدَّد على كرسيه الفخم، وأسند رجليه على طرفي المنضدة، وقال: أريد أن أتكلم معكِ يا صفاء. أريد أن أتكلم معك في الكثير من الأشياء. من أين نبدأ؟ فلنبدأ بخطيبك، ما اسمه؟

هذا ما كان ينقصها! ربما يظن أنها صايعة، نعم! يظن أنها صايعة، فقد تقبلت قبلته في استسلام وتمنت أن يعانقها، وكانت تلهث وراءه بإشارة من إصبعه! لا، لقد ابتعدت عنه عندما قبّلها! فعلت. هي متأكدة! لابد أن توضح الأمور الآن.. جاء وقت القسم الذي تتوقعه!

قالت في قوة: والله العظيم.. محدش قبلني غيرك.. والله.. محمود خطيبي قبَّل جبهتي، ربما، ولكنني أقسم لم يقبلني قط.

ابتسم، ولم تكن ابتسامة ارتياح، كانت ابتسامة دهشة وتسلية!

نظرت إليه.. أطالت نظرها إليه، ثم قالت في غضب: كنت تضحك عليَّ؟ هل كنت تعبث بمشاعري طوال الفترة الماضية؟ كنت تضحك عليَّ، أليس كذلك؟

ضحك هذه المرة في هدوء ثم قال: ماذا ستفعلين لو كنت أضحك عليك؟

كانت تعتزم الصياح، وحاولت السيطرة على نفسها، وقالت في هدوء: سأرحل الآن. ولن تراني أبدًا.

اتجهت إلى الباب.. في تباطؤ وهي تتمنى أن يناديها.

فتحت الباب.. نظرت إليه، فقال في رقة وكأنه مرة أخرى قرأ أفكارها: تعالي يا حبيبتي.

هل قال حبيبتي؟

لابد أن تتأكد!

دخلت تشبثت بالمكتب ويدها تعبث بالخريطة على المكتب وقالت في ترجٍّ: هل قلت حبيبتي؟

- ربما.. نقولها في لبنان طوال الوقت مثل صديقتي عندكم!

- صديقتك!!!

اعتصرت الخريطة في يدها وتشبثت بالورقة الرقيقة وقالت من جديد: أنا صديقتك؟

- رفيقتي أعني.. ربما صديقتي تعني معنى آخر في مصر!

- رفيقتك يا إلهي! تظنني بنت صايعة مثل كل من عرفت! يالهوي!! رفيقتك.. أنا لست رفيقتك أبدًا!

قام من على الكرسي، أمسك بيدها، ودفع بها إلى الأريكة وقال في حسم: استمعي إليَّ يا صفاء.. استمعي إليَّ جيدًا!

قالت في تركيز: أستمع إليك.

تحرك نحو الباب أغلقه بالمفتاح، ثم اقترب منها في بطء.

عبس وجهها لثوان.. ماذا ينوي؟

أمسك بيدها، ضغط على يدها بين يديه وقال: تربيتُ بطريقة مختلفة عنك.. لا قوانين.. لا رقابة.. لا خير وشر.. حيث كنت كان الشرير يحكم ويأمر، والطيب يتوق إلى أن يكون بقوة الشرير. موت، دمار كان يحاصرني، تعايشت معه. عرفته وتعايشت معه.

قالت في رقة: نبيل..

- هاجرت إلى ألمانيا وعمري سبعة عشر عامًا.. بعد موت أخي على يد الإسرائيليين، وأبي قبله في الحرب الأهلية. كنت لاجئًا سياسيًّا من جنوب

لبنان، عشت عامًا في بيت اللاجئين في ألمانيا، وفي ذلك العام بدأت أتعلم الألمانية وأتاجر في المخدرات في نفس الوقت. قبضت عليَّ الشرطة أكثر من مرة.. في النهاية قال القاضي إنني لو لم أتوقف لن يرحلني إلى لبنان بل سيبقيني في السجن سنوات عديدة. بدأت أفكر جديًّا في الهجرة إلى أمريكا، ولم أكن أملك المال والنفوذ لأفعل هذا. ولم تعطني ألمانيا أيَّ فرصة، كنت غريبًا فيها ومجرمًا، ولم أكمل دراستي الثانوية حتى. بدأت أعمل بدون تصريح في محل شاورمة تركي.. وتعرفت على سيدة ألمانية اعتقدت أنها ستحقق كل أحلامي.

كانت تستمع في صمت وتشعر بالفخر الشديد لأنه يسكب قلبه أمامها هكذا. أكمل وهو يبتسم: كانت تكبرني بالطبع بالكثير. في الحقيقة كنت أعمل عندها.. وتعطيني أجرًا مثل عزة في الماضي تمامًا.. أتفهمين ما أعني؟

علت دقات قلبها ولم تصدق ما تسمع ولكنها لم تنطق.

أكمل: قرَّرت أن تصطحبني معها إلى أمريكا في رحلة، وشعرت بحلمي يتحقق في دقائق. عندما سافرت معها إلى أمريكا.. تركتها ورحلت إلى ولاية أخرى، ولم أرها بعد ذلك. كنت أكرهها كرهًا شديدًا. لا يوصف. لا بأس. في أمريكا بدأت العمل من جديد في كل شيء وأي شيء.. وبدأت أتعلم الإنجليزية، وكان أملي أن أرى أمي، وكنت في حوالي العشرين.. كنت هاربًا.. وتعرفت على بعض العرب في فرجينيا، وعملت في أعمال مختلفة، وكنت أعشق اللغات واللهجات. وأشعر بالعجز والحيرة وعدم الانتماء.. بدأت أقرأ الكتب العربية أيضًا.. أي شيء عربي. لم أنظر إلى نفسي بالذات كلبناني.. كنت بلا وطن.. وكنت أحلم بوطن كبير، أكبر من ألمانيا وأمريكا نفسها. كان طموحي يمتد ليحيط الأمة. وكنت أشعر بأنني عربي. أعشق ما هو عربي. هويتي عربية، ولبنان جزء صغير من كياني. قضيت في لبنان سبعة عشر عامًا، وقضيت مع وطن خيالي الكبير كل الباقي من عمري.

تمتمت في حب: نبيل..

لم تكن تتوقع أنه بكل هذه الرومانسية. كم تألم!.. تمنت لو تلقي بنفسها بين ذراعيه لساعات.

أكمل: صفاء، بعد ذلك تعرفت على زوجتي الأمريكية كنت في بداية العشرينيَّات، وكنت يائسًا وكنت أتمنى أن تقبل بالزواج مني. كانت وسيلة من جديد. وكانت تعمل مترجمة في المخابرات الأمريكية. عملت معها. كنت أتقن الإنجليزية ومعظم اللهجات العربية. أصبح عملي هو اكتشاف بلد المسجونين من لهجتهم. هل تفهمين؟ كنت أتكلم مع المسجون العربي، أو العربي الذي يدخل أمريكا ويطلب اللجوء السياسي، وأقول للمحقق الأمريكي من أين أتى.

وكنت أترجم التحقيقات.. كنت مترجمًا. رأيت الكثير ولم أنطق. هذه علاقتي بالمخابرات الأمريكية. وعلاقتي بزوجتي الأمريكية انتهت بالطبع يوم حصلت على جواز سفر أمريكي. كانت طيبة. أعتقد أنها كانت تحبني حقًّا. لم أكن لها أي مشاعر. لم أكرهها ولم أحبها. كما قلت كانت وسيلة.

بعد هذا كنت قد ادخرت الكثير، وفتحت شركة برامج الكمبيوتر، ولم أزل أصنع البرامج للمخابرات الأمريكية وكل الجهات الحكومية في أمريكا. فتحت شركتي، ويعمل بها أكفأ المهندسين في أمريكا، ولكنني لست مهندسًا، كما قلت لم أُنْهِ تعليمي الثانوي.

قالت في حماس: ولكنك مثقف جدًّا.. جدًّا. قرأت الكثير وتعرف الكثير.

- ربما. أما علاقتي بالمرأة فكانت بالطبع مشوَّهة تمامًا. وسيلة دائمًا، وسيلة لا أكثر. ما كان يقلقني أحيانًا هو تبلد مشاعري تجاه العذاب. لا أستطيع أن أشعر بعذابها أبدًا. وعذبت الكثير على ما أعتقد.

كانت صفاء بعد كل كلماته على وشك أن تذوب بين ذراعيه. كانت تشعر بأنها ستكون أول امرأة له، وبأنه رجل معذَّب، ويحتاج إلى يديها الحانيتين لتزيل عذابه. كان صريحًا معها. كان صادقًا إلى أبعد حد.

ربما.

ربما لا.

بعد ذلك كانت تتساءل: لو كان نبيل قد حكى قصته عمدًا في هذه اللحظات، ولو كان نبيل دائمًا يتصرف في خبث لا تقوى عليه.

همست في حب: كل هذا لا يهم.

ابتسم: نعم.. أعرف لا يهم. فأنت صفاء الجَدَعة! أليس هذا ما تصفون به بنتًا مثلك؟ جَدَعة! حبيبتي، رفيقتي، صديقتي، أريدك! أريدك كما لم أُرِدْ امرأة من قبل. هل تفهمين معنى هذا؟

اعترافه أذهلها.. سحرها.. وأخافها.. أرعبها! ماذا ينوي أن يفعل؟

أكمل: تعلمت طوال عمري أن آخذ ما أريد، أنتزعه حتى لو تحطم في يدي.. حتى لو تناثر كالجثث، فكل شيء يتناثر من حولنا. الآن..

اقترب منها وهي جالسة على الأريكة ويدها لم تزل بيده ثم قبل عروق معصمها في رقة وامتدت قبلته إلى ذراعها وكتفها وما أذهلها وأربكها هو أنها كانت تشعر بشفتيه على جلدها بلا حواجز.. كيف هذا لا تدري. كانت ترتدي قميصًا. ألم تزل ترتديه أم لا؟

همس: لا تخافين مني بعد كل ما قلته؟

في الحقيقة كانت خائفة بعض الشيء، وأيقظ مشاعر ممتزجة بعناية بداخلها من الحيرة والانبهار والخوف والشوق. لابد أن ترحل الآن.. قبل أن ترى نبوءة عزَّة لها تتحقق أمام عينيها.

همست وهي تحاول أن تحرَّر معصمها: لابد أن أرحل.

بدأ يقبل شفتيها، ثم أذنيها، رقبتها، مناطق لم تكن تعرف أنها ستشعل الرغبة فيها إلى هذا الحد، وقال في حسم: نعم لابد من هذا.

نظر إلى عينيها، التقت أعينهما، وهو يقترب منها أكثر تدريجيًّا.. وهي تشعر بكل قطعة من جسده، ويده تعبث بجسدها، بل لابد أن يده كانت تشكِّل وترسم جسدها وهي تستمع إليه في تركيز.. لابد أنه يعرف كيف يغوي المرأة وهو يتكلم في أمور شديدة الجديَّة كالموت والهوية والتاريخ والحروب. ولابد أن لمساته تذيب عقلها.

أنفاسه تمتزج بأنفاسها.. قربه أربكها.. وهذه الرغبة التي تنتشر بين دمائها تخيفها كما لم يُخِفْها شيء قط. قربه فقط قربه، قرب فمه من فمها هكذا دون أن يلمسها بدأ يفتت أعصابها.. وهل للمرأة أن تريد رجلًا؟.. أن تشعر بالألم من قوة رغبتها في رجل؟ من المؤكد أنها مجنونة أو عاهرة. ماذا أيقظ بداخلها؟

همس وشفتاه تكادان تلمسان شفتيها ولا تفعل: لابد أن ترحلي سريعًا. لا تنظري إلى رجل هكذا أبدًا. بشفاه ترتجف وعيون تستجدي. أبدًا.

أغمضت عينيها. بلعت ريقها، وأسندت بيدها على الأريكة لتقوم، ولكنه أمسك اليد التي كانت تسند بها و.. ألصق جسدها بجسده في شيء من القوة أخافتها وأفاقتها، ودفع بها على الأريكة وهو يسيطر عليها تمامًا وهي تشعر بجسده فوق جسدها.. كان جسدًا قويًّا.. يدفنها كليًّا.. ثم قال: ماذا تريدين يا صفاء؟

دفعت بجسده بكل قوتها وقالت في غضب: أريد أن أذهب.

لم يتحرك. قال في حسم: بل تريدينني كما أريدك بالضبط. والآن في الحقيقة لو مارست الحب معك لن تجدي صرخاتك، لن يسمعها أحد..

قالت في خوف: عزَّة والعمال و..

- لن يسمعها أحد، الحائط عازل للصوت بالطبع. والباب مغلق، ولا يوجد سوانا.. أنا وأنت. لو مارست الحب معك الآن يا حبيبتي في هذه اللحظة.. لن يسمعني أحد واستغاثتك لن تساعدك.. وتعرفين ما هو أسوأ من هذا؟ لو أخذتك الآن ربما لا تنطقين بهذا لأحد. لو أخذتك الآن ربما تستمتعين.. لأنك

تريدينني كما أريدك.. تريدينني بقوة واندفاع البراءة! ولا تستهيني أبدًا بقوة واندفاع البراءة.. فالبراءة تدفع بصاحبها إلى الهاوية! والعشق الأخضر بداخلك ينسكب من قلبك يا صفاء.

قالت في فزع وذهول: لا أفهم!

ابتعد عنها. فأخذت نفسًا طويلًا وهي تشعر بأنها سمكة عادت إلى المياه بعد ساعات على الشاطئ في يد الموت.

قام قائلًا: لا بد ألَّا تفهمي.. من الأفضل ألَّا تفهمي.. وأن تحاولي العودة لمحمود. هل اسمه محمود؟ عودي إليه، فلابد أنه يقدِّرك ويرهبك ما دام لم يقبلك طوال عامين ولو مرة! وهذه المرة لن تقسمي بالطبع أنك لم تقبلي رجلًا قط. عودي إلى الإسكندرية وإلى عائلتك وأنجبي الأطفال ولا تتذكريني أبدًا. أبدًا.

شدَّ يدها إلى الأمام، فقامت معه وهي ترتجف، وقال: سوف أفتح الباب.. لو لم ترحلي بعد ثوان.. ثوان.. سأمارس الحب معك هنا.. في هذه الحجرة وفي هذه اللحظة مرة ومرتين وثلاث.. من يدري. لو لم تخرجي من هنا الآن لا أعرف من ستصبحين. ولا أريد أن أراك تتناثرين أمامي كالجثث والأشلاء. لا أريد هذا.

فتح الباب في بطء فلم تَدْرِ بنفسها وهي تندفع نحو الباب وتجري.. كما لم تَجْرِ من قبل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذه اللحظة بدأت تتفهم موقف الرئيس الليبي جيِّدًا عندما فقد الأمل في العرب، واتَّجه إلى إفريقيا والأمم الإفريقية.

وهي الآن تعترف بتفوق عقله وبعد نظره. مصر بلد إفريقي وليس عربيًّا. أبدًا ليس عربيًّا! الله يخرب بيت العرب وسنينهم.

هذه غلطتها لأنها فكرت في رجل ليس مصريًّا.. لا أهل له ولا عائلة تتكلم معهم!

عشائر وقبائل وفصائل.. وحركات وأحزاب ومنظمات وأقليات وكتل وطوائف.. الكثير من الطوائف.

وهي أصلًا لا تعرف أين ينتمي هذا الرجل.. الذي تكرهه كرهًا يمتد من المحيط إلى الخليج، ومن البحرين إلى موريتانيا!

كره كبير حقًّا.

وغيرت رأيها أيضًا في موضوع دبي. لا تريد العيش في أي بلد سوى مصر. وسوف تعود خلال هذا الأسبوع. لن تنتظر.

وسوف تمحو صورته من ذاكرتها، وسوف تتعمد ألَّا تشاهد قناة الجزيرة أبدًا، ولا تستمع أبدًا إلى أخبار لبنان أو سوريا.

وهي مستعدة لشراء الطماطم.. الكثير من الطماطم. ولن تتشاجر مع الخضري. فالخضري رجل طيب بيجري على أكل عيشه وتربية أطفاله.

ومصر بلد عظيم. وأهل مصر ما أجملهم ناس طيبون طيبون.. والحكومة المصرية أيضًا رحيمة ومتزنة، والإدارة تتخذ قرارات لمصلحة المواطن والمصريين. مصر لم تزل سيدة العالم العربي والعالم بأسره.. هو بس الفقر مش بيساعد قوي.. لكن المصريين لا غبار عليهم. بنوا الحضارة وخلدوا الموت والزعماء.

ولن تبكي.. لماذا تبكي على رجل بلا هوية ولا أخلاق.. وشيعي أيضًا.. ومادامت لا تعرف بالضبط ما معنى شيعي في لبنان فلن تبكي. أنقذها الله من مصير مظلم، وربما كانت ستجد نفسها في مواجهة مع شريكته الخليجية، وربما أصبحت هي الخادمة الماليزية لصاحبة البترول والثراء الفاحش. من يدري ماذا سيكون مصيرها لو تزوجته.

أنقذها الله حقًّا.

لا، لن تبكي.

المصري مصري مهما كان، يقف شامخًا ولا يقبل بالذل أبدًا، ولا يستهان بعقله.

من أتى بالحضارة والتعليم والتنوير لبلاد البترول؟

من أتى بالتحرير والاستقلال لبلاد العرب؟

من علَّم كلَّ العرب.. من المدرس والطبيب والمهندس؟ من الأستاذ؟ نعم من الأستاذ؟

«من علمني حرفًا صرتُ له عبدًا!»

لم نسمع كلمة امتنان ولا شكر.. لم نر نظرات ابتهال ولا وجل!

بل نظرات ساخرة وقليلة الذوق.

نظرات باردة ومغرورة!

لا لن تبكي!

تساقطت الدموع من عينيها في بطء. دفنت رأسها في الوسادة وهمست: يخرب بيت اليوم الأسود اللي قابلتك فيه يا نبيل.

نحن مصريون وحضارتنا تمتد لآلاف السنين. مصر ستبقى ولو انقضى الدهر.

نعم.

انهمرت الدموع ولم تتوقف.

ولم تكن تريد أن تواجه نفسها بالسؤال المتخلف الذي تعرف إجابته: هل تحبه؟! أتحبه هو أم تحب دبي؟ هو أم ماله الوفير وغيظ زوجة أخيها والجيران والأحباء؟ هو أم.. ؟

لا هذه الأسئلة متخلفة ولن تفيد.

نبيل انتهى من حياتها. إلى الأبد إذن. هو والوحدة العربية.

ستعود غدًا لمصر.. لماذا تنتظر؟ وعندما تعود ستذهب للأهرام وتنظر إلى مجدها، وتقبّل الرمال الجرداء التي لا تتحول ذهبًا كرمال الخليج، ولكنها دافئة ومباركة.

أين مصر من العالم بأسره؟ نحن صانعو الحضارة؟ نحن قلب الحضارة. نحن العقل الراجح وطيبة القلب.. نحن.. مصريون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن تريد أن تأكل ولا أن تشرب ولا أن تنام ولا أن تبكي، وتود أن تقتله في هذه اللحظة. ولا تفهمه أبدًا! كان يعبث بمشاعرها إذن؟ كانت بالنسبة إليه فأرًا صغيرًا يعبث به، ثم يُلقي به في سلة المهملات.

ماذا كان يقصد بالكلام الفارغ.. البراءة.. الاستمتاع.. أكان يظن نفسه قادرًا على غوايتها! ياللغرور! بالطبع لم يكن قادرًا.

لم تتردد لحظة في مغادرة مكتبه ولا لحظة.

ولا ندمت ولا كانت تشتاق إلى لمسته، ولا أي شيء.

ماذا يظن؟ كل هذا الغرور.

زفرت في غيظ. مجنون ومغرور، وتود العودة إلى مصر الآن. وهي بالطبع لم تفشل. كانت تود أن تصطاده للزواج وبدا لها أنه أمسك بالصنارة وأكل الطعم ثم أغرق السفينة وهي بها! لا بأس.

وما أثار أعصابها حقًّا هو أن أخاها عاد بعد يومين من عمله وقال لها في فرح: إن موضوع الأمريكية قد انتهى وإنه يمكنها الرحيل في أي وقت. وإن نبيل

أخبره بهذا اليوم!

يريدها أن ترحل. يظن نفسه مسيطرًا على العالم ومصائر البشر.

إلا المصريين! نحن سادة القوم. نحن رمز الاستقلال وحكم الشعب بالشعب. لا! لا يعرف نبيل الكثير عن المصريين.

لن ترحل إلَّا إذا أرادت هي هذا. ولن ترحل. ولابد أن ترحل حتى تنساه. سترحل غدًا أو بعد غد. ولابد أنه سيندم. سيندم بالطبع.

ماذا يعني بأنها الآن حرة ويمكنها أن ترحل؟ يعني أنه يريد التخلص منها إلى الأبد. وكأنها سنجاب يأكل من شجرته ويزعجه! هي سنجاب.

ستفكر مليًّا في موضوع الرحيل.

ولابد أن يعرف أنها سترحل.

أولًا ستكلم زينة! وتخبرها.

طلبت رقم زينة، وأخبرتها بأنها قرَّرت العودة إلى مصر، وحجزت تذكرة بعد أسبوع. فقالت زينة في تأثر: لماذا؟ سأفتقدك.

- هل يمكن أن تخبري نبيل؟

- بالطبع. هل أقول له: إنك تريدين رؤيته قبل الرحيل؟

- لا. لا تقولي هذا. فقط أخبريه وأنت تتكلمين في موضوع آخر.

بدا على زينة الحيرة. وما كان يثير أعصاب صفاء حقًّا هو عدم قدرة زينة على التواصل الإيجابي مع الآخرين ولا فهم اللف والدوران والخبث والألعاب.

قالت في عدم صبر: زينة! قولي له إنني سأسافر، ولا تخبريه بأنني أنا التي طلبت منك أن تقولي له هذا و.. كيف حاله؟ هل يبدو متأثرًا؟ متجهمًا؟ هل صادق امرأة أخرى؟

- حسنًا.. سؤال سؤال.

- زينة.. هل صادق امرأة أخرى؟

- لا أدري.

- هل رأيته مع امرأة أخرى؟

- أراه مع الكثير من النساء طوال الوقت.

نفخت في عصبية، ثم قالت: هل يبدو عبوسًا؟ حزينًا؟ يصارع نفسه؟

- لا، لا يبدو مختلفًا على الإطلاق.

قالت في ضيق: قولي له إنني سأسافر إلى مصر بعد أسبوع وقولي إنك حزينة جدًّا، وإن أمِّي قد وجدت لي عريسًا وتريدني أن أتعرف عليه، ولذا سأسافر.

زفرت في غيظ مرة أخرى. لا تدري ماذا حدث لعقل زينة في أمريكا! كأنها تغابت بعض الشيء! ليتها تربَّت في مصر حيث الحضارة؛ إذن لتعلمت هذه الأشياء. نعم. المشكلة أن زينة ليس لها أي حنكة في التعامل! على الإطلاق.

انتظرت يومًا واثنين وثلاثة.

هل ستسافر إذن؟

ربما يجب أن تسافر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبّرت لأخيها من جديد عن رغبتها في السفر، وبدا عليه سعادة لا توصف وكأنها حِمْل على قلبه، وكأنه يتلقى تعليمات من زوجته بطرد أصحاب الدار. لا بأس. سترحل إذن.

وكم تفتقده! لو رأته مرة قبل أن ترحل.

لا تستطيع ولا تثق بنفسها ولا برد فعلها.

وضعت أصابعها على فمها مرة أخرى.. على رقبتها.. وألم غريب لا تعرفه يتسرب إلى أعصابها. ماذا أيقظ بداخلها؟ هذا الشيء الذي لا تفهمه ولا تعرفه. قوي ومؤلم.

وكلما تخيلت جسده يضغط على جسدها وعضلاته المفعمة بالحياة تنبثق من بين أضلعها تشعر بمزيج من الحيرة والخجل والانبهار به.

بقى يوم واحد.

يوم واحد وسوف تسافر، وربما لا تراه بعد ذلك أبدًا. ليتها تراه مرة واحدة. كانت تدعو الله أن تراه مرة واحدة فقط.

وقبل سفرها بيوم، وبعد أن اشترت الهدايا لأمها وأبيها وكل عائلتها بمال أخيها. ناداها أحمد هي وأمل، وقال في توتر: نبيل سيأتي اليوم.

تنفست في ارتياح. «سأراه قبل السفر. لابد أنَّ هناك أملًا».

أكمل أحمد: يريد أن يعطي صفاء بعض الأوراق المهمة لتستطيع السفر. اطبخي شيئًا يا أمل، واصنعي صينية الكنافة التي تتقنيها يا حبيبتي.

قالت أمل في فخر: طبعًا. مِنْ عينيه.

بقيت في حجرتها عندما سمعت دقًّا على الباب والشوق يكاد يقفز من قلبها. سمعت صوته.. دخل إلى حجرة الجلوس. جلس.. قدم له أحمد الشاي بنفسه.

قال نبيل: أريد أن أتكلم مع صفاء.

ثم أخرج بعض الأوراق.و أكمل: أفضّل أن أشرح لها كل التفاصيل وحدنا. حتى تركز معي.

ظهر الفزع على وجه أحمد: مش فاهم يعني يا بشمهندس.

- أحمد.. صفاء ده زي أختي. ياريت تسبنا مع بعض عشر دقايق بس.

سكت لحظات ثم قال: آه طبعًا طبعًا. أمل حتحضر لك الغدا.

نادى على أخته والغيظ يشع من عينيه وقد قرر أن يلقنها درسًا بعد رحيل رئيسه في العمل.

نظرت حولها، وقفت أمامه، وما إن رأته حتى تذكرت قبلاته.. يده الجريئة، جسده يخنق جسدها. قالت في خجل وشعور بالذنب كبير: أهلًا يا أستاذ نبيل.

ابتسم ثم قال:عرفت أنك ستسافرين غدًا. زينة أخبرتني أنك تريدينني أن أعرف أنك ستسافرين غدًا.

قالت مسرعة: لم.. أقل لها هذا. هي كاذبة!

- نعم كاذبة. هذا لا يهم. كنت أريد أن أراك قبل السفر.

قالت في تحدٍّ: أنا هنا.

التقت أعينهما، وهمس في براءة: ماذا فعلتُ لتغضبي مني؟ كنت أعتقد أنك تشعرين بالامتنان، فقد أنقذتك مرتين، مرَّة من المخابرات الأمريكية، ومرَّة من نفسي! أرجو أن تكوني ممتنة. في الحقيقة لقد كنت أتوقع هدية، نفرتيتي هذه المرة ومفتاح الحياة وجعرانًا.

قالت في قوة وقد حانت لها لحظة الانتقام التي تتمناها: لا تسخر مني ومن ثقافتي! نحن المصريين..

قال مسرعًا: أولاد الأكرمين، أعرف بالطبع. لا أسخر منك. لم أسخر منك قط.

بلعت ريقها وقالت وهي ترتجف من الغضب! ها هي ذي الفرصة قد حانت: كنت تظنني كهذه المرأة التي تزوجتها أو كصديقاتك! أهذا ما تظن؟ وكنت

تظن أنني أحبك! هل فكرت في أنني ربما أحبك؟ هل خطر على بالك أنني ربما أحبك!

قال في جدية: بالطبع لم يخطر هذا على بالي! لماذا تفعلين شيئًا بهذه البشاعة! تحبينني أنا؟

قالت مسرعة: واستدرجتني و.. وضغطت عليَّ وكنت تريد أن.. لا أستطيع أن أتخيل! هل تظن أنني كنت أريد الزواج منك! لا. إذا أردتُ الزواج فسأشير بإصبعي ف..

قاطعها: هل يمكن أن نتكلم في موضوع آخر.

قالت وهذا يغيظها إلى أبعد حد: لا يوجد موضوع آخر. لا يوجد أي موضوع. سأرحل غدًا، ولن أعود أبدًا مادمتَ أنت هنا. لن تطأ قدمي أمريكا كلها مادمت أنت تسكن هنا!

ابتسم وهمس: سأفتقدك.

ترقرقت الدموع في عينيها ولم تنظر إليه. لماذا فعل بها هذا؟ لا، لن ترجوه، ولن تظهر الضعف، ولن تعانقه كما تتمنى، ولن تقبله قبلة قاتلة كما تحلم.

- ماذا تريد؟

- شيء.. ضاع مني. أعتقد أنك أخذتِهِ!

قالت بلا تفكير: قلبك!

ضحك: هذا بالطبع ضاع مني منذ زمن. الخريطة! هل أخذتِ الخريطة من على مكتبي!

فتحت فمها في ذهول: خريطة! خريطة الكنز بالطبع! لا أفهمك! لقد مزقتها وألقيت بها في سلة المهملات.

- لهذا الحد.

قالت في صوت ثعباني: وأكثر.

- هذه بداية غير مبشرة أبدًا!

صاحت في تلقائيَّة: ماذا تريد مني؟ كنتُ أظن أنك تريد الزواج مني، والآن تسألني عن الخريطة! فلتذهب الخريطة إلى الجحيم.

لم ينطق. همست هي فجأة في صوت ضعيف: هل جئت حقًّا فقط من أجل الخريطة؟ فقط.

التقت أعينهما مرة أخرى، ترقرقت الدموع في عينيها من جديد، وهمست: لا بأس. لابد أنك فخور بنفسك بالطبع. يمكنني أن أخبرك وأرحل. لن أراك مرة أخرى. أحبك. كنتُ.. كنت أحبك كثيرًا!

كانت محاولة يائسة وأخيرة لتحقيق الهدف. لا بأس من القليل من الصراحة والضعف.

نظر إلى الباب المفتوح لحجرة المعيشة، ورأى خيال زوجة أخيها في المطبخ فقال في هدوء: عندي لك عرض. ما رأيك لو نتزوج يا صفاء؟

شهقت.. وقالت في صوت حاسم: نعم. الآن.

ثم نظرت حولها.. اقتربت منه بعض الشيء وهي تنظر إلى كتفه وتتمنى لو ألقت برأسها على كتفه الآن. ولم تكن تستطيع.

- ستندمين.

- بدأت الندم.

- وتشقين.

- أعشق الشقاء.

- ولن تسألي عن أي شيء؟

ابتعدت بعض الشيء، وقالت وقلبها يختلج: ستدفع مهرًا وشبكة طبعًا، وأريد خاتمًا من الماس، ومهرًا خمسين ألف جنيه مصريّ على الأقل، وشقة في مصر و..

قاطعها: أنا أكبر منك.. ولكن ليس لهذا الحد!

- ولكنك غني بالطبع.

جلس من جديد، وبدا وكأنه يفكر تفكيرًا عميقًا، ثم قال في طريقة آليَّة غريبة: اجلسي هنا بجانبي، سوف أعرض عليك عرضًا أفضل.

جلست وقالت: المال لا يهمني يا نبيل حقًّا.

ابتسم وقال وهو ينظر حوله: أمانيك صغيرة.. وأحلامك متواضعة. هذا لا يكفي، ليس معي. معي لابد أن تحلمي بالمستحيل ويتحقق أمامك.

- لا أفهم.

- شقة.. مهر.. شبكة.. حساب في البنك.. خادمة ماليزية، وربما الهجرة لبلد عربي. أليست هذه أمانيك؟

كيف قرأ أفكارها، لا تدري. ولا تدري من هو، ولا ماذا يريد، ولماذا يقول كل هذا وهي ستتزوجه الآن على كل حال.

- صفاء.. أنت مختلفة.. مختلفة عن كل النساء التي عرفتهن، وعن كل المصريات، وعن كل الأمريكيات. أنت متميزة. ذكية، طموحة، جميلة، دمك خفيف، المستقبل أمامك لتشكليه وتعيشيه. ومستقبلك في مصر محدود، ومستقبلك في بلد عربي محدود. معي مستقبلك في يدك.. والسماء هي حدودك. هل تفهمين؟

- لا، لا أفهم. فقط أريد أن أكون معك.

- سوف أمنحك كارت فيزا في يدك.. مثل أمل. أليس عندها كارت فيزا؟

مرة أخرى قرأ أفكارها. بدأ هذا يقلقها.

- كيف عرفت؟

- لن أتكلم عن خبرتي الضئيلة بالنساء، ولا خبرتي القليلة بالمصريين. فلنقل إنَّه تخمين. وسوف يكون لك نصف ما أملك لو طلقتك حسب القانون الأمريكي، وسوف تتعلمين الإنجليزية، وتعملين في الأمم المتحدة.. سوف تصبحين مصرية مميزة، وسوف تستضيفك القنوات الفضائية والعربية، وسوف تطيرين بين البلاد، وسوف تلمعين كالنجوم.. ناجحة في عملك.. غنية.. جميلة، وتتخاطفك المناصب والهيئات.. ربما حتى تصبحي وزيرة في مصر، من يدري؟

بدأ قلبها يخفق بشدة، وقالت في خوف: لماذا تسخر مني.

- قلت لك من قبل. لم أسخر منك قط.

نظرت إليه وقالت في أسى: أنت عميل إذن. تريدني جاسوسة؟ لماذا أنا؟ عميل أنتَ أم حلقة وصل؟

همس: لست عميلًا أبدًا. سألتِني من قبل. ربما حلقة وصل.. من يدري؟

- ماذا تريد مني في المقابل؟

نظر إليها نظرة ساحرة لم تترك مخيلتها يومًا، وقال: أنت.. فقط أنت.

- لماذا؟

- لا يوجد إجابة عن كل الأسئلة. سوف تتعلمين هذا مع الزمن. أريدك، ولا أريدك في الخفاء، ولا أريد اختلاس الساعات المليئة بالشعور بالذنب والندم منك. أريد أكثر من هذا. أكثر بكثير.

قالت في حسم: لم يكن يمكنك أن تختلس أيَّ ساعات. لا. لم تستطع إغوائي، أنت تعرف هذا.

ابتسم وهمس: لن نعرف الإجابة عن هذا السؤال.. أليس كذلك؟

- أنا أعرف الإجابة.

تجاهلها، وأكمل: كونك زوجتي شيء غير سهل أبدًا!

قالت مسرعة وهي تبحث عن سبب لهذا الكرم المفاجئ: تريد أن تخونني إذن؟

- لم نتزوج بعد يا صفاء. وعندما نتزوج لا أريد أسئلة.

- لا أفهم.

- أنت فضولية، وتعشقين السيطرة والكلام، وأنا أكره هذا كرهًا شديدًا. لا تسأليني عن شيء أبدًا. لا عن عملي ولا عن علاقاتي ولا عن أيِّ شيء.

قالت دون تردد: لا أوافق.

قال في هدوء: لن أخونك.

- كيف أعرف هذا إذا كنت تريدني دمية في بيتك؟

- أريد أن أكون واضحًا معك.

- أريد أن أشارك رجلًا حياته، لا أن أكون زينة في بيته. حتى لو كان الرجل فقيرًا، حتى لو..

صمتت، نظرت إليه..

بقى كل منهما صامتًا، ثم همس هو: هذا قرارك.

عضَّت على شفتيها.. تحبه.. يعرض عليها الشمس والقمر وكل النجوم.. ويريد أن يحرمها من النور لتراها!

قالت مسرعة: لن أسألك عن عملك أبدًا، ولكنني لا أستطيع أن أقبل أن يكون لك علاقة بأخرى، لا أستطيع!

رفع حاجبيه وقال: لا يهمك إذا كنتُ تاجر سلاح، ولكن يهمك إذا كنتُ على علاقة بامرأة أخرى!

قالت دون تردد: نعم.

- كل ما عليك أن تفعليه هو أن تسأليني لو كان عندي علاقة، سأخبرك. لن أكذب عليك. ولكنني لا أنوي هذا. هل نذهب إلى الشرط الثاني؟

- ما هو؟

- لا أطفال.

فتحت فمها في دهشة: ولكنني أنا..

قاطعها في صرامة: ليس الآن.. بعد وقت ربما.. وربما لا. هذا قرارى أنا! سأخبرك عندما أكون مستعدًّا!

قالت في غضب: لا أوافق. تريد أن تشتري جارية أو عشيقة وتظنني للبيع! لا أوافق.

قام قائلًا في لامبالاة: حسنًا. لا بأس. يمكنك العودة إلى مصر إذن.

اتجه إلى الباب فقالت مسرعة: نبيل..

همس: قلت لك لا حدود.. السماء حدودك، عرضت عليك كل هذا ولا توافقين.

نظرت إلى عينيه ثم قالت: أعطني فرصة أفكر.

- لا، ليس عندي وقت.

- ستسافر؟

- لا، ولكنني أريد الانتهاء من كل هذا لأبدأ شيئًا جديدًا. أريد التركيز.

- التركيز؟

- تقبلين؟ أريدك أن تقبلي.. أشعر أنك ستكونين سعيدة جدًّا معي.

قالت في أسى: أعرف.

- أخوك لن يوافق.

- ماذا؟

- أحمد لن يوافق. لابد أن تقنعيه أنت.

مدَّ يده ليصافحها وهمس: لن أتركك.. هل عرض رجل على زوجته نصف ثروته في مصر من قبل؟

هزَّت رأسها بالنفي.

- لماذا تترددين؟

- ولو لم يوافق أحمد؟

- تقنعينه بالطبع.

- هل ستفصله؟

- ربما!

- حقًّا؟

- هل توافقين؟

هزَّت رأسها بالإيجاب.

ثم قالت مسرعة: ولكنني لا أحبك من أجل مالك أبدًا. أحبك أنت فقط، صدقني. أحبك كثيرًا. أتعرف؟ أنا لم أنم منذ أسبوع.

نظرت إليه، وأشارت إلى عينيها: هل ترى الدوائر تحت عيني؟ هو قرار صعب، ونحن مختلفان كل الاختلاف، أنت لبناني شيعي، وأنا مصرية سنية، ولكن الاختلاف هذا أقل بكثير من الاختلاف بين زينة وتوم، هي أردنية كاثوليكية وهو أمريكي يهودي. وهي لا تحبه كما أحبك.

- متى؟

- ماذا؟

- نتزوج؟

- اليوم.. غدًا..

اتجه إلى باب البيت وأحمد وراءه: على فين يا نبيل.

- معلهش. يوم تاني. لازم أرجع الشركة. صفاء عندها كل الأوراق اللازمة.

كان فمها مفتوحًا في ذهول.

هوت إلى المقعد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك بائع الطماطم في السوق الذي يفاصل معها لساعات، وكم كانت تودُّ أن تتخلص منه! وهناك نبيل نصار! الذي ينظر إلى الحياة كأنها صفقة بين يديه.

ومع أنها اعتادت الفصال طوال عمرها منذ كانت تشتري العسلية من أمام المدرسة، وتطلب الجيلاتي المغلف، وتصرخ وتعترض.. مع أنها اعتادت كل هذا فهي أمامه الآن.. توافق على الفور!

ولكن شروطه لا تخيفها. بالطبع لا تخيفها.

كل الرجال لا تريد الأطفال في البداية، وما إن ينجبوا حتى يلهثوا وراء أطفالهم. هذه مشكلة صغيرة ستتغلب عليها.

وكل هذا الكلام عن السيطرة، كلام تافه بالطبع. كل الرجال لا تحب التحقيقات والاستجوابات.. ماذا سيفعل لو سألته.. أوحققت معه؟ لن يستطيع تركها. كيف يتركها ويخسر كل ما يملك.

هو فقط خائف.

نعم، هو خائف.. تجاربه السابقة فاشلة ومخيفة.

عندما يستعيد ثقته في العالم. ستكون معه وسينجبان الأطفال، وستغمره بحبها.

لا بأس. فلتوافق الآن، ولتحاول التغيير بعد هذا.

ثم إن.. يوم الإغواء هذا.. هزَّها بعض الشيء.. هزَّها كثيرًا.. وبدأت تخاف مشاعرها الجامحة وقلبها المتوحش. ولا تستطيع تخيل رجل غيره.

طرأ لها فجأة أن كل شيء ربما يكون قد رتب له منذ زمن..

ولكن لماذا طلب منها الزواج الآن وليس عندما كانت في مكتبه؟ لا تدري. ولماذا يريد الزواج منها أصلًا؟ هل يحبها؟ قال إنه يريدها؟ يريدها ولا يريد أن يسرق اللحظات معها. وكم تتوق إلى أن تكون له إلى الأبد!

وكانت قد قرَّرت يومها وعزمت أمرها بالاعتراف بجنون نبيل الرسمي. وجنون الرجل عادةً ليس عيبًا، بل ميزة كبيرة للمرأة. فالمجانين ليس عليهم حرج. وتصرفاته لن تؤثر فيها. فكلها مس من الجن. ربما في المستقبل تحاول أن تقلل من وطأة جنوح عقله بطرق مختلفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال أحمد في حدَّة وهو يمسك ذراعها: ماذا كان يريد منك؟ ماذا يوجد بينك وبينه؟

قالت في فخر وهي تنزع ذراعها من يده: كان يريد الزواج مني.

قال في تلقائيةٍ: هذا مستحيل. ستسافرين إلى مصر غدًا.

صاحت في قوة: لتتخلص مني؟ لأنني عبء عليك وعلى زوجتك! إذا أردت الزواج منه فسأتزوج منه. لن يمنعني أحد.

فتح عينيه في فزع.. وتدخلت زوجته مسرعة: اهدأ يا أحمد.

كلمة «اهدأ» في مصر تعني.. اضربها وقطَعها يا أحمد.

رفع يده.. نظرت إليه في ثبات وقالت: ستضربني يا أخي!

تردد وقال في كره: لقد فقدت عقلك!

قالت في قوة: أريد أن أتزوجه، ماذا يعيبه؟ لا أفهم سببًا لرفضك.

قال دون تردد: ستعودين لمصر غدًا.

قالت في تلقائية: لي أب يحكم. لو رفضه أبي فلن أتزوجه.

- صفاء! اعقلي. أنت لا تريدين سوى ماله. أنا أعرفك. تغريك الفلوس فقط. ولكن الزواج مختلف.

قالت في ثبات: لا. أنا أريد الزواج منه هو، وليس من أجل ماله.

- لا تعرفين أي شيء عنه. محمود كان من بلدك ومن بيئتك ومن سنك. وتركتِهِ.

- لا يوجد مقارنة بينه وبين محمود.

- بالطبع لا يوجد مقارنة.

- لا أفهم اعتراضك. لقد قلت إنه طيب ويساعد كل العرب.

- عندي شعور داخلي بأنه لا يصلح لك. هو لا يصلح لأن يكون زوجًا. اعتادَ الوحدة. قلت لك هو مختلف. لا أرتاح لأشياء كثيرة يفعلها. فقط لا أرتاح. وهو ليس مصريًّا، هذه في حد ذاتها مشكلة!

- ومع ذلك تعمل معه وتكسب قوت يومك منه!

- الرزق بتاع ربنا! لن أوافق. ولن يشتريني. حتى لو بحثتُ عن عمل في شركة أخرى هذا قراري الأخير.

دخل.. وزوجته وراءه.. وخرجت هي لتشتري كارت تليفون وتطلب أمها.

في الصباح.. كان الموقف قد أصبح دوليًّا، والعائلة في مصر تبحث في الموضوع. وهي أجَّلت سفرها، وتتناقش مع والدها على مكان عقد القران، وكيف أن نبيل يريد الزفاف سريعًا، وليس عنده وقت طويل. في الحقيقة عنده يوم لعقد القران في مصر، ثم يعود إلى أمريكا.

وبعد يومين من فض الاشتباك بينها وبين أخيها.. نادتها أمل وقالت: أحمد يريدك في حجرته!

ولم تكن قد رأت نبيل، وكانت تشتاق إليه، وكانت قد عزمت أمرها بأن تتزوجه حتى لو تحدَّت العالم.

قالت لأخيها في تحدٍّ: نعم!

قال في تردد وبدا أقل عنفًا وعيناه مكسورتان إلى حد كبير: أريد الكلام معك.

لم تر كسرة عين أخيها من قبل. وكانت أول مرة. وأقلقها هذا. هو بخيل نعم، وينساق لكلام زوجته نعم.. ولكنه أخوها الوحيد، وهي تحبه. وكثيرًا ما كانت تدافع عنه في الماضي فقد كان طفلًا منطويًا وكانت هي تعج بالحياة.

قال في صوت مفعم بالمشاعر: لا أوافق على زواجك من نبيل. أظن أنك فقدت عقلك، ولكنك مصممة و.. هو.. تكلمنا معًا اليوم. ربما أسأت فهمه يا صفاء. لا أريد أن أظلمه، هو راجل جدع و.. أنا اوافق. تكلَّمنا اليوم في التفاصيل.. وسوف يذهب إلى مصر غدًا، يومًا واحدًا لعقد القران، وحفل الزفاف سيكون هنا. هو مشغول جدًّا و.. أعرف أنه لا يريد أن يشتريك. أنت لست بنتًا صغيرة من الفلاحين، وهو ليس ثريًّا عربيًّا. هو.. أعني هو ثري عربي ولكن أنت ناضجة وتعرفين ما تريدين. ومادام يريد الزواج فهو حسن النية على الأقل.

قالت في حماس: شكرًا يا أحمد.

قال في صوت ضعيف: خلي بالك من نفسك.

التغير المفاجئ الذي طرأ على أخيها كان يقلقها، وكانت تشعر بأن نبيل له يد فيه. وكان لابد أن تعرف السبب.

سألت زوجته عن سبب التغيير في ساعة صفاء، وهي تدعوها لاحتساء الكابتشينو، فقالت زوجته في غيظ: ماذا أقول؟ نبيل في يده كل شيء. لم نحصل على الكارت الأخضر بعد، ونعيش هنا بفيزا عمل. لو قرَّر نبيل أنه لا يحتاج إلى أحمد.. فلابد أن نعود إلى مصر. ونبيل وعد أحمد بالكارت الأخضر وهدَّده أيضًا! مصيبة هذا الرجل. أحمد له حق والله! يلوي دراعه كده!

قالت في فخر: فعل كل هذا من أجلي؟

- أهذا ما تفكرين فيه؟ ألا يصعب عليك أخوك؟

- لماذا يصعب علي؟ هو يفضّل الكارت السحري على مصلحة أخته! يعجبني نبيل جدًّا. رجل قوي.. آه.. طاغية.. وكم أشتاق إليه!

- أنت مجنونة بالطبع! الطيور على أشكالها تقع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع

نامت على كتفه طوال الطريق من القاهرة إلى أمريكا، وهمست في حب وهي لا تصدق أنها زوجته وأنها بعد ساعات ستنام بين ذراعيه بلا أي إحساس بالذنب: نبيل لماذا تزوجتني؟

- لأسباب كثيرة

قالت في حماس: أولها!

- كنت أريد أن أكتشف سرَّك! لابد أنك ساحرة تقتلين بنظرة وتي شيرت وتمثال!

قالت في توعد: نبيل! لا تذكرني بهذا الحادث! وثانيًا!

- ثانيًا كنت أود أن أحقق أحلامك! كنت تنوين الزواج مني منذ اللحظة الأولى وأنت تنظرين إليَّ، أليس كذلك؟ بماذا كنت تفكرين في تلك اللحظة بالضبط؟

فتحت فمها في فزع: كيف عرفت؟

أكمل وكأنه لم يسمعها: عندك تصميم وجلد أعجباني إلى أقصى حد. أحب هذا في المرأة.

قالت في رقة وهي تتمنى أن تسمع كلمة أحبك!: وثالث سبب؟

نظر إليها برهة، وابتسم ابتسامته التي تعشقها، ورأت الخطوط الطفيفة حول عينيه التي أقسمت أن تقبلها كل يوم مرات عديدة ثم قال في رقة: علشان جميلة ودمك خفيف وذكية وبريئة وشعنونة ومليئة بالحياة، وأهم من كل هذا غير مباشرة على الإطلاق. مختلفة كل الاختلاف عن الأمريكيات. تلفِّين وتدورين وتخططين وتتقهقرين وتندفعين وتراوغين وتحاولين السيطرة والانتصار بكل الأسلحة المشروعة وغير المشروعة. بريئة وداهية! أعجبني هذا أيضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان قلبها يخفق بشدة، وجسدها يرتجف.. كانت تشتاق إليه وتخافه، ولا تدري ماذا تتوقع منه ولا ماذا تريد.

والشعور بالتوقع كان شعورًا قويًّا ولذيذًا إلى أقصى حد.

نظرت حولها، وكانت المرة الأولى التي ترى بيته ولم تكن تفكر إلا في الزواج السريع جدًّا، وكانت تخاف من شوقها الطاغي إليه. كان بيتًا متوسط الحجم. طابقان بثلاث غرف نوم في الطابق الأعلى، وغرفتان للجلوس، ومطبخ في

الطابق الأول، وكان مليئًا بالصور والخرائط. صور لأمه، للبنان، للجبال وخرائط بالطبع للوطن العربي..

تسلَّقت السلم والسعادة تنسكب من كل قطعة منها وهي زوجته. دخلت حجرته، وتنهدت في ارتياح. كل ما كانت تتمنى تحقق في أيام.

جلست على السرير في انتظاره، ورجلاها تهتزَّان ويدها ترتجف ارتجافة طفيفة.. سمعت صوت الباب يفتح في بطء.

شبكت أصابعها، وأغمضت عينيها لثوانٍ.. شفتاها تشتاقان لشفتيه، وتختلجان بين شفتيه، وتسحقان وتتلاشيان..

هل قبَّلها؟

يبدو هذا.

قبَّلها قبلة طويلة ورقيقة، وكأنه يعرف خوفها وانبهارها، وضع رأسها على صدره، وأخذ يداعب خصلات شعرها ولم ينطق. همست هي: نبيل.

أحاط وجنتيها بيديه وقال: وجنتاك كالثلج.. ماذا بك؟

طأطأت رأسها. ثم همست: لا أدري ماذا تفعل بي. لم أكن هكذا قط، صدقني..

فهمس وهو يقرِّبها له: كيف هكذا؟

كانت أصابعه تداعب رقبتها.. وجنتيها، أذنيها، وقشعريرة تسري في جسدها، وقال في رقة: ماذا سأفعل بزهرتي العربية المصرية الجميلة؟

قالت في شيء من الغيرة وجسدها يثور عليها: تجرب كل نساء العالم العربي. أم كل نساء العالم؟

تجاهل السؤال وقال: زوجتي، ذكريني أين توقفنا آخر مرَّة؟ آه! أتذكر.. كنت تنظرين إليَّ بعيونك الواسعة.. انظري إليَّ..

قبل أن تنطق دفع بها إلى عالم لا تعرفه ولا تتوقعه.

وعندما تساقطت دماء براءتها شعرت بفخر لا يوصف. شعرت لثوان بأنها امرأة عربية.. وليست فقط مصرية. عربية بكبرياء وكرامة وبراءة. في النهاية كان هو رجلًا عربيًّا يبحث عن امرأة عربية. لابد أنها مختلفة عن كل النساء اللاتي عرفهن.. هي زوجته.

في ساعات وهي حوله تتألم تارة، وتشعر بالنشوة تارة كانت امرأة عربية.. ينسكب منها الخجل والرهبة، وتسطع عيناها البنيتان بضوء القوة والاستقلال.

وكان رجلًا عربيًّا.. يقدر البراءة، ويواجه القوة وتحركه دماؤها على جسده، تتوق أيامه وعمره. تذكره بيأسه وقدرته، بهمه وكربه وبقائه أبدًا.

كانت عربية تعرف طعم الألم الذي يسبق النشوة، وتعرف أن الأيام التي تمر بلا حزن كأيام تمر بلا انتصار. في الألم يكمن النصر الكبير. وبلا ألم لا هي عربية ولا هي مصرية.

يجمعنا الألم والهوس بالبراءة والبحث عن الانتصار.

ما حدث بينهما لم يزل يحيِّرها ويطغى على كل حواسها، وهذا العالم الجديد يهتز أمام عينيها ويشطرها نصفين.. أو أكثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرَّت بأصابعها على زوايا عينيه كما كانت تتمنى دومًا في شيء من الخجل والارتباك.. ونظرت إلى صدره.. قربت فمها منه وقبلته في حنان وهمست: أحبك.

ابتسم وهو يحتضنها أكثر، وأغمض عينيه ولم ينطق.

كان بداخلها الكثير من الأسئلة.. الكثير من الكلمات. وكانت تشعر بأنها في حيرة وشوق وتوق إليه لا ينتهي وكان يعلِّمها ويذيبها ويقبلها لساعات. وكانت تخشاه وتخجل منه، ولا تدري ماذا تتوقع.

وقبل نهاية الليلة الأولى وجدت نفسها ترجوه أن يوقف عذابه المنعش لها، وتتمناه وتفقد عقلها وتتمتم، وتقسم بأنها تحبه وتكرهه، ولن تسامحه أبدًا.. بأنها ترجوه وتتوسل إليه.. بأنها له ومنه، بأنها أصبحت حبات من الرمال المتناثرة وسط المحيط.. تأخذها الموجة العالية، وتدفع بها إلى الشاطئ.. فتسبح على الزَّبَدِ الأبيض وتنسى كل شيء.

وكان يحب أن يسمع رجاءها.. كان يهمس: ماذا تريدين؟ تكلمي معي.. تريدينني؟

وكانت تكاد تصيح: نعم.. أحبك.

- كيف؟

- أحبك.

- كيف؟

- لا أدري كيف.. أرجوك، لا أدري كيف.

وعندما تختلج حوله.. يبتسم في انتصار.

وأبدًا لا يفقد السيطرة على نفسه.

كان يحب أن يستمع إلى رجائها أولًا قبل أن يعطيها ما تريد.. ترجوه.. ويغطيها بلمسات رقيقة لا أكثر لساعات وترجوه في يأس. لابد أن تصل إلى قمة اليأس ليعطيها ما تريد. يعذِّبها إلى أبعد حد، وتعشقه إلى أبعد مدى.

والآن بعد مرور أسبوع.. كانت لا تعرفه أكثر على الإطلاق.

كانت ترى قشرة من الزيف وقشرة من العنف.

كان يصل إلى نشوته ولا يفقد السيطرة.. ربما يهمس باسمها لا أكثر.. لا كلمات حب.. لا يأس، لا خوف.

بدا وكأنه يريدها بقوة، وكانت تتوقع بغريزتها الأنثوية أن يفقد السيطرة أحيانًا ككل الرجال.. ألا يتصرف ببطء ولياقة ويقبلها لساعات ويسمع رجاءها كل مرة وكل ليلة. لابد للرجل أن يفقد السيطرة.

كانت تسمع هذا من صديقاتها.. ولكن نبيل كان مختلفًا في كل شيء. وبدا لها أنه يعشق السيطرة عليها تمامًا وهي بين ذراعيه، ويعشق أن تكون له السلطة والإرادة، ومع أنه كان يهمس كل ليلة: قولي لي ماذا تريدين.. كل ما تريدين..

لم تكن تعرف ماذا تقول في أغلب الأحيان. وكان هو يعرف أين نقاط ضعفها وكأنه درسها لسنين.. كان يعرف أين يلمسها لترتجف بين يديه، ومتى يسيطر عليها تمامًا لتتناثر من حوله.

كان يعرف كل شيء.

ولم يكن أبدًا رجلًا سهلًا.

وما كان يثير أعصابها حقًّا هو استعماله للعازل كلما مارس الحب معها.. ولا ينسى أبدًا أبدًا.

كان يمارس الحب معها وكأنه يقوم بعملية قتل مع سبق الإصرار والترصد. عن عمد وفي تركيز كامل. كل مرة.

وكان يريدها كثيرًا، وكانت تريده كثيرًا.

وهي تقبِّل صدره في بطء، وتمر بأصبعها عليه، همست في مكر: نبيل.. لماذا تستعمل العازل. لقد جئت بحبوب منع الحمل.. هل تريد أن تراها؟

ابتسم، وربت على يدها التي استقرت على صدره: لا لا أريد أن أراها.

قالت في تردد: ولكن الرجل.. أليس من الأفضل لك ألا تستعمله وأن أستعمل أنا الحبوب.. ألن.. ألن تستمتع أكثر؟

- وكيف عرفت هذه المعلومات القيمة يا زوجتي البريئة؟

قالت في صراحة: من صديقاتي بالطبع.

- هذا ما كنت تتكلمين عنه مع صديقاتك؟

هزَّت رأسها بالإيجاب في خجل، وقالت: كلهن تزوجن سواي، وكنا أحيانًا نتكلم فقط، ويقلن إن الرجال لا يحبون أن يستعملوا أي شيء و..

صمتت في خجل.

همس وهو يقربها له: استمتع معك، وأريدك في كل لحظة.

كادت تفقد صوابها من جمال كلماته، ولكنها أكملت في إصرار: ألا تثق بي يا نبيل؟ لقد وعدتك بألَّا ننجب حتى تطلب أنت مني هذا.

ألصق جسدها بجسده وقال: لا، لا أثق بك أبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نعم.. كان رجلًا غريبًا.

وبدا لها أن الحب عنده كلعب القمار، كأنه يلعب القمار كل مرة ويتعمد الكسب.. وكأنه دائمًا يمسك بزمام الأمور.. كل الأمور.

لم تكن تتوقع هذا.. ولم تعرف الكثير عن الرجال.

كانت تعرف أن هناك حاجزًا دائمًا بين مشاعره وتصرفاته، وأن العقل يتحكم في كل شيء في حياته.

كان رقيقًا.. هادئًا، يغمرها ويدغدغها، وكان بداخله عنف كبير وحقد ربما، كره ربما، توحش لا تعرفه ولم تعرفه.

وتشعر به أحيانًا في عينيه وهو ينظر إلى الخريطة أو يكتب شيئًا..

يبتسم ويقبلها، ويأخذها بين ذراعيه لساعات.. وبدأت تعشقه كما لم تعشق شيئًا من قبل.. وبدأ يصبح محور كل شيء.

لم ينطق بكلمة أحبك قط، ولم تطلب منه النطق بها. أصبحت تنتظر عودته كل يوم في شوق، ولا تستطيع النوم بلا ذراعيه.

بدأت تخاف ضعفها وسيطرته التامة على كل شيء. ولم يكن لديها القوة بعد لفعل أي شيء. ربما في المستقبل وليس الآن..

وكانت أول مرة تعيش مع رجل. وعاداته لم تتغير كثيرًا. كان دائمًا يصحو مبكرًا.. في السادسة صباحًا على ما تعتقد.. لا ينام كثيرًا على الإطلاق.. وكأن نارًا تأكله من الداخل. ومع هدوئه كانت تعرف العِرْق الثائر في رقبته، وأحيانًا تحمد الله أنه لا ينفجر بسهولة. ما إن يستيقظ حتى يبدأ في الاستماع إلى الآيات القرآنية لمدة ساعة كاملة.. ويفطر.. إفطاره الغريب.. خبز شامي وزعتر بزيت الزيتون.

في البداية حاولت أن تفطر معه، ثم قرَّرت أن تنام. فلا هي تحب الزعتر بالزيت، ولا تفهم لماذا يأكل الخبز بلا غموس!

في الحقيقة ذوقه في الطعام كان مختلفًا عنها تمامًا. لم يكن يحب القلقاس ولا الملوخية ولا فتة اللحم. وكان يعشق الكبَّة النيَّة. وأول مرَّة رأته يأكل لحمًا نيِّئًا بالبهارات ويطلق عليه كبَّة! كادت تشعر بالغثيان! وعندما عرض عليها أن تجربه. رفضت في إصرار.

كان يفطر في بطء. ساعة كاملة وهو يقرأ الجريدة.. وينظر إلى الخريطة. بيته كان مليئًا بالخرائط التفصيلية للوطن العربي قبل الدولة العثمانية، وبعد الدولة العثمانية، قبل دولة إسرائيل، وبعد دولة إسرائيل، قبل وجود لبنان، وبعد وجود لبنان.

وشعرت صفاء أن نظرتها للخرائط ستختلف تمامًا من الآن فصاعدًا.

ويخرج في هدوء إلى عمله، وهي تصحو في العاشرة صباحًا.. تبقى في السرير.. تمدِّد يديها وتَتَمَطَّى في كسل.. تقبِّل الملاءة التي لم تزل رائحته عالقة بها.. ثم تبدأ في الطبخ والكلام في التليفون وعبر الإنترنت. حاولت أن تبحث عن وصفات لبنانية لتطبخها له.. ولم تتقنها. وبحثت عن السبع بهارات في كل محل في أمريكا وعندما وجدتها لم تعرف ماذا تفعل بها! وكان الكل يتكلم عن السبع بهارات وكأنها جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، ولكنه لم يكن يهتم بالطبخ كثيرًا.

كان يأتي في المساء.. ويجلس على الأريكة البنية العميقة، ويمدد ساقيه على المنضدة، ويقول: تعالي يا حبيبتي.

وكانت تتمنى سماع هذه الكلمة كل يوم.

في البداية أذهلها عندما فتح زجاجة نبيذ وبدأ يشرب كأسًا في استمتاع. لم يعرض عليها أن تشاركه على الإطلاق. وكان يتصرَّف وكأن هذا شيء طبيعي جدًّا.

لم تفهم كيف يستمع كل يوم للقرآن ساعة كاملة في الصباح ثم يحتسي الخمر من حين إلى حين. ظِنت في البداية أنها عادة شيعية لا تعرفها. فسألت

مفتي الإنترنت واكتشفت أنها ليست عادة شيعية بل عادة نبيل نصار.

لم تجرؤ على نقده أو الكلام عن الخمر.

وعندما يقول: تعالي يا حبيبتي.. كانت تغطس بجانبه في الأريكة العميقة وتجد رأسها المكان المعتاد على صدره، ويبدأ كل منهما في الكلام لساعات. كان يحب كلامها، ويضحك على نكاتها، وكانت تعشق آراءه. تستفزُّها أحيانًا.. ولكنها تحب كل شيء فيه.

كان يمسك بالخريطة بين يديه، ويشرح لها أن الحدود فكرة هلامية وأجنبية بين الدول العربية، وأن رئيس الوزراء البريطاني السابق تشرشل قد رسم حدود الأردن وهو يحتسي الشاي مساءً مثلهم تمامًا. وأن الغرب فرض علينا الشتات والتقسيم. وأن الحل في الوحدة، وكان يقول إن هناك مقولة إنجليزية شهيرة هي: «إذا لم يتعلَّق بعضنا ببعض فسوف يُعلَّق كلٌّ منا وحده»، ويقول: إننا فعلًا مُعَلَّقون من الرقاب جميعًا في يد الغرب، وإن السياسة لا أخلاق فيها.. وإن الأفكار تتغير والإنسان بطبعه يحب التغيير وينساق إلى الأفكار باندفاع العذارى.

كان يتكلم معها كثيرًا وتستمع في اهتمام. ويضحكان معًا.. ساعات. وكان بالنسبة إليها هو كل ما يمكن أن تتمناه المرأة في زوج.

ويومًا سألته من جديد عن الفرق بين السنة والشيعة، وكانت تشعر بعدم ارتياحه للكلام في الموضوع، وابتسم لها وقال: ما أجمل ألا نتكلم عن الفروق! أنت محظوظة لأنك لا تعرفين الفرق.

ولكنها أصرَّت، وقالت في فضول:قلت لي إنه فارق تاريخي وسياسي، ولكنني سمعت أن الشيعة عندهم إمام؟

هَّز رأسه بالإيجاب.

فقالت في حماس: من هو؟ هل صورته في مكتبك؟

قال في لامبالاة: هو في غيبة. صورته ليست في مكتبي. هذه صور بعض العلماء.

قالت في دهشة وبراءة: في غيبة! كيف؟

اقترب منها وهمس: حبيبتي.. من الصعب أن أشرح لك كيف، وأفضِّل أن أتكلم معك في كل ما نتفق عليه، لا ما يمكن أن نختلف فيه. ما رأيك؟

قالت بلا تردد: معك حق.

ولم تسأل من جديد ولم يتكلما في هذا الموضوع.

كان الجنة بعينها.

حتى طموحها العملي بدأ يتقلَّص أمامه. لم يزل يحثها على النجاح، ولكنها كانت تفضِّل أن يكون هو الكون.

وكارت الفيزا كان وسيلة رائعة لغيظ أمل وإظهار الجاه أمامها.

كانت هي أفضل من أمل بكثير، فلا أمل تشعر كل يوم أنها أجمل امرأة في العالم ولا أمل تشعر كل يوم أنها أغنى امرأة في العالم ولا أمل ترتجف وهي تتذكر لمساته وقبلاته.

وتحقَّقت كل أمانيها البسيطة في أيام. بسبب المارد السحري.. زوجها.

ﷻ ﷻ ﷻ ﷻ ﷻ

كانت تحب أن تُعلِّق ملابسه بنفسها. كل يوم. وكثيرًا ما شعرت بالرغبة في تفتيش جيوبه، ولكنها لم تفعل. بدأت تشعر بالرغبة في التحكم التام فيه، وكانت تخاف من رد فعله.

لم تفعل.

أحيانًا كان يتأخر لمنتصف الليل، ولم تكن تجرؤ على أن تسأله أين كان.

ويومًا تأخَّر كثيرًا.. وعاد في الرابعة صباحًا. لم يوقظها. نام إلى جانبها في هدوء. ولم تنم هي.

كان عقلها يعمل باستمرار وتتخيله مع أخرى. لابد أنه كان مع امرأة أخرى. ولعبة الأعمى الأطرش التي يريدها أن تلعبها لم تعد تجدي. تمنَّت لو تكلَّمت معه، ولكنها فضَّلت أن تتصنَّع النوم. فالصياح والعصبية عادتان من عاداتها المتميزة، ولم تكن تريد أن تُظهِر هذه العادات بعد أشهر فقط من الزواج.

أغمضت عينيها وتصنَّعت النوم حتى الصباح. ما إن خرج من الحجرة ليفطر كعادته حتى اتجهت إلى الخزانة تبحث عن جاكتته. أمسكت بها في ترقب.. نظرت من جديد.. وكان في الدور الأرضي يفطر في المطبخ ولابد أنها كانت السادسة صباحًا. لم ينم سوى ساعتين.

بدأت تبحث مسرعة في جيوب الجاكيت. لم تجد شيئًا. تنفَّست الصعداء. ثم بدأت تبحث عن القميص.. والمحفظة. لابد أن ترى المحفظة.

انهمكت في البحث داخل المحفظة لأول مرة.

كان هناك صورة صغيرة لأمه التي لم ترها قط، والكثير من الأوراق بأسماء إنجليزية.. بعض الأسماء لنساء بالطبع.. وبعض أرقام التليفون بلا أسماء. لابد

من تفتيش التليفون المحمول أيضًا. بدأت تشعر بأنها لابد ستجد شيئًا، وأنه لابد يخونها وإلَّا لما عاد متأخرًا هكذا.

بعد أن انتهت من التفتيش وضعت كل شيء مكانه، ولكن التوتر لم يتركها، وعدم نومها أمس كان يؤثر على تماسكها.

نزلت السلم، وجلست أمامه وهي تبتسم: صباح الخير يا حبيبي.

كان يقرأ الجرائد كعادته، ويبلل الخبز في الزعتر والزيت. قال في لامبالاة: صباح الخير حبيبتي. هل انتهيت؟

نظرت إليه في دهشة: انتهيت من ماذا؟.

وضع اللقمة في فمه وهو لا ينظر إليها، يركز على الجريدة وقال: من التفتيش بالطبع.

ثم نظر إليها ومدَّ يده بالتليفون المحمول قائلًا: لا، لابد أنكِ لم تنتهي بعد. كنت تبحثين عن هذا؟

شعرت بالدم يجرى من عروقها، ثم قالت وهي تحاول بلا جدوى السيطرة على غضبها: لقد عدتَ أمس في الرابعة صباحًا. كنتُ أنتظرك. لم تقل أنت أنك ستتأخر أبدًا. أعرف أنه كان هناك اتفاق ألَّا أتدخل في حياتك، ولكنني إنسان من لحم ودم. ماذا تتوقع؟

قال في فتور وهو يقوم ويضع الطبق في المطبخ: أتوقع أن تفتشيني بالطبع.

قالت في غضب: وإذا كنتَ تتوقع هذا فلماذا لم تخبرني أين كنت؟ أين كنتَ أمس يا نبيل؟

همس في نفس فتوره: لابد أن أعترف. المصريات أسوأ نوع من المفتشين. بلا رحمة!

قالت في غضب: لماذا تتعمد إثارتي؟

قال في قوة وهو يتسلق السلم: لا أتعمد أي شيء. فقط أكره القيود. أخبرتك من قبل أنني أكره القيود.

فصاحت وهي تتسلق السلم وراءه: أنا قيد؟ أصبحت قيدًا إذن!

قال في هدوء وهو يرتدي ملابسه: كان بيننا اتفاق. وافقتِ عليه.

- كنتَ مع امرأة أمس؟ فقط أجبني؟

قال في قوة وهو يرتدي حذاءه: لا.

قالت وهي تحاول أن تسيطر على نفسها: حسنًا، أنا أصدقك. أين كنتَ أمس؟.

قال في سخرية: تصدقينني؟ الحمد لله. هناك اتفاق بيننا لا تنسيه.

وكان يعيش معها كما كان يعيش بدونها. تجاهلت كلماته وقالت مسرعة: خذني معك إذن. لا تخرج دوني ليلًا وتأتي في الفجر. نبيل أنا لا أشعر بالأمان هنا..

قال في حسم: لا تنسي الاتفاق. لا تنسيه أبدًا!

قالت في غضب: كنت مع امرأة أمس!

رفع كتفيه وقال في لامبالاة: قلت لك: لا. ولكن إذا كنتِ غير مقتنعة فهذه ليست مشكلتي.

صاحت: ماذا تظن نفسك؟ تظن أنك اشتريتني!

قال في تلقائية: بالضبط.

- مغرور ووقح إلى أبعد حد. لا، لم تشترني يا نبيل. من اليوم سوف أنقل أشيائي لغرفة أخرى يوم.. اثنين.. ثلاثة.. عشرة.. حتى أعرف أين كنت!

قال في لامبالاة: ماشي.. أليس هذا ما تقولون في مصر؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولا يمكن للإنسان الحكم على أشياء سوى بعد التجربة بالطبع! وصفاء كانت تعرف قبل أن تتزوج أنه من الممكن أن تتشاجر مع زوجها.. وأن عليها في هذه الحالة أن تتأكد من أنها المنتصرة في معظم الأحيان، وكانت تعرف أن المرأة تلجأ إلى الضعف أحيانًا والقسوة أحيانًا في تعاملها مع الزوج. وأنه قد حان الوقت لتلقين زوجها درسًا في المعاملة، وأن عليها أن تتجاهله تمامًا حتى يعود راكعًا يطلب المغفرة.

كان لابد من الشدِّ والجذب، والشدُّ حتمي في حالة زوجها الذي ظن نفسه قد اشتراها ودفع الثمن.

في اليوم الأول لقرارها.. أخذت كل أشيائها من حجرته إلى الحجرة المجاورة وهي تتمنى أن يتألم ويغتاظ.

وعندما عاد ليلًا كانت هي قد أغلقت باب حجرتها عليها ولم تفتحه، مع أنها كانت تحاول تتبُّع ما يجري خارج الغرفة. بدا لها أنه تناسى وجودها تمامًا. ظنت أنه ربما يطلب منها تجهيز العشاء ولكنه لم يفعل.

جلس كعادته على الأريكة البنية العميقة بدونها يشاهد التليفزيون العربي ويقرأ الشعر، ثم دخل حجرته لينام.

لا بأس. كان هذا أول يوم فقط.

في اليوم الثاني فعل نفس الشيء.

وكانت هي قد وصلت إلى ذروة الغضب والإحباط.

لم تخرج من البيت يومين. ولم تتكلم مع أحد.

أول ما فعلته هو أنها طلبت زينة، وبدأت تسألها بشكل غير مباشر ما إذا كان زوجها يرى امرأة على وجه التحديد.. وزينة بدا عليها الارتباك ولم تعطِ إجابة صريحة.

مما أثار شك صفاء أكثر.

خرجت لزيارة أمل.. وشعرت باليأس لدرجة أنها قررت أن تحكي لأمل بعض مشاكلها وتطلب النصيحة، وهذا بالنسبة لصفاء كان كاللجوء للصليبيين لمحاربة التتار! وبدا أن حالة الطوارئ قد أُعلنت.

احتست أمل الشاي في بطء وكأنها صاحبة الخبرة والمعرفة وقارئة الكف والفنجان. قالت أمل في تأمل: تقولين إنه غضب لأنك سألتِهِ أين ذهب وإنك تركت الغرفة وإنه تقبل ذلك في هدوء؟.

كون أمل تعيد قصة الهزيمة مرة أخرى أثار أعصاب صفاء، فقالت في عدم صبر: نعم. فعل هذا.. أنا متأكدة من أنه على علاقة بأخرى.

مصمصت شفتيها وقالت: اسمحي لي يا صفاء، أنا زي أختك يعني.. الراجل مش بقرة تتحلب كده، وإنت بتخلّصي على فلوسه أول بأول.. هو يحتاج أن يشعر بأنك تحبينه لذاته.

بدا أن الصليبيين يستغلون الأزمة الدبلوماسية لكسب شخصي، وظهر الغضب على صفاء وقالت: أنا التي تستغل زوجها؟

- لا تغضبي مني، أنت مثل أختي. أين الحنان والعطف؟

قالت في تهكم: نعم، أين الحنان والعطف؟

- قلت لك أنا صريحة، لا تغضبي مني. هل تريدينني أن أتكلم مع أحمد؟ يعني ليتكلم معه راجل لراجل.

قالت مسرعة: لا، شكرًا.

مرَّت ستة أيام ولم يتغير شيء سوى أن أعصاب صفاء بدأت في الانهيار.. لم تعد تنام ولا تأكل، وتفكر في زوجها طوال الوقت. وكانت تسمي هذه الحادثة حرب السَّتة أيام!

كانت قد قرَّرت أن زوجها لابد على علاقة بأخرى، وأن من واجبها الحفاظ عليه، ومادام لا يأبه بالبعد عنها فلابد أن عنده ملجأ آخر.

هي ليست مسألة كرامة إذن.. هي حرب مع امرأة مجهولة. من يدري من أين وكم تملك. لابد أن تكسبها.

وبهذا الاعتقاد.. انتظرت زوجها بعد أن طبخت له «محشي» ودجاجًا، ووضعت الكثير من البهار اللبناني الذي لا تحبه.

وتأخر.. كانت الثانية عشرة ولم يأتِ.

تأكد الاعتقاد.. ربما يكون متزوجًا أيضًا من يدري؟ زواج عرفي مثلًا؟ ماذا قالت عزَّة عن الرجال العرب؟ بالطبع بعد ثلاثة أشهر من الزواج يخونها. كان لابد من الانتصار على المرأة المجهولة والعودة إلى الوطن.

في الواحدة صباحًا.. فتح الباب ودخل، كانت تجلس عند طرف المائدة على يمين الباب، همست في رقة: حبيبي، تريد أن تأكل شيئًا؟

رفع حاجبيه في دهشة، فاقتربت منه.. وقفت على أطراف أصابعها وقبَّلت خده، وهمست: لا تغضب مني.

ثم أمسكت بيده، وجرته إلى المائدة.. جلس أمامها والدهشة لم تزل تسيطر عليه، وقالت وهي تضع الطعام في صحنه: طبخت لك بالطريقة اللبنانية. نبيل.. كم افتقدتك!

ابتسم وهو يشم رائحة التوابل القوية، وقال: يعجبني فيك المبالغة في كل شيء.. في المشاعر والتوابل.. والحب والكره.

بعد أن أكلا. كان يجلس على الأريكة كعادته يشرب القهوة العربي، وجلست إلى جانبه.. اقتربت منه وألقت برأسها على كتفه، وهمست: ألم تفتقدني؟

- افتقدتك بالطبع. جدًّا.

قالت في مرارة: ولكن هي عوضتك عني، أليس كذلك؟

ضحك لأول مرة منذ زمن، فقالت هي مسرعة: ربما لا أملك المال لأعبِّر لك عن حبي. ربما تكون هي أغنى مني بكثير جدًّا. ولكنني أحبك أكثر.

قال في دهشة والموقف بالنسبة إليه شديد التسلية: أغنى بكثير؟

- بالطبع. أنا أعرف. هي فاطمة. نحن الفرع الفقير في العائلة العربية، وأنت تحب الفرع الغني. أنا أتفهم بالطبع، ولكن.. لا أستطيع أن أعيش معك وأنت على علاقة بأخرى. لابد أن تقطع العلاقة فورًا.

قال في تأكيد: سأقطعها فورًا.

قالت في ألم: كنت على علاقة؟

ابتسم وهو يضمها: لا.

قالت فجأة وهي تتصنَّع السذاجة والبراءة، والطيبة تتدفق منها: أريد أن أسعدك. كيف أسعدك؟ أنا.. أقصد ليس عندي خبرة بالرجال ولابد أنك تجدني مملة بعض الشيء. ولكنني أريد إسعادك.

كيف كانت زوجتك الأولى؟ هل تزوجتها حقًّا من أجل الإقامة؟

قال في لامبالاة وهو يشاهد التليفزيون: نعم. ربما لا أتذكر.

- كانت أمريكية ولم تفهمك، أليس كذلك؟

قال وهو يضغط على زر ريموت التليفزيون ليغيِّر القناة:لم تفهمني ولم أفهمها.

- أنا أفهمك؟

- تقرئينني كالكتاب المفتوح.

- هل خنتَ زوجتك الأولى؟

قال وهو لم يزل يشاهد التليفزيون: نعم.

- كم مرة؟

- لا أدري، الكثير من المرات. في النهاية لم يكن يربطنا شيء.

- وهي عرفت؟

- عرفت بالطبع.

- لماذا خنتها؟

- كانت تسأل الكثير من الأسئلة.

فتحت فمها لتسأل السؤال الثاني، ولكنها أغلقته في فزع.

ابتسم من جديد. بدا سعيدًا وكان عليها أن تستغل هذا وترفع الحصار.

أمسكت بيده، قبلتها وهمست: أريد أن أشاركك حياتك. بلا شروط ولا قيود. أريد أن أذوب بداخلك للأبد.

ثم جلست على الأرض، وألقت برأسها على ساقيه وهي تمسك بيده، وبدت كحلم كل رجل في العالم.. مستسلمة وهادئة وصبورة، وتعج بالغواية والشوق.

وكان يعرفها عن ظهر قلب، ويتوقع الانفجار في أي لحظة.

بقيت في مكانها لثوانٍ، ثم قالت: هل يمكنني أن أشاركك حياتك؟

شدَّها إلى حجرتهما وهو يقول: تشاركينني كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح استيقظت مبكرةً خصيصًا لتجهز له الإفطار، وبينما هو يفطر قال في حماس: عندي لك مفاجأتان.

نظرت إليه في ترقب.

- أولًا، نذهب إلى كندا. شهر عسل حقيقي. أربعة أيام. ما رأيك؟

قالت في حماس: شكرًا يا حبيبي.

- وثانيًا، نذهب إلى لبنان بعد هذا بيومين أو ثلاثة لنزور أمي.

قالت في نفس الحماس: بالطبع. ربما نقنعها بأن تعيش هنا معنا. هل تريد هذا؟

قال في حسم: لن تفعل. ولكنني أريدك أن تقابليها.

يبدو أن الدنيا تعطيها أكثر مما تستحق بكثير. لم تتوقع كل هذا.

كان يفتح لها باب المغارة لتأخذ الكنز. وكانت تعشقه لحدِّ الجنون. وقرَّرت ألا تغضبه أبدًا مهما فعل. ولو كان سيأخذها لأمه فهى امرأة مختلفة.. هي حالة خاصة. هي زوجته وستصبح أم أبنائه قريبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت ترى العالم كله معه وبعينيه. وكان أحيانًا يغلق عقله وقلبه تمامًا عنها يومًا أو اثنين، واعتادت هذا وفهمته. وكان هو معها حلمًا لم تحلمه ولم تجرؤ على تخيله.

كان كل الأمراء والملوك وكل الطغاة وكل العالم بالنسبة إليها. ولم تعد تنطق بجملة تخلو من اسمه، ولا تفكر في شيء إلا وهي تتصور ردَّ فعله.

وعادت إلى دروس الإنجليزية بحماس.

وكان يشجِّعها.

وقرَّرت ألا تسأله من جديد إذا تأخر، وعندما تأخر يومًا لم تنطق. لم يكن يعطيها نفسه، ولكنها تقبَّلت هذا.

لم يكن كأخيها مع زوجته لا يشاركها خوفه ولا ضعفه ولا مشاكله، ولكنها تقبَّلت هذا أيضًا.

كان يشاركها أحلامه المستحيلة، وكانت تستمع إليه.

بدا أن العالم قد استوى أخيرًا، وأن مشاكل الأمم على وشك الزوال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما سافرت معه إلى كندا كانا يقضيان اليوم معًا في الجبال.. وبينما كان يعرف هو كيف يتزلج على الجليد لم تحاول هي طوال الشتاء. ولكنها كانت تشعر به في راحة شديدة بين الجبال وكأن الطبيعة هي بيته وملاذه. وكان يحب استنشاق الهواء البارد لساعات والنظر إلى الجبال، وعلاقته بالطبيعة لم تفهمها.. أحيانًا كان يحملق في الأشجار ثم يقول في حماس: هذه الزهرة الصغيرة تفتحت في يوم واحد، هل تلاحظين؟ وتنظر إليه في دهشة ولا تدري ماذا تقول. كان يحفظ عن ظهر قلب كل أنواع الأشجار والأزهار، ويتتبعها وكأنها أبناؤه في مراحل عمرية مختلفة. أما صفاء فكانت ترى الطبيعة فقط عبر الطريق الزراعي ونوافذ القطارات بين القاهرة والإسكندرية، ولم تكن ترى أي جبال ولا ثلوج، وكانت متعتها هي الخروج إلى الشوارع المزدحمة وأكل كوز ذرة من شارع بيلوز في الإبراهيمية، وشراء قمصان النوم القصيرة المغرية ليوم زفافها، ثم شرب عصير قصب من كوب بلاستيك وهي واقفة وبسرعة حتى تفرغ المكان للزبون القادم، ثم تعود إلى البيت وطعم السكر والزرع الأخضر في فمها يكفيها. وقد اعتادت الزحام وأدمنته! أما هو فكان كالذئب في البرية! كانا يسيران معًا الآن في بداية الصيف لساعات، وقال لها مرَّة: أتعرفين؟.. لو رأيتك من عشرين عامًا.. لا أعتقد أنك كنت ستنظرين إليَّ حتى!

قالت: كنت سأكون في الخامسة!

- صفاء. من عشرين عامًا كنت أتاجر في المخدرات في بيت اللاجئين في ألمانيا. والنساء اللاتي كنت أعرفهن كُنَّ لا شيء.

- الحمد لله أنني لم أقابلك منذ عشرين عامًا!

قال في جدية: أتعرفين يا صفاء؟ هناك شيء مهمٌّ جدًّا، أريد أن أعلَمك إيَّاه عندما نصل إلى الفندق.

قالت في فضول طاغٍ: ما هو؟

- شيء لا نتعلمه أبدًا في العالم العربي، ولا يستطيع الغرب أن يحيا بدونه

قالت والفضول يزداد: ما هو؟

- شيء نحفظه عن ظهر قلب، ونرسمه في ميكانيكية، وأبدًا لا نعرف كيف نقرؤه. ننظر إليه كما ينظر الأمي لحروف العربية؟

نظرت إليه وهي لا تفهم قصده.

فأكمل: سأعلمك قراءة الخرائط.و لقراءة الخرائط طرق كثيرة.

دخلت معه الحجرة.. قال وهو يطبع قبلة على فمها: سأشتري شيئًا وآتي، ربع ساعة لا أكثر.

ثم خرج وأغلق باب الحجرة.

كانت حجرة الفندق كبيرة وجميلة، بيضاء بسرير كبير ودورة مياه عريقة. دخلت دورة المياه.. أغلقت الباب عليها وهمَّت بفتح المياه فسمعت أحدًا يفتح باب الحجرة.

لابد أنهم عمال النظافة. همَّت بالجلوس على المرحاض، ولكنها سمعت دقًّا على باب دورة المياه.

قبل أن تنطق سمعت صوت رجل يهمس: يوم خمسة وعشرين.

لم تنطق.

بدأ الخوف يتسَّرب إلى قلبها.

فأكمل الرجل بصوته الضعيف: إيه يا نبيل. يوم خمسة وعشرين لعملية شهاب الدين.. سامعني؟

وضعت يدها على فمها.. بدا لها أن هناك لبسًا ما.

فتحت الباب في بطء.. بلا تفكير.

نظر إليها الرجل في فزع. كان شابًّا في أوائل العشرينيات.

قال في ارتباك: الحجرة.. أعتقد أنني أخطأت في الرقم.. أنا..

وقبل أن يكمل.. كان زوجها قد فتح باب الحجرة.

نظر إلى الرجل نظرة طويلة وكأنه يعرفه منذ سنين.

أغلقت هي عليها باب الحمام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

جلست على غطاء المرحاض والخَدَرُ يسيطر على كل جسدها.. وعقلها يعمل في بطء شديد. لم تتحرك. بدا وكأن زوجها يهمس للرجل بشيءٍ لم تسمعه ولم تكن خائفة.

كانت تستدعي ذاكرتها وكلمات متناثرة من كل من حولها.. أخوها.. ماذا قال؟ لا أحد يعرف عن نبيل شيئًا.. هو مختلف.. ماضيه مختلف.

وهو نفسه ماذا قال عن الوزير اللبناني؟ «يحب لبنان.. لبنان فقط». كانت تعرف الآن العصب الثائر في رقبته الذي لا يستقر وهو غاضب أو كاره، وكان يكره هذا الرجل. كيف لم تر هذا؟

كلمات متناثرة كثيرة وجدت صدى جديدًا بداخلها..

خريطة تحتل غرفته وعقله.. حدود تشله وتحبطه.

سيطرة.. هي غايته وحياته!

لماذا أتى بها إلى هنا؟ ليس من أجل شهر عسل جديد.. من أجل مقابلة مخططين لجريمة ما. لماذا سيذهب إلى لبنان؟ ليس ليرى أمه!

زوجها..

قاتل.

زوجها..

يغتال من لا يتفق معه ولا يعجبه!

كانت تتوقع دقًّا على الباب من امرأة على علاقة به.

ليته كان على علاقة بامرأة.. بعشرين.. ليته يخونها كل يوم مرَّات عديدة.

غطت فمها بكفها حتى لا تصرخ ولا تتقيأ.

لابد أنها لم تفهم. ستتكلم معه.

وربما هذه أول مرة يخطط لهذا.. ستوقف الجريمة بالطبع قبل حدوثها.

سترجوه و..

أغمضت عينيها، ضغطت على جفنيها بكل قوتها.. صداع غريب.. كل شيء يحدث بسرعة. تحتاج إلى أن تفكر في هدوء. لابد أن تفكر.

قامت وهى تكاد تفقد توازنها.. لأول مرة تشعر بكل هذا الغثيان وعدم التوازن.

لا تفهم شيئًا على الإطلاق.

قال: «لا تسأليني عن أي شيء. لا أحب التحقيقات».

ولكن الأمر الآن اختلف. أليس كذلك؟ ألهذا لم يكن يريد أن ينجب الأطفال؟ لأنه سيُقتل هو نفسه حتمًا وقريبًا!

فتحت قفل الباب، وخرجت في تباطؤ وهوت إلى السرير دون أن تنظر حولها. كان هو جالسًا في انتظارها على الكرسي أمام السرير. وبدا هادئًا جدًّا.

ليست المرة الأولى إذن! سفاح هو أم إرهابي أم طاغية؟

نظرت إليه. لم تكن تخافه على الإطلاق. كيف تخافه ولم تره يفقد أعصابه مرة واحدة.. ربما يومًا واحدًا.. كان قاسيًا معها ولكنه عادةً هادئ ورقيق وعاقل جدًّا. لابد أنها أساءت الفهم.

قالت في صوت مبحوح: كنتُ في الحمام و...

قام. جلس إلى جانبها. أمسك بيدها وقال في رقة: هل أنت بخير؟

نظرت إلى عينيه وكأنها لا تعرفه، لم يحرك عينيه عن عينيها، ثم قال: أنت تعرفين الوزير اللبناني قابلتِهِ.

قالت مسرعة وهي لا تريد أن تسمع شيئًا: لا يهم. لا أريد أن..

ثم صمتت. ماذا تقول؟ إنها لا تريد اعترافًا منه! إنها تفضل ألا تعرف أي شيء. إنها تود العودة إلى مصر الآن في هذه اللحظة.

قال في صرامة: اسمعيني.. أريدك أن تفهمي من أكون.

احتضن خدَّها بيده، فأزاحت يده في تلقائيَّة، وقالت: لا. لا أريد أن أفهم. أريد أن أعود إلى بلدي.

بعد أن قالتها. شعرت بأن عقلها مشوش، وبأنها تعرف الآن موعدًا لاغتيال أحد الساسة، وكل ما تفكر فيه هو العودة إلى بلدها.

همس في رقة: حسنًا. ستعودين. في أي وقت. هذا الرجل.. غبي. ربما لابد أن أكون سعيدًا أن غباءه وسذاجته وضحا أمامك أنت وليس أمام المخابرات الأمريكية أو غيرها.

قالت في مرارة: ستقتله هو أيضًا؟

هل أغضبته كلماتها.

لا تدري. لم يزل هادئًا إلى حد مخيف، قال في هدوء بلهجة مصرية صميمة: صفاء.. هذا الوزير اللبناني يريد تقديم لبنان لإسرائيل على طبق فضة. أتفهمين؟ لبنان بؤرة نار، لبنان كيان اخترعه المحتل ليعذبنا به. هناك الحرب الأهلية بالطبع، وهناك إسرائيل.. وإسرائيل لا ترحم، ولا تفرق. ولو أصبح لبنان دمية في يد إسرائيل سينهار العرب جميعًا. سورية، مصر، الأردن، كل الجيران. عندما كنا في حرب أهلية كان يمكنك أن تغلقي بابك عليك وتنامي ولا تخرجي، ومادمت في بيتك فأنت في أمان، ولكن قنابل إسرائيل تخترق كل الحيطان، وتقتل الطفل قبل الشيخ. أبي مات وهو يشتري سندوتشات من محل.. خرج من بيته ليشتري السندوتشات. ولكن أخي مات وهو نائم على سريره بقنبلة اخترقت حجرته. ولم نر منه سوى أشلاء. انصهر في ثوان بين النيران التي لا ترحم.

فتحت فمها لتتكلم فقاطعها: اسمعيني أولًا.. الغرب يفتتنا كقطع الخبز الصغيرة ليسهل الهضم. يفتتنا كقطع الخبز الصغيرة.. بلا قيمة.. بلا هوية.. بلا حياة.. قطع هشة فقدت اللون والطعم لا تحتاجين إلى أسنان لتأكليها، تصلح للبلع بلا أسنان. نحن الآن لا شيء. لا شيء على الإطلاق. وعندما يكون هدف الوزير هو مصلحة لبنان فقط، والصلح بين لبنان وجيرانه، والتجارة بين لبنان وجيرانه.. ستتوغل إسرائيل في المنطقة أكثر. وأمريكا تلقي القنابل علينا بيد وتعطينا الحرية باليد الأخرى. وكأن الحرية كفيلة بأن تعيد الأطراف المبتورة من الأطفال وتوفر الطعام للأمهات وتعوض عن الدار والولد. لا نحتاج إلى الحرية. كلنا نحتاج إلى الأمان فقط. كلنا نحتاج إلى الأمان والأمان لن يـأتي بالصلح الفردي مع إسرائيل، ولوغضبت إسرائيل لدَكَّت رءوس الأصدقاء الجدد في ثوانٍ بالحديد والنار، ولا تندم، ولماذا تندم ونحن قطع هشة تتسلى عليها كل يوم؟

قالت في مرارة: إسرائيل في المنطقة ولن تزول بمقتل رجل.

- ربما لن تزول.. لكن هناك مجتمعًا مبنيًّا على العدالة ومجتمعًا مبنيًّا على القهر.

قالت في سخرية: والمجتمعات العربية مبنية على العدالة؟

- لا أدري ولكنها لا تطرد الناس من بيوتهم بتهديد السلاح كل يوم ولا..

قاطعته: ولكنك لم تعترض على أن زينة تحب يهوديًّا؟

- هو يهودي وليس إسرائيليًّا. هي مشكلة سياسية وليست دينية. اليهودية ديانة مثل المسيحية والإسلام.

قالت بلا تفكير: تعمل مع من؟ دولة أم حزب؟

توقعت أن يتحاشى سؤالها ولكنه قال في نفس هدوئه: مع أي طرف للوصول إلى هدفي. أي طرف، وكل الأطراف بدءًا من المخابرات الأمريكية، في السياسة لا توجد تحالفات للأبد.

- تكذب عليَّ بالطبع. وما هدفك؟

- أنت تعرفين.

- لا، سامحني، نسيت!

كانت جافة وساخرة، وكانت تريد أن تتقيَّأ الآن أمامه.

نظر إليها لثوانٍ ثم قال: لم أتكلم هكذا مع أي امرأة من قبل.

- نعم، بالطبع.

- إذا أردتِ العودة إلى مصر فلن أمنعك أبدًا.

قالت فجأة في حسم: لا يمكن أن تقتل هذا الرجل. لابد أن توقف الجريمة. وإلَّا فسأخبر الشرطة، لن أتردد.

توقعت أن ينفجر الآن، وكانت تشعر بغيظ طاغٍ، ولكنه لم ينفجر قال في هدوء: لم تفهمي كلمة مما قلت؟

- لا، لم أفهم.

- لو لم يمت هو سيموت الآلاف من الأبرياء. لأنه وغيره لن يتورعوا عن الكسب على حساب البشر والاتجار بجثث الأطفال. كان مجرم حرب.. تاجر سلاح.. عمل في كل شيء.

- اعذرني، لا أفهم أي شيء ولا أصدقك.

تنفس في بطء وقال بعد برهة: حسنًا.

- ستوقف القتل.

- ربما، أحاول.

نظرت إليه لثوانٍ ثم قالت: لماذا أصدقك؟

- ليس عندك خيار آخر.

- ما معنى هذا؟

- معناه أن الغبي الذي تكلّم معك الآن يعرف أنك تعرفين كل شيء. معناه أن حياتنا معًا في خطر. معناه أنك لو نطقت بكلمة واحدة ستموتين وأموت، ولا أدري من سيموت أيضًا!

قالت في فزع: تهددني؟

- لا، يا صفاء، لا أهددك، فقط أوضح الصورة أمامك.

- وما الصورة؟

- أخوك.. وأنت.. وأنا في خطر. كلمة تنطقين بها سينتهي كل شيء.

- تهددني بالطبع. ماذا كنت أتوقع؟ كان يجب أن أعرف أنك ستهددني.

قال في حسم: لا. أنت لا تعرفين شيئًا. لا تعرفين شيئًا على الإطلاق. سأوضح الأمور للمرة الأخيرة، لابد أن تنسي كل ما جرى اليوم، انسيه تمامًا، ثم عودي إلى مصر لو أردتِ، أو ابقي معي أو تعالي معي إلى لبنان كما اتفقنا.. لك الاختيار. ولكن كلمة واحدة ستودي بحياتنا جميعًا. هل تفهمين الآن؟

- وما دخل أخي؟ ما دخله؟

- في الحرب نستعمل كل الأسلحة!

- ستؤذي أخي لتنتقم مني؟ أنت ستفعل هذا؟

- لن اضطر إلى أن أفعل هذا. أتمنى ألا أضطر إلى أن أفعل هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أذهلتها السهولة التي اعترف بها زوجها. كانت تفكر بعد ذلك وتحلِّل. لماذا لم يدَّعِ أنها أساءت الفهم؟ لماذا لم يدَّعِ أنه صديق الوزير ويخاف على الوزير؟

هي لم تسمع كلمة قتل، سمعت عن عملية. أي عملية؟ ربما عملية إنقاذ للوزير!

ماذا قال للوزير؟

قال زوجها يومًا للوزير: «نحتاج إليك في لبنان ليشع السلام».

كان يسخر بالطبع. ولم تكن تعرف أن زوجها قادر على كل هذه السخرية والعبث!

لماذا لم ينكر كل شيء؟

لأنه أذكى من أن يفعل هذا.

ابتسمت لنفسها في مرارة.. بالنسبة إليه هذا موضوع حياة أو موت. لو بقيت زوجته غير متأكدة فستسأل الكثير من الأسئلة وستسأل الكثير من الأشخاص. ولكن لو عرفت زوجته حجم الجريمة ومدى خطورتها عليه وعليها وعلى الجميع فستصمت في خوف. بالطبع عبقري.

ماذا قالت عنه عزة؟

قالت:«نبيل رجل غريب. أحيانًا أعتقد أنه فقد عقله منذ زمن، وأحيانًا أعتقد أنه عبقري».

في هذا العصر لا نأخذ الحكمة من أفواه المجانين بل من أفواه العاهرات.

فالجنون أصبح سمة العصر، والعُهر هو المكمل له.

كان يحرِّكها بيديه طوال الوقت. وليته يحرِّكها هي فقط.. يحرِّك الكثير..

كان يهددها بشياكة ولياقة.. ولا يتركها وحدها إلا قليلًا. وبدأت تفكر في هدوء وتحاول استيعاب الحقيقة ولا تدري ما العواقب.

أهذا زوجها إذن؟!

بدأت ترجوه وتحاول إقناعة مرات عديدة، وبدأ يضيِّق الخناق عليها في الخروج والتليفون وكل شيء. ولم يتكلما عن موضوع السفر إلى لبنان على الإطلاق.

كانت تهمس: قلت لي إنك تريد وحدة عربية، فلماذا تقتل رجلًا عربيًّا؟. قلت لي إنك تكره موت العرب، والآن تقتل عربيًّا كيف؟ لا أفهم.

وكانت إجاباته هلامية، ومعظمها كاذبة، كان يقول أحيانًا: لن يموت، وأحيانًا أخرى يقول: سيموت، وأحيانًا يقول: إن الخائن لابد أن يموت، ولم يزل رقيقًا معها، مع أنه لم يحاول أن يمارس الحب معها على الإطلاق، ولم ينم معها في نفس الحجرة..

خمسة أيام مرت. وهي لا تدري كيف تتصرف.

تخبر أخاها بالطبع. سينقذها ويتصرف.

وماذا لو قتل أخاها وزوجته، وقتلها هي أيضًا؟

مع من يعمل زوجها؟ فرد؟ حزب؟ دولة؟ لا تدري. لكنها لن تستطيع التصرف هكذا. لابد أن تفكر في إقناعه بأي طريقة.. لكل رجل طريقة ومدخل.. لابد أن تحاول إقناعه.

لا تتصور نفسها تعرف موعد موت رجل ولا تفعل أي شيء.

خمسة أيام.. تفكر.. لا تبكي.. وجهها كالنار.. ساخن.. منتفخ. لا تأكل كثيرًا.. فقط تفكر.

دخل عليها في هدوء وابتسم، وقال: صفاء.. هل سترحلين معي إلى لبنان كما اتفقنا؟

قالت في مرارة: لتقتلني هناك؟

تجاهل كلماتها، وأكمل: لقد خيَّرتك، يمكنك الرحيل إلى مصر إذا أردت.

قالت مرة أخرى: عندما أذهب إلى لبنان ستحبسني وتقتلني؟

قال في ثبات: أريدك أن تتعرفي على عائلتي لا أكثر.

- وعائلة هذا الرجل هل فكرت فيها؟

قال في جدية: نعم فكرت فيها كثيرًا. أنا زوجك. أنت تعرفينني.

هزَّت رأسها في عصبية: لم أعرفك يومًا قط.

- ولم تحبيني يومًا.

لم تجب.

عضَّت على شفتيها، وقالت في قوة: لابد أن هناك طريقة لوقف الجريمة. وبعد ذلك نحيا معًا في مصر، في أي بلد.. في لبنان لو أردت. لا أريد شيئًا.. أي شيء.

قال في سخرية: لا كارت فيزا.. لا خادمة ماليزية؟

قالت في إصرار: لا شيء. لا أريد أي شيء. فقط أريد أن أحيا معك في سلام لا أكثر. أنا أعرض عليك من جديد أن توقف الجريمة، وسوف نرحل معًا ونحيا بعيدًا.

رفع كتفيه وقال: لا أستطيع. ولكنني أريد أن أعيش معك في سلام. فلنبدأ في العيش في سلام.

صاحت في عصبية: تريدني أن أعيش في سلام ورجل على وشك الموت وأنا أعرف. كيف؟ أي سلام هذا؟

قال في صرامة: حسنًا. هل يمكن أن تسمعيني؟

- تكلَّمْ.

قال في لهجة رجل أعمال يضع شروطه على الطاولة: ستأتين معي إلى لبنان. لن أتركك لحظة حتى تنتهي العملية. وعندما تنتهي يمكنك الرحيل.

ابتسمت في جفاء: تحبسني وتهدِّدني.

- لم أهدِّدك بعد.

قالت في يأس: لماذا تزوجتني؟

بدا وكأنه يفكر مليًّا ثم قال: لكل جواد كبوة!

- حسنًا. مادمتُ أنا غلطة في حياتك فلابد أن أرحل. أريد العودة إلى مصر غدًا.

قال في إصرار: لا عودة إلى مصر الآن.

- تحبسني إذن. حتى إذا وعدتك بألا أنطق. لماذا تراوغني؟ قلت إنه يمكنني العودة إلى مصر.

- لا، حتى لو وعدتِني.

- لن أذهب إلى لبنان معك، ولا أخاف منك.

- بل لابد أن تخافي مني جدًّا. لأنني أستطيع أن أنهي كل شيء في لحظات، ولا أضيع وقتي في الكلام معك والمناورات والتجريح.

- كيف؟

- ستأتين معي.. سنسافر بعد يومين. أي كلمة.. يكون أخوك في قبره أمام عينيك. لن أقتلك أنت.. عليك الاختيار بين موت أخيك وموت رجل خائن لا تعرفينه.

قالت مسرعة: لا أصدِّقك.

- بل صدِّقيني.. لا زيف ولا تجميل. لدي هدف أريد الوصول إليه.

- ما هو؟

- العدالة. ومن أجل هذا الهدف سأضحي بأيِّ شيء. أيِّ شيء. لقد سمعتِ بأذنيكِ، أليس كذلك؟ إذا قتلتُ رجلًا يمكنني أن أقتل الآخر. هنا في أمريكا بكل سهولة.

- وأنا.. ماذا أعني بالنسبة إليك؟

تنفس الصعداء وقال: نبحث هذا في وقت آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست تنتظر قدوم زينة لتودعها قبل الذهاب إلى لبنان وهي لم تزل تفكر.. كان يدَّعي أنه صديق الوزير.. كان يصطحب الوزيرِ في كل مكان.. كان يتصنَّع

الخوف على حياة الوزير، لماذا؟ أهو صديقه حقًّا ولكن اختلف معه في السياسة والآراء؟ أهو صديقه حقًّا وسيتألم من موته، وربما يشعر بأن من واجبه أن يقتله لسبب أسمى من الصداقة؟ أم أنه كان يمثِّل ويرتدي قناعًا طوال الوقت ليكون قريبًا من الوزير ويعرف عنه كل شيء؟ أكان يلعب دورًا ليقترب منه ويسهل قتله؟ تمنت لو تعرف حقيقة دور زوجها بالضبط. أهو صديق خائن أم عدو ماكر يستعمل كل الأسلحة. وكانت تعرف أن الإجابة مستحيلة. وتصوَّرت مصير الشاب الطائش الذي لفظ الحقيقة من فمه أمامها في ثوان وفي سهولة تامة. لابد أن مصيره مظلم. من يدري؟ لابد أنه قتل. وربما لا. ربما سيستعملونه في شيء آخر. من؟ من هم؟ مع من يعمل زوجها؟ وهل تريد أن تعرف؟ هل تريد أن تسأل؟ لابد أن الإجابات ليست دائمًا آمنة.. مثلها مثل الأحلام. لا الأحلام آمنة ولا الإجابات آمنة في عالمها.

ولكن إذا كان زوجها يريد محاربة إسرائيل فلماذا يقتل رجلًا عربيًّا مثله تمامًا؟ وما تعريف الخيانة؟ وهل كل من أراد المحافظة على دم الأبرياء خائن؟ هل أصبح الموت هو الحل البديهي لكل المشاكل؟ وهل قَدَرُ الحرب أن تستمر للأبد حتى تقضي على كل الرجال؟ أيريد زوجها السلطة والقوة أم الأمان؟ أم أنه مقتنع بأن الأمان يأتي مع السلطة والقوة؟

أشياء كثيرة لا تفهمها

قال إن أخاه مات بالقنابل الإسرائيلية وهو نائم على سريره! أهذا هو السبب إذن؟ وكانت تعرف أن زوجها طموحه أكبر وأسبابه أكبر، وأن حادثة أخيه هي شرارة البدء في الاعتقاد القوي بأن الأمة هي الأصل وهي البقاء بعينه، وأن تشويه الملامح الذي قام به المحتلون على مرِّ العصور لابد سيشفى يومًا. ولم تكن تفهم هوسه بالأمة، ولم تكن تشعر بأي مشاعر قوية من ناحية الأمة، أي مشاعر على الإطلاق.

وكيف يعمل زوجها مع أمريكا والحكومة الأمريكية أيضًا؟ وكيف يعيش في أمريكا أصلًا؟ أهو عميل مزدوج؟ أم أنَّ في السياسة يصعب بل يستحيل معرفة الحقيقة!

نعم. ربما لن تعرف الحقيقة أبدًا. وربما زوجها يخدع أمريكا نفسها. من يدري؟ هو أخطر بكثير مما كانت تتوقع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظهر على زينة الكثير من الحزن. وظهر على صفاء الشرود. وجلستا معًا في حجرة الجلوس في بيت صفاء صامتتين. صفاء كانت تفكر في مصيبتها، ويبدو أن زينة أيضًا كانت تفكر في نفس الشيء.

بدأت زينة الكلام قائلة: لا يوجد أمل يا صفاء. تأكدتُ من هذا. أنت لا تعرفين شيئًا.

هزَّت صفاء رأسها بالإيجاب. وهي لا تستطيع التركيز مع أي شخص.

قالت زينة في براءة وهي لا تعرف شيئًا عن فكرة الحسد منذ هاجر أبواها إلى أمريكا.

- يابختك يا صفاء. أنت كتير محظوظة.

- آه كتير!

- صفاء. ضاع مستقبلي. حب خمس سنوات. لا أستطيع أن أعيش بدون توم. أبي! أنت لا تتصوَّرين ماذا فعل! ثار إلى أبعد حد.. كان على وشك أن يبكي أمامي، وطلب مني العودة إلى الأردن فورًا. أعتقد أنه لو كان يستطيع كان سيجرُّني إلى الأردن رغمًا عني! وأمي تبكي طوال الوقت، وترجوني أن أنسى هذا الموضوع. أمَّا والدا توم فأسوأ بكثير. أنت تعرفين أنهما متحفِّظان ومتديِّنان جدًّا، ويقولان إنني خرجت في مظاهرة من أجل الفلسطينيين! كيف عرفوا هذا؟ من الإنترنت بالطبع! تصوري.. يكرهانني ويخافان مني من أجل هذا، ومن أجل أني أردنية ، ولكنه هو مختلف.. هو مستعد لأن يتزوجني في الكنيسة! وهو تحت ضغط شديد من عائلته، لا أعرف كيف سيتصرف، وأخاف أن يتركني، أو أن أضطر إلى أن أتركه! ماذا أفعل يا صفاء؟

قالت صفاء وهي لا تنظر إليها: اتركيه!

أزاحت دمعة وقالت: ولكنني أحبه.

قالت صفاء في تصميم: اتركيه.

- ماذا بك يا صفاء؟

ابتسمت في أسى: لا شيء. أفتقد مصر لا أكثر.

خرجت زينة والجو مفعم بالكآبة وصفاء تجهز حقيبتها للسفر، وعليها الخروج غدًا مع زوجة أخيها لشراء هدايا لعائلة نبيل.. حتى يبدو كل شيء طبيعيًّا! لابد أن يبدو كل شيء طبيعيًّا وألَّا تنطق باسم الوزير شهاب الدين وإلَّا فسيعرف زوجها، وإذا عرف.. لن تفكر حتى في هذا الاحتمال.

خرجت إلى السوق التجاريَّة التي كانت تتمنى أن تشتري منها الكثير من الأشياء من قبل ولم يكن عندها المال الكافي. وكان الكارت السحري في يدها عديم القيمة الآن. كان الكارت السحري في يدها كورقة اليانصيب غير

الرابحة. تبقيه في جيبها لأنها كَسْلَى، ولا تريد أن تلقي به في سلة المهملات، ولكنه ورقة رخيصة لا أكثر.

كانت أمل تتكلم طوال الوقت وفي حماس، وكانت عيناها مليئتين بالحسد، وكانت تمصمص شفتيها وتهمس لنفسها: يِدِّي الحلق للي بلا ودان! متجوزها على إيه؟

- صفاء.. لم تشتري أيَّ شيء لنفسك.

قالت وعقلها شارد كعادتها: كل شيء هناك.

- بس دي أمريكا.. مش حتشتري لبس ولا حاجة؟

هزَّت رأسها بالنفي. لم يتبق لها سوى ساعات للرحيل، وزوجها قد سمح لها بالخروج بعد عناء، وهي متأكدة من أنه يراقبها بطريقة ما. فقد اكتشفت أنه أخطر بكثير مما كانت تتوقع ومما كانت تعرف.

قالت أمل وكانت فرصتها لإعطاء النصيحة وإلقاء الكلمات القوية كعادتها: كل هذا الحزن لأنك ستزورين أهل زوجك؟ بصراحة يا صفاء إنت مفكيش خير.. ده الراجل ما شاء الله مش مخليكي عايزة حاجة. خليكي أصيلة بقى واستحملي شوية! أمَّال أنا بزوركم إزاي وأقعد عندكم بالأسابيع!

زفرت في غيظ ولم تجب.

فأكملت أمل وهذه فرصتها قد حانت للانتقام الرهيب من صفاء وعجرفتها: إنت بخيلة كده ليه؟ شوفي إحنا لما بنيجي نزوركم في مصر بنجيب إيه معانا! والله أنا بابتدي أحوِّش من أول السنة وأحرم الولاد من الآيس كريم عامًا كاملًا علشان أشتري هدايا لك إنت وطنط وأنكل. وأنت..

لم تجب صفاء، فقالت أمل في حماس: وكمان في حاجة عايزة أقولها لك بصراحة!

نظرت إليها صفاء بعينين باردتين، فأكملت أمل: زوجك.. عنده مساعد سوري وآخر أمريكي وهما سيصبحان مسئولين عن الشركة في غيابه، وليس هذا شيئًا منطقيًّا. فأحمد يعمل معه منذ ثلاث سنوات، ويقطع نفسه من أجل الشركة، والله يفكر في الشركة حتى وهو نائم، ويعمل ليلًا ونهارًا، وهو سيكون خال أولاده، وهو أخو زوجته يعني أولى. لماذا لا يجعله زوجك مساعدًا أيضًا؟ أنا لا أريد أن يفصل مساعديه، ولكن يضيف لهما أحمد. فأحمد مخلص ومهندس ويخاف على الشركة كما قلت. ما رأيك هل يمكنك أن تفاتحي زوجك في هذا؟

قالت في قوة: لا.

قالت أمل في ضيق: أخوك! لا تخدمين أخاك! لولا أخوك لما كنت في هذه الأملة كلها! لولا أخوك لكنت ستبقين في الإبراهيمية ولا كنت حتشوفي أمريكا ولا كندا ولا كل البلاد اللي بتشوفيها! صح؟

ثم قالت أمل وكأن الفكرة قد طرأت لها للتو: صفاء، إيه رأيك تاخدي معاكي شوية هدايا فرعونية؟ يعني قلم توت عنخ آمون، تمثال للأهرام، طفاية عليها نفرتيتي؟ شمعدان عليه حورس؟ لسه عندك هدايا؟

انكمشت صفاء بعض الشيء ولم تجب.

فأكملت أمل في حماس: ولكن إياك أن تقتلي أحدًا في لبنان بهدية كما فعلتِ في أمريكا!

لم تشاركها صفاء الضحك على النكتة السخيفة!

شعرت برغبة كبيرة في الانفجار في زوجة أخيها ولم تفعل. أنهت المقابلة بأسرع ما يمكن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تنتظر أخاها وزوجته في قلق، تتمنى أن تراه قبل الرحيل، ولا تدري هل ستراه من جديد.. لم تعد تعرف ماذا تتوقع من زوجها. هل سيقتلها هناك؟ ربما يقتلها هناك.

ترقرقت الدموع في عينيها وهي تنظر لأخيها وزوجته..

نظر إليها أخوها في شيء من الفزع ثم قال: ماذا جرى يا صفاء؟

قالت وهي تنظر تجاه زوجها الذي يشاهدها من بعيد: لا شيء. سأفتقدك فقط.

ألقت بنفسها بين ذراعيه وانفجرت في البكاء وهي تقول: خلي بالك من نفسك.

قال في اهتمام وقلق: ماذا جرى؟ ما بك؟ هل تشاجرت مع نبيل؟ ألا تريدين الذهاب إلى لبنان؟

قالت وهي تمسح دموعها في عصبية: لا، ولكنني أفتقد أمي.. وسأفتقدك.

- لن تبقي سوى أسبوعين. ماذا بك يا صفاء؟ ماذا فعل؟

قالت وهي تتركه وتمسح الدموع من جديد: لا شيء. حقًّا لا شيء.

اقترب زوجها.. شعرت بتوتر رهيب. نظر إليها، تفحَّصها.. ربت أحمد على كتفه: خلي بالك من صفاء. لا أدري ما بها.

ابتسم نبيل في فتور: لا تقلق عليها. خلي بالك أنت من الشركة.

أمسك بيدها، سارت معه وكأنها تحت تأثير تنويم مغناطيسي. سارت بلا كلمة.

أدارت وجهها عنه في الطائرة وهي تحاول أن تتناسى وجوده تمامًا.

أغمضت عينيها حتى لا يحاول الكلام معها. ولم يحاول الكلام معها.

وعقلها يعمل بلا توقف. تهرب؟ تخبر السلطات هناك؟

ثم طرأت لها الفكرة كسرعة البرق.

يريدها أن تقابل عائلته.

أمه.

تخبر أمه. هذا هو الحل الأمثل.

أمه لن تبلغ البوليس عنه. وأمه هي الوحيدة التي تستطيع إقناعه. هي الوحيدة.

شعرت بشيء من الارتياح. ستخبرها.. وستقنعه.. ثم سترحل هي، ولا تريد أن تراه مرة أخرى أبدًا.

فهمت الآن من جديد لماذا لا يريد الأولاد. بالطبع لا يريد الأولاد. حياته مهددة وحياة من حوله. كيف ينجب الأولاد؟ الأولاد عبء على كتفيه ونقطة ضعف يمكن استغلالها.

على الأقل هي ليست حاملًا.

لابد أن تشكره لأنه لم ينصع لرغبتها في الإنجاب. الآن، ستشكره الآن.

فتحت عينيها.

كان ممدَّدًا على المقعد ينظر إلى لا شيء، قالت في مرارة: لابد أن أشكرك لأنك لم تكن تريد الإنجاب.

قال وهو لم يزل ينظر إلى لا شيء: ليس بعد.. ليس والعرب يتقاتلون. يومًا ما ربما.

قالت في سخرية: عندما يعم السلام المنطقة؟ لن يكون يومًا قريبًا.

- ولن أنجب قريبًا.

قالت في شيء من الغيظ: أحقًّا لا تشعر بأي شيء من ناحيتي.. لا..

أمسك بيدها في حزم وقال: لن نتكلم الآن.

أدارت وجهها عنه وهي تود لو يبتعد عنها.. لا تطيقه أبدًا.

بدأت تفكر في خطتها الجديدة.. ستخبر أمه وسوف تقنعه.

وعندما تخبر أمه.. ألن يغضب؟ ربما يغضب؟ ربما يضربها؟ ربما يقتلها؟

لن تفكر في هذا الآن.

الحل موجود.. يوم خمسة وعشرين.. اليوم عشرة.. لم يزل هناك أسبوعان. ستتصرف في أسبوعين. ستتصرف. الوقت مازال معها.

وعندما توقف الجريمة.. سترحل من حياته إلى الأبد. ربما تصفعه صفعة قوية، ثم ترحل من حياته إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الثاني
مملكة الحيرة

الفصل السادس

كان يمسك بيدها وهما في مطار بيروت. لم يترك يدها.. وكأنها ستهرب منه، ستختفي بين الناس.

في الماضي كانت يده تعطيها الأمان، والآن تأسرها وتسجنها.

نظرت حولها إلى شوارع بيروت.. للتناقض في الملابس، جيبات قصيرة وخمار على الوجه.. بلوزات لا تخفي سوى الأماكن الآمنة، وتظهر الأماكن الحساسة، وغطاء رأس يخفي كل شيء.

محلات بائعين.. حياة لا تنتهي.

كان قد استأجر سيارة، وهي تجلس إلى جانبه دون كلمة وهو يقود السيارة.

قالت بعد نصف ساعة: أين سنذهب؟

طرأ لها فجأة أنه ربما لن يأخذها لأمه. ربما يريد فقط قتلها في مكان آمن. أو خطفها. من يدري؟

لم تنظر إليه.

أطلت برأسها من نافذة السيارة ولم يجب عن سؤالها.

تمتمت لنفسها بصوت مبحوح: بالطبع قتلي يحل كل المشاكل.

قال في قوة: نعم كل المشاكل.

قالت في لامبالاة: هل طلبوا منك قتلي أيضًا؟

أجاب دون تردد: بالطبع.

نظرت إليه في فزع، فأكمل في نفس هدوئه: قلت لهم إنني لا أستطيع قتلك.

- لأنني لم أفعل شيئًا.

- لأنك زوجتي.

- وزوجتك تعرف الكثير.

- وزوجتي لن تتكلم. إذا لم أستطع السيطرة على زوجتي فربما لا بد من قتلي أنا.

قالت مسرعة: هل حقًّا طلبوا منك هذا؟ ألهذا جئت بي هنا؟

قال في حسم: صفاء.. جئت بك هنا لتقابلي أمي. والإجابة عن السؤال الأول هي نعم. بالطبع لو تكلمت ستقضين على الكثير.

- وتظن أنك بإمكانك أن تسكتني؟

قال في يقين: لا أظن. أعرف أنه بإمكاني أن أسكتك.

قبضت يدها في ألم ولم تنطق.

خطتها لابد ستنجح.

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

لا بد أن في كل بلد صعيد خصب.. بطين ولّاد وأشجار مسيطرة.

وجنوب لبنان.. حيث أخذها كان خصبًا.. جميلًا.. ربما كانت ستحبه لو جاءت في وقت مختلف وليس تحت تهديد بالقتل.

وبيت أمه بالساحة العريضة كان يبدو كبيوت الصعيد التي تراها فقط في التليفزيون. لونه أبيض.. مبني بحجر جيري كبير، ومحاط بالأشجار والخضرة من كل جانب. وكانت تعرف أن هذا هو نفس البيت الذي فقدت فيه الأم ابنها وزوجها من قبل. لم تكن الأم تريد أن تتحرك من البيت، ونبيل قد جدَّد البيت، وبنى حجرات إضافية، وبقيت حجرة أخيه مهدومة في نهاية البيت كما كانت منذ سنين.. الكثير من السنين. ولم تحاول صفاء الاقتراب منها. ولم يحاول أحد الاقتراب منها. وكأنها شيطان يسكن باحة الدار، لا أحد يقوى على طرده، ولا أحد يقوى على إطاعته.

ساحة الدار الفسيحة كان بها نافذة زجاجية بقضبان حديدية، وكانت النوافذ بالقضبان الحديدية في كل حجرة في الدار. والأشجار تخدش أطراف النوافذ ولا تغطيها.

وصور الأموات كانت معلَّقة على الحوائط ، الأخ والأب.. أما صور الأحياء فلم تهتم بها الأم كثيرًا.

وأمه كانت بيضاء.. ترتدي حجابًا أصفر.. وعباءة رمادية. بدت مثل أي سيدة مصرية في السبعين ربما.

احتضنتها ورحبت بها.

وكان لديها شعور غريب بأنها تعرف المكان جيِّدًا ولا تعرف المكان.. بأن هؤلاء مثلها تمامًا وليسوا مثلها. وكأنها حقًّا ذهبت إلى أعمامها في الصعيد لأول مرَّة.

جبل عامل.. هكذا يطلقون عليه.

لهجة غريبة بعض الشيء ولكنها تفهمها تمامًا. ولأول مرة تراه يتكلم باللبنانية.. ويبتسم.. ولأول مرة.. تراه.

من هو زوجها؟

جلس إلى جانب أمه.. ربتت على كتفه.. بدأت تجهِّز الطعام.. دخلت أخته وأطفالها وزوجها..

كانت صفاء تشاهدهم من بعيد.. هي منهم وليست منهم.

جغرافيًّا مختلفة.. جبال.. وأودية.. سهول وحروب.. لهجة مختلفة.. الكثير من المدنية والحضارة، والكثير من التوحش البري والعنف الغريزي.

وشعرت بأنهم كلهم يتكلمون في بطء ووضوح وصوت منخفض، ولا يصيحون ولا يتكلمون بسرعة، ولا يضحكون كالمصريين.

شعرت بأنهم جميعًا لا يلهثون وراء الحياة كالمصريين. لم يكن هناك زحام، كانت قرية صغيرة. وكانت أمه تقضي وقتها في مشاهدة القنوات الفضائية والنظر من النافذة في صمت.

ولم تفهم كيف لهذا الشعب أن يقاتل بعضه بعضًا سنين!

لم تفهم إلا عندما دخلت حجرة زوجها ووجدت البندقية معلقة على الباب، وكأن هذا هو مكانها الطبيعي.

ووسط الجبال.. لا بد من السلاح.

ووسط الثلج تكمن النار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظرت إلى الحجرة التي ستنام فيها. سرير واحد. وقعت عيناها على السرير في فزع.

كان وراءها كالعادة لا تشعر به ولا تراه وهو يتلصص من جديد، ويضرب ضربته في حرفية وصمت.

قال فجأة: لا تقلقي. سأنام في حجرة مختلفة.

تنفست في ارتياح.

التقت أعينهما فقال في فتور: لابد ألَّا تنامي في نفس الحجرة مع مجرم قاتل بالطبع.

لم تجب. كان الغضب والذهول مما يفعله زوجها يطغيان عليها.

تركها وأغلق الباب.

تمدَّدت على السرير.

متى تبدأ خطتها؟

ليس اليوم.

غدًا ربما.

غدًا صباحًا عندما يخرج نبيل.. ستبدأ خطتها.

ولم يكن النوم سهلًا. بدأت تفكر في يوم موت أخيه الأكبر، وتتصور منظر الأخ، وتسمع في أذنيها دوي القنابل. أخذت تتقلب من جنب إلى جنب، وتحاول أن تفكر في أي شيء آخر. ولكن فكرة موت رجل نائم في هذا البيت في حجرة مجاورة لم تتركها. ولم تكن تعرف بالضبط أتخاف من الأشباح أم من زحف الموت في المكان أم من جريمة ستُرتكب قريبًا. وكان لديها اعتقاد مصري بأن مَلَكَ الموت يحب أماكن بعينها ولا يتركها. ولم تتأكد ما إذا كانت تخاف على نفسها أم من حولها أم الوزير الذي لا تعرفه. وصورة أخيه المعلقة في الصالة الفسيحة لا تترك مخيلتها. ما إن تغمض عينيها حتى تراها بوضوح. نصف ابتسامة، وجه شاب هادئ، وعينان سوداوان لا تتحرَّكان. تُرى ماذا تبقى منه عندما وجدوه. أشلاء؟

أشلاء من ماذا؟ من ذراعه؟ من ساقه؟ من جمجمته؟ هل انصهرت عيناه تمامًا؟ هل بقى شيء من فمه. أكانت أشلاء معروفة أم أشلاء لا تُعرف ككل شيء حولها؟ وماذا فعلوا بالأشلاء؟ أكانوا يبحثون فيها عن شيء معين أم لا. هل بحثوا عن خاتم في يده؟ نظرة في عينيه؟ عشق في قلبه؟ ماذا وجدوا؟

لا بد أن مَلَكَ الموت لم يترك المكان.. فلا هم غيروا معالم الحجرة ولا هم لملموا كل الأشلاء.

بدأت تستدعي كل الأموات وتجارب الموت التي تعرفها. لم تر جدَّيْها ولكنها رأت جدتها أم أمها. وتتذكر يوم موتها. كان عمرها خمسة عشر عامًا، وسمعت أن جدتها مريضة جدًّا، ورأت التوتر والحزن على وجه أمها، وكانت الأم تعرف أن النهاية قريبة. زاروها جميعًا وهي على فراش الموت. لم تكن تعرف الجدة أيًّا منهم ولم تخاطبهم، وكانت منكمشة ومغمضة العينين وجسدها بارد وأزرق، وينسكب منه الزمن والإرهاق، وكان كل من حولها يبكي في صمت. ماتت على سريرها في الليلة نفسها في هدوء، وكانت «كتلة واحدة» ولم تُفتت ولا تُشتت.

وسمعت عن موت ابن خال أمها في حادث على الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية، وتأثرت بالطبع، وقالت أمها في أسى إن جثته كانت مشوَّهة إلى حد كبير، ولكنها لم تتخيله قِطَعًا متناثرة في الهواء ولا قِطَعًا يصعب التعرف عليها.

لم تسمع عن أحد مات من قذف إسرائيلي في مصر بالطبع، ولم تولد وإسرائيل تحارب مصر، وكل معلوماتها عن حرب ثلاث وسبعين من كتب التاريخ والأفلام. لم تستطع أن تستنشق رائحة موت الحروب من قبل. ربما تراه في التليفزيون، ولكنها لم تلمس وتشم رائحة الدماء كما تفعل الآن وهي في هذا البيت في لبنان.

شتان بين الموت في حادث، والموت على سرير وسط الأبناء، والموت على سرير وسط القذائف وقطع الزجاج المجهولة الهُويَّة وقطع العروق الجافة من الانصهار، والأظافر المبعثرة في الهواء.

ترى بماذا شعر الأخ لحظة موته؟ وماذا رأى؟ وبماذا كان يفكر؟ هل تذكر لحظة طفولة جميلة؟ حضن أمه؟ وقوعه من على شجرة عالية؟ هل تَذَكَّر توبيخ مُدرِّسه في المدرسة ووقوفه ينتظر أتوبيسًا لساعات؟ هل تألم؟ احترق كما في جهنم؟ هل مات بعد الحرقة الأولى مباشرةً؟ هل كانت الحرقة الأولى في القلب؟ أم في العقل؟ أم في معصمه القوي؟

ألم يقل زوجها يومًا إن الحياة تكمن في المعصم؟ ماذا كان يقصد؟ وهل المعصم هو السيطرة والقوة والإرادة؟ أهذا ما يريده زوجها؟ أن يسيطر على كل شيء؟ يريد القوة؟

لن تفكر فيه الآن، ولا تريد أن تفكر فيه، وتتمنى انقضاء هذه الليلة وهذا العمر!

بدأت تقرأ آيات قرآنية لتساعدها على النوم، وأغمضت عينيها وهي تتمتم: من المؤكد أنَّ هناك مخرجًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت حماتها تغسل الصحون في المطبخ.. وتتكلم مع ابنتها عن الأطفال والمدارس.. نظرت إليها من بعيد والجو يقلقها.. نَسِيَتْ أين هي.. وأي بلد هذا.. شعرت لثوان بحماتها من كليوباترا.. وكأن هذه الأخت أمل.. حيرة طغت عليها.

دخلت عليهما في تردد وخجل وهي تسألهما ما إذا كانتا تحتاجان إلى المساعدة.

ابتسمت لها أخته في فتور، وقالت أمه مسرعة: لا يا ابنتي. تعالي لتفطري معنا.

كانت تتمنى ذهاب أخته لتخبر أمه بأسرع وقت. تتمنى ذهابها الآن.

ولكن أخته كانت جالسة على طاولة الطعام حتى الساعة الرابعة مساءً.

وصفاء حاولت البقاء وحدها معظم الوقت، ثم قررت الجلوس معهما حتى ترحل أخته.

بلعت ريقها في ارتباك وقالت: متى سيأتي نبيل؟

قالت أخته مسرعة: إيه حبيبتي؟ هل تشاجرتما؟ لم ينم في حجرتكما أمس؟ لا تؤاخذيني، أنا ونبيل كنا صديقين جدًّا. يبدو متوترًا بعض الشيء.

قالت في قوة: لا توجد مشكلة. فقط.. أحب النوم وحدي.

ابتسمت أخته وقالت: نعم. لا بأس. هل أنت سعيدة معه؟ إذا كنت تريدين شراء أيِّ شيء يمكنني أن أذهب معك إلى السوق.

- نعم. بالطبع. شكرًا.

- لبنان مختلفة عن مصر؟

- لا يوجد جبال في مصر. ومصر مزدحمة أكثر بكثير و..

كانت تبحث عن كلمات تقولها لأخته ولم تجد.

قالت أخته وهي تبتسم في مكر: متى تنوين الإنجاب؟

كل الأسئلة المحرجة! وكأن القدر ينتقم منها لما فعلته في أمل ألف مرَّة!

قالت وهي تحاول الابتسام: قريبًا.

قامت أخته أخيرًا لترحل. قبَّلت صفاء ثلاث قبلات وليس اثنتين كما يفعل المصريون، وعانقتها ورحلت.

نظرت صفاء حولها.

جاءت فرصتها. الآن. بسرعة قبل أن يعود. الآن.

اقتربت من أمه وهي جالسة على الأريكة تنظر إلى النافذة.. يدها على خدها.. التجاعيد زحفت لكل مكان.. يدها ترتجف بعض الشيء. بدت هشة وضعيفة، وبدت كمن يعيش على زبد الحياة، لا تشعر بالكثير ولا تهتم بالكثير. لابد أن حياتها كانت قاسية جدًّا.

همست في شيء من تأنيب الضمير: كيف حالك يا طنط؟

ربتت على كتفها بيد مرتجفة وقالت: قولي يا خالة. أنا سعيدة بك وبأنه تزوج من عربية مسلمة. عندما تزوج من أمريكية بكيت.. كتير بكيت. وكان يعرف. لم تزرنا قط، لم يأت بها إلى هنا. لم يكن يحبها. تزوَّجها من أجل الإقامة بالطبع. ولكنه يحبك، أنت من دمه ودينه ووطنه.

هزَّت صفاء رأسها بالإيجاب في أسى، وبدأت من جديد: لابد أن تزورينا في أمريكا.

- يا ابنتي. العمر ولَّى. أموت هنا في أرضي ووسط عائلتي. أبقى بجانب الأموات والأحياء.

احترق حلق صفاء بدموع لا تتساقط.

مهمتها صعبة. والألم ترك السيدة بيد مرتجفة وقلب بريء. ولكن لابد أن توقف ابنها. هذا لمصلحته هو.

قالت صفاء في مرارة من جديد: أريد أن أتكلم معك عن شيء. يخصُّ نبيل.

قالت الأم وهي لم تزل تنظر إلى النافذة وكأنها تنتظر قدوم كلِّ من ضاع: نعم.. تكلمي يا ابنتي.

قالت في تردد: أنا.. أخاف عليه.. الوضع في لبنان. أنا لا أفهم ما المشكلة في لبنان بالضبط، ولكن نبيل يشعر بأنه عربي وعليه مسئولية تجاه العرب، وخاصَّةً تجاه لبنان، ولذا..

صمتت لثوان.. ثم همَّت بأن تكمل.. ولكنَّ عينيها وقعتا فجأة على زوجها يقف.. يسند ذراعه على الباب. كالعادة لم تشعر بقدومه، كالعادة يتلصَّص في هدوء كالجواسيس.

كاد قلبها يتوقف.

ماذا سيفعل بها؟ هل عرف؟

ابتسم في جفاء وقال: كيف يمكنني توقع كلِّ أفكارك؟ لا أدري! ولكن يبدو أنني أستطيع أن أعرف بما تفكرين فيه.. ماذا ستفعلين.. رَدُّ فعلك يا زوجتي.. ليس به أي تجديد.

قالت في فزع: لا أفهم ما تقصده.

كانت أمه تنظر لكل منهما في حيرة.

قال في حزم: انتظريني في الحجرة.

صاحت في عصبية وهي تخافه إلى أقصى حد، ولا تريد أن تترك أمه الآن.. صاحت وهي تقترب من أمه: لا يمكنك أن تتعامل معي كأنني أعمل عندك. نبيل..

قال في هدوء وصرامة: ادخلي الحجرة الآن.

التقت أعينهما.

ما رأته في عينيه أخافها. أرعبها.

قامت في خطى متثاقلة وهي لا تدري هل ستعيش حتى الصباح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن متأكدة من رَدِّ فعله. ربما يقتلها. وكانت تتصرف بيأس امرأة محاطة بالقطارات من كل اتجاه وسوف تدهس على كل حال.. كانت تتصرف بيأس امرأة تغمض عينيها عن الموت الذي يحاصرها والدمار الذي سينهال على حياتها.. لابد سينهال.

جلست على السرير في الحجرة الصغيرة، ونظرت إلى البندقية المُعلَّقة على الحائط بجانب المعطف السميك والروب الصوف الذي تستعمله والدته في الشتاء القارس.

هل سيقتلها الآن إذن؟

ولم لا؟

فالقتل عنده حلٌّ لكل المشاكل. نهاية حتمية لكل الوجود. شيء بسيط وعادي. لا يختلف موت الإنسان عنده عن موت الأزهار في الشتاء أو موت الأرض المحاطة بالثلوج.

لا يختلف أبدًا.

غريب أنه لم يقتلها بعد.

كان لابد أن يقتلها في لحظة انكشاف السر. والتعرف على الامة. كان لابد أن يقتلها في لحظة، فتحت عينيها في فزع على غبائها وعشقها وخوفها ومستقبلها الضائع.

طأطأت رأسها وهي تتوقع دخوله عليها في لحظات وهجومًا يودي بالحياة.

كانت تعرفه أكثر الآن، وتعرف العنف الذي يقطن بداخله والغضب واليأس والمكر. كل شيء.

وضعت يدها على جبهتها وكأنها تحاول أن تستبقي ذكريات عذبة للحظات حب بينهما وضحك ولمسات حانية رقيقة وكلام لساعات وشوق لا ينتهي.

شعرت بالباب يفتح. انتفضت من مكانها.

علت دقات قلبها. قالت وهي تنظر إلى عينيه: لا تفعل هذا يا نبيل.

ثبت عينيه على عينيها كالذئب على الفريسة. تحرَّك في بطء.

جلس أمامها على السرير، ثم قال في هدوء لم تتوقعه: والدتي.. فقدت كل شيء في حرب لا يدَ لها فيها، فقدت الولد والزوج.

ثم أشار إلى قلبه وأكمل وهدوؤه يخيفها: هنا.. مكان قلبها يوجد هُوَّة تحيا بها بقية عمرها ليس لها علاج. بئر عميقة ومخيفة. كنت أشعر بها وأنا طفل. وكانت تخيفني خوفًا رهيبًا. كنت أشعر بأنها تبتعد طوال الوقت.. تتلاشى من أمامي وهي معي. لم تكن معي قط. كانت بعيدة وميتة وعيناها زائغتان. كانت معهم هم. وكنت أحيانًا أظن أنها ماتت منذ زمن وشبحها يحيا معي. وربما تمنيت أن يرحل الشبح، فوجوده يؤلمني ولا يدفئني.

هزَّت رأسها بالإيجاب وقالت وهي تبلع ريقها: أنا أخاف عليك. أحبك وأخاف عليك. أرجوك، لا تفعل هذا.

أدار وجهه عنها.

ساد الصمت لحظات وهي لا تدري ماذا تتوقع. كان هادئًا إلى حد مرعب.

قام في خطى ثابتة، وأمسك بالبندقية، وشعرت بأنها النهاية. سيقتلها الآن.. أخرج رصاصتين من جيب بنطلونه، ووضعهما في البندقية وهي تنظر إليه في رعب وذهول ولا تدري.. أتجري؟ أتتوسَّل؟ أتتكلَّم أَمْ تبقى صامتة؟

أغمضت عينيها وانكمش جسدها.

شعرت بفوهة البندقية على رقبتها. تضغط على شرايين رقبتها.. وعظام روحها وكانت البندقية جاهزة الآن للقتل. تصبَّب العرق منها، ارتعش جسدها كله. لم يقترب منها الموت كما اقترب في هذه اللحظة. سيكون موتًا سريعًا على ما تعتقد. سريعًا جدًّا. كادت أنفاسها تتوقف على كل حال، ولم تكن تتخيل أنها بهذا الجبن أمام الموت.

تمتمت: لا تقتلني.

فتحت عينيها في بطء.و جسدها لم يزل يرتعش.. لم تكن تدري من قبل أن الشفاه ترتعش لهذه الدرجة، وأن العيون ترتجف لهذا الحد، وأن الإنسان

ضعيف كل هذا الضعف. لم تعد حتى تتذكر من يكون هذا الرجل الذي سيقتلها في لحظات. كانت ذاكرتها تتطاير على أرجوحة طائشة.

- اسمعيني جيِّدًا يا صفاء. حياتي وحياة أهلي وكل من أعرف في خطر. لا يمكن التراجع الآن أبدًا. ولا أريد التراجع. عندما تخبرين أمي ستقتلينها، وربما تقتلين الكثير معها. ولن أتورَّع، صدقيني لن أتورع عن قتلك. لن أفكر لحظة.. سأضغط على الزناد في ثبات وينتهي الأمر، ولن تكون أول مرة. أفضل أن أقتلك أنا بدلًا من أن تقعي في يد القوات الإسرائيلية ويستجوبوك عن معلوماتك. أفضل أن أقتلك بيدي، فالقتل راحة لا مثيل لها في هذه الحالة.

قالت مسرعة وهي تلهث: لن أنطق. أنا آسفة. لن أنطق.

ضغط بالبندقية على رقبتها، ووضع إصبعه على الزناد في بطء حتى تراه في وضوح، وشعر بارتعاشة رقبتها وكأنها دجاجة تم ذبحها منذ لحظات بالفعل. ولم تقوَ على النطق، ولم تكن متأكدة ما إذا كانت قد فقدت صوتها إلى الأبد أم لا.

ثم همس: أنا أحبك. ربما أكثر مما أحببت أي امرأة من قبل. ولكنني لن أعيش ودم الأبرياء في عنقي يعذبني. لن أعيش وأنا أعرف أنه كان بإمكاني إنقاذ الكثيرين بقتل رجل واحد ولم أفعل. لا أستطيع. ولو قتلتك فسأشعر بأنك ضحية أخرى من ضحايا الغدر، ولن أشعر بأنني مسئول عن موتك أبدًا.

فتحت فمها لتقول إنها لا تفهمه.. ولا تدري كيف تكون هي ضحية غيره لو قتلها هو، ولكنها همست: أنا آسفة.

حرَّك البندقية، أبعدها عنها في بطء.. أخرج الرصاص. وضعه في جيبه، وعلقها على الباب من جديد، ثم اقترب منها.. أغمضت عينيها. أمسك بكتفها.. هزَّها في قوة حتى فتحت عينيها، ثم أمسك بمعصمها.. لواه.. اعتصره حتى كادت تصرخ وشدَّها إليه وقال: لو نطقت بكلمة واحدة.. لو بدا عليك شيء.. أي شيء.. فسوف أجعلك تندمين على اليوم الذي ولدت فيه. وأنت تعرفين أنني أستطيع هذا.

هزَّت رأسها بالإيجاب وهي ترتعد.

نظر إليها برهة.. ولم تكن تفهم نظرة عينيه.. هل بها شفقة، كره، حنان، ندم، هل شعر برغبة في أن يهدئها، أن يربت على كتفيها. لابد أنه لم ير كل هذا الخوف من قبل. ليتها كانت تستطيع أن تواجهه وتتقبل الموت بسلام. ليتها استطاعت أن تختبر قدرته على قتلها حقًّا.

كان من السهل أن تموت. يضغط على الزناد ضغطة ضعيفة وينتهي الأمر.

خرج دون أن ينظر إليها مرة أخرى، وأغلق الباب.

فهوت على السرير وقلبها على مسمع منها والدموع تنهمر في صمت وقد اعترف لأول مرة بأنه يحبها وهو يصوب سلاحه لقتلها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تخرج من حجرتها. أبقت رأسها مدفونًا في الوسادة وهي لا تعرف ما إذا كان اليوم بدأ أم انتهى. توقف ارتجاف جسدها تدريجيًّا ولم يتوقف ارتجاف شفتيها ولا عينيها. وأغمضت عينيها وهي تتصنَّع النوم، واحتضنت جسدها بذراعيها وهي لا تدري كيف ستواجهه بعد ذلك. لم تجرؤ حتى على البكاء بصوت عالٍ. خافت من بكائها، من صوتها، من عينيها.. من ارتجاف جسدها. خافت من أن تنظر في المرآه فترى نفسها كتلة من الرعب تتحرك في كل اتجاه. شعرت بالهُوَّة التي تركها فم البندقية على رقبتها.. وكأنه عَصًا تضغط على عقلها.. تحفر عقلها.. وما إن تلاشت العصا حتى ظهرت الهوة. كان مكان فوهة البندقية دائرة حمراء.. حول حنجرتها.. دائرة تشهد علي الموت والخزي والألم واليأس والخيانة. لا تجرؤ على رؤية نفسها في المرآه أبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ساعات خرجت في تباطؤ لتشرب بعض الماء. في المطبخ وهي تفتح صنبور المياه شعرت بالظلام يخيم على المكان. انقطع التيار الكهربائي على ما يبدو. وعمَّ هدوء مخيف على البيت. وكانت تخاف وجودها هنا وتخافه وتخاف الظلام.

قالت في صوت مكسور: خالتي.. عندك شمع؟

قامت أمه وهي تسير في خطى غير متزنة وكأنها طفل لم يتعلَّم السير بعد، ودخلت المطبخ وأخذت تبحث في الأدراج عن كبريت وشمعة.. وبينما هي تفعل هذا.

دوى صوت التفجير في الهواء وكأنه برق لا يحترق.

اهتزت صفاء من هَوْل المفاجأة، وأسندت رأسها على باب المطبخ وقالت: ما هذا؟

قالت أمه في صوتها الهادئ الميت: النور انقطع.. وقنابل ربما. لابد أنها إسرائيل.

قلت في حيرة: معذرة.. ماذا قلت؟

- - لا تقلقي يا ابنتي.. إسرائيل تقصف المنطقة. في الغالب سينتهي كل شيء سريعًا. اذهبي لتنامي وخذي معك الشمعة.

حاولت السيطرة على الارتجاف، وقالت وهي تظن أن لابد أنَّ هناك لبسًا: تقولين اذهبي لتنامي وإسرائيل تحتل لبنان وأنا هنا؟

ابتسمت.

هل ابتسمت السيدة! لم ترها تبتسم قط من قبل! بالطبع لابد أن تبتسم، هي حماة على كل حال وترى زوجة ابنها تكاد تموت خوفًا.

قالت في قوة: لا تخافي. العمر واحد والرب واحد. تقولون هذا في مصر أيضًا، أليس كذلك؟ عندما تقصف إسرائيل نصبر.. عندما تدخل إسرائيل نحارب.. كل أسرة عندها ولد فالولد يأخذ السلاح ويخرج.

ردَّدت في بلاهة: الولد يأخذ سلاحًا! وهل ستدخل إسرائيل؟

- إسرائيل دائمًا تدخل. تعشق اختراق الحدود. والجبال غير مألوفه عندها، ولا تقلقي الولاد يعرفون الأرض هنا ولابد سيجهزون كمينًا عندما تدخل.

شعرت بأنفاسها تتلاحق: عندما تدخل. نعم، عندما تدخل.

ثم تمتمت: سأموت حتمًا.. بيده، بالقنابل، ومن المؤكد سأموت عندما تدخل إسرائيل. وكم أريد أمي!

- ماذا تقولين يا صفاء؟

- لا شيء. أريد.. هل يمكن أن تبقي معي. أخاف بعض الشيء. ونبيل خرج. هل تعرفين أين ذهب ومتى سيأتي؟

أمسكت بيدها وهي تجرُّها إلى الجلوس معها بجانب النافذة، وقالت: تعالي اجلسي هنا إلى جانبي، لا تخافي. هل تشاجرت مع نبيل؟

قالت مسرعة وهي تتلعثم: لا. لم.. لم أتشاجر معه. لا أتشاجر معه أبدًا.

قالت مسرعة: نعم، هو طيب.. هو ملاك يا ابنتي.

رددت في مرارة: نعم ملاك.

ساد الصمت وهي تترقب سماع انفجار جديد، ولم تسمع شيئًا. بعد ساعتين من الجلوس مع حماتها في صمت تام وكأن حماتها تخاطب أشباحًا طوال الوقت.. أمسكت بالشمعة ودخلت الحجرة. وضعت الشمعة على المنضدة بجانب السرير، وتمدَّدت على السرير وهي تتمنى انتهاء هذا اليوم واليوم القادم.. وكل الأيام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكانت تشعر به يفتح الباب في بطء، فشدَّت الغطاء إلى خدِّها، وشعرت به وهو يقترب.. يخلع ملابسه يتمدَّد على السرير..

ومشاعرها متشابكة، تخافه وتريد قتله وتشتاق إليه، وتريد أن توقف جريمة قتل ستحدث بعد أيام وهي الآن شريكة فيها.

والشعور الذي طغى عليها حقًّا هو رغبتها في أن تشعر بالأمان.. بأنها لم تزل حيَّة. بأنها لم تُقتل بعد.

تمدَّد على السرير. وهي تفكر، هل تتكلم معه؟ هل توبِّخه؟ هل تسأله؟ هل تطلب منه أن يعانقها ويعترف بأنه لم يكن ينوي قتلها. كان دائمًا ينام في الحجرة المجاورة. لماذا أتى الآن؟ هل قرَّر قتلها إذن؟ ضربها؟ تعذيبها؟ هل ندم ويريد أن يصالحها ويصرف النظر عن جريمته؟.

وجوده بجانبها جعلها تغلق عينيها أكثر.

تمتمت تَمْتَمةً لا إراديَّة: كنتَ تريد أن تقتلني؟ كنت ستقتلني، أليس كذلك؟ من أجل مشاعر أمك؟ تقتلني!

لم يجب. فأدارت رأسها إليه.. رأته في ضوء الشمعة الخافت. كان يبدو على وجهه الإرهاق، الكثير من الإرهاق وعدم النوم وكان يبدو أكبر سنًّا بكثير..

نظر إليها.. لوجهها الذي تلاشى اللون منه من الخوف.

ثم قال: أنتِ خائفة؟

هزت رأسها بالإيجاب فقال: حسنًا. الآن تفهمين عمَّاذا كنت أتكلم وماذا أنوي أن أفعل. الآن يفهم أحدنا الآخرَ أكثر بكثير، أليس كذلك؟

هل تقول: لا؟ لا أفهمك؟ هل سيقتلها لو قالت هذا؟ هل تقول: نعم، وتكذب وهي لا تفهمه. ربما يثور.. يضربها، يقتلها.. قال إنه قتل من قبل.. قاتل محترف زوجها! ما أجمل حظها! ولديها كارت فيزا بالطبع.

طأطأت رأسها ولم تنطق.

ابتسم في جفاء وهمس: هذا أفضل.

قالت بصوت ضعيف: ما هو الأفضل؟

فجأة دون مقدمات أمسك بمعصمها في قوة ودفع بها إلى صدره وتمتم: لا أريد أن أسمع كلمة.. ولا كلمة..

حاولت أن تدفع به من هَوْل المفاجأة، وقالت في غيظ: تريد أن تقتلني ثم..

قال في عصبية لم تعتدها منه: نعم.. أريد أن أقتلك. أريد أن أقطع لسانك بيدي.. أريد أن ألعن اليوم الذي رأيتك فيه، وأريد الآن أن أضمك إليَّ.. وأنت زوجتي، وعندما أريد أن أضمك إليَّ سأضمك إليَّ وعندما أريد أن أقتلك سأقتلك! فهمت!

لم تنطق.

ضغط على خصرها بيده وقال: فهمتِ؟

همست وجسدها بدأ يرتجف من جديد: فهمتُ.

وبدا لها أنه فقد عقله تمامًا.

تنهد وقال وهو يقرِّبها منه أكثر ويضغط على خصرها أكثر: الآن لا أريد قتلك.. الآن أريدك أنت!

كاد يمزق أضلعها، همست في حيرة وألم:أرجوك نبيل.. اتركني.. أرجوك..

تركها، وقبل أن تتنفس في ارتياح، دفع بها فاصطدم ظهرها بمرتبة السرير، وأنفاسها قصيرة متقطعة.

ولم تقو هي على المقاومة أو النطق.

في ثوان حبسها بين ذراعيه وحدَّد معالمها ومنطقتها.. وغمرها بجسده وكأنه يبهم ويمحو كل الحدود والمعالم. دون رحمة.. وضع الحدود ومحاها.

فتتها بين أضلعه كما كان ينوي..

وكان مختلفًا.. كان رجلًا لا تعرفه..

اخترقها دون مقدمات كالثوار وهم يخترقون حدود العدو.

تأوهت في ألم دون إرادة. ثم قبضت يدها وعضَّت عليها حتى لا تصرخ.

لم يستعمل أي شيء ليتجنب الإنجاب كما كان يفعل دائمًا، ولم يسيطر عليها كما يفعل دائمًا.

لم يكن صبورًا وحريصًا ورقيقًا، ولم ينظر إلى الموقف من منظور لاعب القمار الذي يلعب ببطء ويفكر كثيرًا ولا يفقد السيطرة أبدًا!

كان عنيفًا، وفقد السيطرة على نفسه لأول مرة، ولم يأبه بها ولا بما تريد.. كان كالميت الذي يتشبث بالحياة، يلفظ الدم من فمه ليعيش.. فيخنقه الدم ويموت.

آلمها.. ربما..

أعتصرها بين يديه.. ربما

لم يأبه بها وبمشاعرها.. ربما..

كان قاسيًا وكان مختلفًا وكان يائسًا.. ربما

كان يعشقها بلا تحفظ ولا تفكير.. كان يندفع باندفاع البراءة الذي اندفعت به هي...

كان يعشقها كما لم يفعل من قبل.

كان يسكب بداخلها أعوامًا من الخزي والقهر والمؤامرات والأسلحة المختبئة في الجُب، والحرية المحتبسة في أعماق سجون القلاع القديمة والجديدة، والكرامة التي تسبح في الهواء كأرواح الأجنة.

لم تزل تعض على يدها حتى لا تصرخ وما أصعب صمت الألم والعجز.

ثم بلا كلمة بعد أن فرغ ممَّا يريد، أدار وجهه عنها. لا تأسف على ما فعل.. لا سألها عن حالها.. ولا بدا عليه النشوة ولا الندم.. لم ينطق.

كانت الشمعة قد انطفأت. والظلام نعمة من النعم ورؤية زوجها الآن مستحيلة ورؤية خيالها على الحائط ستفزعها أكثر من رؤية شبح الأخ المتناثر من حولهما.

أزاحت دمعة من عينيها، وضمت ركبتيها الى صدرها وهي لا تدري بالضبط ما إذا كان يريد تحطيمها أم أن مشاعره طغت عليه.. أم أنه كان يود إذلالها. وكانت تتمنى أن يضمها في حنان كما كان يفعل. مرة ربما. كانت تريد أن تشكو إليه من ضعفها وقلة حيلتها وطغيانه عليها. ولم تجرؤ على الكلام معه.. ولا على أن تلمسه.

ولم تنم لوقت طويل. كان هناك الانكسار الجسدي والانكسار المعنوي والسيطرة التامة عليها التي أثبتها لها منذ دقائق، وجسدها بين يديه كدولة سلمت الجيش والغنيمة والسلاح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قامت في هدوء، وبدأت في تحضير الإفطار مع حماتها وهي تبحث عنه.. أين ذهب؟ متى رحل؟ لم تشعر به كيف؟ كيف يرحل ولا تشعر به؟

قالت في قلق: أين نبيل يا خالتي؟

رفعت كتفيها في لامبالاة وقالت: سيأتي، قال إنه لن يتأخر..

كانت تتصرف في آليَّة طوال اليوم.. وكانت خائفة إلى أبعد حد. أمس.. كان قد حدَّد معالم علاقتهما وكانت بين يديه الآن في حيرة لبنان بين القادة والكتل والأحزاب والفئات والطوائف. في حيرة لا توصف وخوف يهزُّ أركان العالم واستسلام ربما، غضب ربما، لا تدري. لاحظت لأول مرة أن والدته تبدو كشبح، عيناها تَمرَّانِ على العيون كمرور الطائرة على السحاب بسرعة وبلا أي تأثر. وكأن كل العيون من حولها مصنوعة من ذرات المياه الضعيفة. للحظات شعرت بِوَخْزٍ في قلبها. أشفقت على الأم والأبناء.. تخيَّلت صفاء أمها شبحًا يتطاير حولها كالدخان.. كانت أمها سيدة منزل، وكانت تقاسي في تقسيم الطعام على الأبناء وحل المشاكل المادية والمعنوية، وكثيرًا ما رأت أمها تصرخ وتبكي وتفقد أعصابها وتلعن اليوم الذي ولدت فيه ولكنها قط لم تر كل هذا الحزن الذي يحيل الإنسان إلى ذرات من التراب والمياه في الهواء. وأحسَّت بأنها لو رأت أمها هكذا لشعرت بحيرة لا توصف، ربما أكثر من حيرتها الآن. كانت ستشعر بالعجز والضغينة ولا تدري من الضحية ومن الجاني. يبدو أن الضحية والجاني في عالمنا العربي كلمتان متشابهتان كل التشابه، ويبدو أننا كلنا ضحية وجانٍ في آنٍ واحد.

فها هي ذي العراق جانٍ وضحية ولبنان.. فقدت الكلمات معناها في أمة لا تُعرَّف، وفقدت هي ثقتها مع رجل لا تُعرَّف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد ليلًا وهي تحتضن نفسها على سريرها وتستمع إلى صوت القنابل وترى النور يحرق كل شيء.. وتنتظر الموت في أي لحظة بيده هو، بيد إسرائيل.. بيد.. من؟ لا تدري.

ما إن فتح الباب حتى كان هناك مزيج من المشاعر بداخلها من جديد..

همست في مرارة: تركتني طوال اليوم وحدي..

خلع حذاءه ولم ينظر إليها..

ثم جلس على السرير، نظر إليها نظرة لا تفهمها ولا تعرفها، وقال: عليَّ أن أرحل بعد سبعة أيام.

قالت في فزع: تتركني هنا إلى الأبد؟

- لا. سأعود بعد شهر وستكونين في أمان، أعدك.

أمسك بكتفها لتنظر إليه، وقال في صرامة: صفاء.. سبعة أيام.. لا أريدك أن تتمنَّعي عني ولا تتشاجري معي، هل يمكن هذا؟

قالت في يأس: ثم ستقتله؟

قال وقد نفد صبره: ألا تسمعين كلمة ممَّا قلت! كلماتك لن تجدي أبدًا.

قالت في مرارة وهي تطأطئ رأسها: وحتى لو تمنَّعت.. أنت زوجي ولا تأبه بما أقول حتى لو قلت لا.. أمس..

قال في قوة ولا أدنى ندم في عينيه: لن نتكلم عن أمس.

جاء وقت التحدِّي إذن.. ستتحدَّاه وتستفزه وتنتقم منه: أنا أريد أن أتكلم عن أمس! أتظنني أخافك أم تظنني جارية عندك اشترتها أمك؟

نفخ في غيظ ولم ينطق..

أرجفها صوت القنابل في الخارج، قنابل حولها من كل اتجاه.. ارتجفت.. احتضنت نفسها من جديد..

أمسك بيدها، شدَّها إلى صدره فهمست في هيستيرية: كل هذا الجنون.. لماذا يلقون بالقنابل في كل اتجاه.. سنموت، أليس كذلك؟

قال في حزم: لا. أنت هنا في أمان. لن تصل القنابل إلى هنا.

- كيف تعرف هذا؟ ربما تصل إلى هنا.

- وإذا وصلت فلن يوقفها شيء. الموت والحياة في يد الله.

- ولكنك أنت تريد قتل رجل!

لم ينطق.. شعرت بعضلاته تتمدَّد والعِرق في رقبته يثور، وعرفت أن العنف بداخله على وشك الانفجار.. ولا تدري ماذا تتوقع..

أحاطت خصره بيدها المرتجفة وقالت مسرعة: لا أريد أن أغضبك. أرجوك، لا تقتلني، لا تضربني.. أنا آسفة.. نبيل هل تسمعني؟ أنا آسفة!

كان صامتًا. لم تكن تدري ماذا تتوقع، وكانت تشعر بحرارة جسده، وبالقسوة التي تنسكب من روحه ولم تكن تعرف مداها.

همست في استجداء، وقد عرفت معنى الاستجداء في الأيام الماضية:

- نبيل..

قال فجأة في صوت قوي:تخافينني مرة أخرى؟ أليس كذلك؟

قالت دون تردُّد وهي تتنفس هواءه في رئتيها: نعم.

- حسنًا. لا بأس. فلتخافيني إذن.

قالت ورأسها مدفون في صدره: أمس.. هل كنتَ غاضبًا مني؟ هل كنتَ تريد الانتقام مني؟

- لم أكن أنتقم منك.

كانت تدفن رأسها في صدره لأنه قاتلها ومنقذها. كانت ترتجف منه وتتمنى أن يُهدِّئها، ولم تكن تعرف غيره، ولا ذابت داخل غيره.

كانت تريد أن تبحث عن الرجل الذي تعرفه.. تغوص في أعماقه، وتبحث عن الرجل الذي تعرفه.. أو ربما الرجل الذي لا تعرفه.

توقعت أن تسمع أسفًا، ولكنه لم يتأسف.

مرَّ بيده على ظهرها وتمتم: سبعة أيام.. سأبقى معك.. رقم سحري سبعة هذا.

ارتجفت فجأة وقالت: ستتركني إلى الأبد بعد هذا؟

ابتسم في مرارة: هذا سؤال أم أمنية؟

لم تجب. ولا تدري ماذا تقول.

لم تجرؤ على النظر إليه.. ترقرقت الدموع في عينيها من جديد.. ورأسها في أعماق صدره وعقلها يسبح في دموع لم تتساقط بعد:أنا زوجتك.

- وماذا يعني هذا؟

ساد الصمت وهي تدفن رأسها وعقلها.

ولم يتوقف الارتجاف.. كانت ترتعد من الخوف منه ومن نفسها ومن القنابل ومن الجنون والموت.

ربت على ظهرها وهمس: لا ترتجفي.

ولكن كل الخوف كان يتفجَّر من عروقها. كانت ترتجف كما لم ترتجف من قبل.. بعينيها.. بشفتيها.. بأطرافها.. بقلبها.. برئتيها.. وبكل دمها.

قال في قوة وهو يمرُّ بيده على ظهرها في حركات رتيبة ويهزها وكأنها طفل صغير يبكي بلا توقف: لا ترتجفي يا صفاء. اهدئي.

استمر في تمرير يده على ظهرها في صرامة وحركات رتيبة وكأنها لم تزل بداخل رحم أمها تتأرجح في أمان.

هدأت رجفتها بعد حين، وانخفضت دقات قلبها. وصدره الصلب يُهِّدئها ويرهبها ويبعث الحياة فيها.

لا تدري كيف ولا لماذا بدأت تقبّل رقبته قبلات متناثرة، فأمسك برأسها وقبَّلها في لهفة. كانت تحتاج إلى ذراعيه وإلى حنانه ومستعدة لأن تدفع عمرها ليعود كما كان معها، وقد لقنها درسًا لن تنساه أمس. لن تنساه أبدًا. كانت كشعب يحكمه طاغية ساحر ومحبوب. يعذب الشعب، وينفي الشعب، ويسيل دماء الشعب، ويهلل له الشعب، ويقبل يده. وعرفت معنى الطغاة كما لم تعرف قط.

أذابها بداخله من جديد.. بلا حواجز وبلا زيف. كان صريحًا واضحًا.. وكان إنسانًا وكان يتمتم: صفاء.. لن أتركك، سأعود إليك. لن أتركك.

ولم ترجُه ولم يرجُها.. بعد أن مارس الحب معها، دفن رأسه في الوسادة ولم ينطق.

فأحاطت ظهره بذراعها، وأراحت وجهها في زاوية كتفه، طوق كتفها في تلقائية وهو نائم ونامت هي في دفء جسده.

سبعة أيام.. كان رجلًا آخر.. عنيفًا أحيانًا، حنونًا أحيانًا.. وكان يأخذ ما يريد.. ربما يفقد السيطرة على نفسه مرة..و ربما يرتجف احتياجًا إليها مرة.

ولم تفقد الأمل، وكانت ترجوه وسط نشوته وبلا فائدة، كانت ترجوه في كل الأوقات بلا فائدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سبعة أيام.. بل ثمانية.. مختلفة كل الاختلاف.

عرفت فيها كيف يحب الرجل المرأة..

كانت تتساءل ما إذا كانت تعرف الإجابة عن السؤال المُحيِّر.. كيف يحب الرجل المرأة؟

وعرفت الإجابة وهي بين ذراعيه، وهو ينظر إليها، وهو غاضب منها، وهو يهددها بالموت، وهو يصوب سلاحه ناحيتها ليقتلها.. عرفت الإجابة.. ظهرت لها في وضوح غريب.. وبلا أدنى شك.

كان يعطيها نفسه بلا تردد ولا زيف ولا خطط ولا حروب ولا حواجز.. وكأنه يطلق طلقة قاتلة من بندقيته فتصيب الرأس وتقتل على الفور.

يحبها كالمراهق بعنف وبراءة أحيانًا، وكالمخضرم ببطء وحرفية أحيانًا أخرى.

ابتسمت في أسى ومرارة..

كيف يحب الرجل المرأة؟

عندما يرحل بعد أن يقبِّل جبهتها في تلقائية ويقول في قوة: سأعود.

عندما يضعف أمامها وهو يسيطر على العالم بيديه..

عندما ترتعش أنفاسه وهو يقتلها..

عندما تُخرج كل غضبه وعنفه وتضغط على كل قهره ويأسه.

عندما يصبح دوي القنابل في أذنيه صفير قطار.. وصوت دقات قلبها.. دوي قنابل. يحييه ويخيفه ويسجنه أبدًا.

عرفت كيف يحب الرجل المرأة كما لم تعرف قط.

ولم يكن هناك أحد قادر على أن يخبرها.

ولم تكن هناك امرأة قد مرَّت بهذا من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صوت القنابل كان كالبمب الذي كانت تفرقعه أيام الأعياد، وكانت تُفزع به أمَّها فتصفعها وتصرخ في وجهها. ولكنه كان أقوى، وكان يهزُّ العالم كالبرق ويحرق بلا رحمة. لم تَعْتَدْهُ وكثيرًا ما شعرت بأنها ماتت منذ زمن. أو أن البيت يتحرك، يطفو على سطح بحر بأمواج عالية، كثيرًا ما كانت ترتجف وتصرخ ليلًا. وما أغاظها حقًّا هو البرود الذي كان يعمُّ الناس، وكأن القنابل الإسرائيلية مثل الأمطار الغزيرة التي تسدُّ الشارع، شيء مزعج وتافه فقط.

ونبيل وأمه على وجه التحديد كانا يتعاملان مع القنابل بروح مرح ودعابة قاتلة!

وأحيانًا كانت تسمع نبيل يطلب مساعديه في الشركة في أمريكا بتليفونه المحمول. وكان يطلب كلًّا منهما على حِدَةٍ، ويتكلم مع مساعده السوري بلهجة لبنانية سورية، ويسأل عن كل التفاصيل وأمامه نوتة صغيرة يكتب بها، ثم يتكلَّم مع مساعده الأمريكي بإنجليزية فصيحة وأمامه نوتة مختلفة يدوِّن بها المعلومات ويعطي الأوامر. ولم تكن تفهم بالضبط أَقَسَّمَ العمل بينهما أم أعطى كلًّا منهما العملَ نفسه بالضبط.. هل كان يثق في أحدهما أكثر من الآخر؟ لم تكن متأكدة قط. وطوال الأيام السبعة كان يتكلَّم معهما كل يوم، ويقضي بقية اليوم خارج البيت.. أحيانًا يجلس على العشب أمام البيت بين الأشجار العالية ومعه الكثير من الأوراق وفنجان قهوة، ويبدأ العمل الذي يستمر ساعات، وعندما يتكلَّم مع مساعديه أو يعمل تحت الشجرة القديمة يكون مختلفًا! يكون رجل أعمال هادئًا ومسيطرًا وعقله مليء بالأرقام والصفقات.

ولم يكن يتكلَّم معها كثيرًا طوال الأيام السبعة. كان يحاول أن يتحاشى الكلام معها، وكانت تنتظره في نهاية اليوم وشوقها يطفو على السطح بلا أي تحفظ.

ولم يكن يستعمل العازل. ومعها وبين ذراعيها لا تجد صاحب الشركة ولا الأرقام ولا السيطرة، ولكن ترى طفلًا في غابة كثيفة، الضوء لا يدخلها إلا نادرًا.. ترى توحُّشًا.. ومشاعر طاغية لطفل قضى عمره داخل الكهوف يصطاد الغزلان ويهابها معًا.

كان رجلين في آنٍ واحدٍ.. رأتهما وعاشرتهما وأحبتهما معًا.

وكان لديها الوقت لتتأمل زوجها بين أهله وداخل بيئته.

وحاولت أن تتعرف عليه أكثر، ولكن ازدادت حيرتها.

علاقته مع أمه كانت غريبة وغامضة. كانا يتبادلان الكلمات المبتورة والمجاملات القصيرة، وكان يسألها كل يوم ما إذا كانت تحتاج إلى شيء، وتجيب دائمًا بأنها لا تحتاج إلى شيء، وعندما يسألها عن صحتها تجيب بأنها بخير. ومنذ اللحظة الأولى اتضح لها أنه يتولى أمه وأخته تمامًا، وأنه تولَّى أمرهما منذ كان في السابعة عشرة، ولم يسأل أحدٌ عن مصدر أمواله.

وتذكَّرت أخاها وأمها، وكيف عندما يعود أخوها من أمريكا تقبله أمها لساعات وهي تبكي، ثم تلومه لأنه ابتعد، وتلومه لأنه لم يشتر لها الهدايا، وتلومه لأنه نسى أمه ولم يعد يفكر إلا في زوجته. أمَّا أم نبيل فلا تلومه أبدًا. ولا تهتم بوجوده كثيرًا، فيوم تناثرت الشظايا انشطر القلب واحترقت كل الأحاسيس.

كان نبيل يربت على كتف أمه، وتربت هي على كتفه وتدعو له. لا أكثر.

وعلاقته بأخته وزوجها وأولادها كانت مختلفة. الرهبة في عيون الأخت وزوج الأخت. وكأن نبيل خليفة عباسي وقائد الثورة وموحِّد الأمة.. كأنَّ نبيل هو الطاغية الحكيم المنتظر لينقذ الشعب من الفتن.

وبالطبع نبيل يغدق عليهم من أمواله.

اقتنعت صفاء تمامًا بأن سمر لا تحبها، وبأنها تشعر بأنها لا تستحق نبيل، وبأن سمر قد تأكدت دون أدنى شك بأن الشائعة التي تقول إن المصريين دمهم خفيف ليست حقيقية على الإطلاق، والدليل على هذا هو صفاء!

وكانت تتبادل معها كلمات قليلة وابتسامات باردة.

وما دامت صفاء لا تهتم بآراء عائلة زوجها كثيرًا، وما دامت لم تزل تحاول أن توقف جريمة قتل وليست في حالة تسمح لها بالضحك وتبادل النكات والكلام عن المسرحيات، فقد كانت تحاول تجاهل سمر.

ولم يكن زوجها يلعب مع الأطفال، ولا يعاملهم كأطفال، كان يتكلم معهم بجديَّة، ثم يتسلَّق معهم الجبال ويقطع الأخشاب، ويتحرك في كل اتجاه

وعضلات جسده تكاد تنبثق من بين دمائه. كان رجلًا يحتاج إلى أخشاب الغابة وتسلق الجبال وثلوج الشتاء.

شتان بين الرجل اللبناني الذي شاهدته يتكلم مع المخابرات الأمريكية بطلاقة وهدوء، وهذا الرجل الذي يتسلّق الجبال مع الأطفال في سلاسة وكأنه يشرب القهوة في مكتبه.

ولكن بعد الأيام السبعة. لم يسافر نبيل، بل بدأ يضع أشياءها هي في حقيبة، وقال: يجب أن ترحلي من هنا. كنت أعتقد أن القتال سيتوقف بعد أسبوع، ولكنه مستمر.

قالت في حيرة: إلى أين أذهب؟

- سترحلين مع أختي سمر وزوجها فؤاد. الكل يرحل وتعودين بعد انتهاء الحرب.

- وأنت؟

- سأرحل.. عندي عمل هنا في مكان قريب.

قالت في رتابة: هل ستعود؟

- بالطبع سأعود.

- أين ستذهب؟

لم يجب.

قالت وبارقة أمل تبدو على وجهها: هل ستحاول وقف القتل؟

قال في سخرية: أحيانًا أشعر بأنك في قمة السذاجة. صفاء، الرجل مات منذ سبعة أيام.

شهقت في فزع. في اليوم نفسه الذي هدَّدها فيه واغتصبها وأذلها.. في اليوم نفسه الذي سكب يأسه وضعفه فيه. لم يكن يوم خمسة وعشرين.. كان يومًا آخر. لابد أنهم غيَّروا اليوم إذن.. أو ربما كان عندهم أرقام مختلفة لا تفهمها.

كيف لم تعرف؟ أدركت فجأة أن والدته لا تشاهد كل القنوات الفضائية، بل قنوات معينة فقط، وأن لكل كتلة وكل حزب وكل حركة وكل اتجاه وكل حكومة قناة في الوطن العربي. وأن الوحدة العربية لا تمتد إلى تعريف الأخبار والتعبير عن الرأي.

يالَسذاجتها. معه حق. ساذجة بالطبع.

كادت تنفجر من الغضب والغيظ.

قالت في قوة: فلترحل! ماذا تنتظر؟ أتمنى ألا تعود أبدًا. ارحل!

قال في صرامة: لا. أريد أن أطمئن عليك أنت وسمر وفؤاد أولًا. ستنتهي الحرب قريبًا، ما إن تقِّرر إسرائيل دخول القوات حتى تنتهي الحرب.

لم تفهم. أكان يحاول تهدئتها أم كان يقرُّ حقيقة؟

لم تتكلم معه.

دهشت لأنه لم يعرض على أمه الرحيل. وشعرت بأن من واجبها أن تقنعها بأن ترحل بعيدًا عن القذف الإسرائيلي.

كانت أمه جالسة كعادتها بجانب النافذة وكأن الكون لا يعنيها.

قالت صفاء وهي تمسك بحقيبتها: لن تذهبي معنا؟

قالت وهي تبتسم: لا يا ابنتي.

- لماذا؟ سنعود قريبًا.

- لن أترك بيتي وأعود ولا أجده كما يحدث للفلسطينيين. إذا جاء الأجل جاء هنا. هذا بيتي وهنا مات من كنت أحب. اذهبي أنت.

هزَّتها الكلمات. ولكن غيظها من زوجها لم يكن يوصف.

خرجت لتركب سيارة أخته وزوجها.

قال في وضوح: فؤاد زوج أختي سيحميكما، حتى أعود. لا تتحركي يا صفاء حتى أعود. نحن في حالة حرب. لو عدتُ بعد شهر ولم أجدك.. سيكون هناك عواقب.

همست في أسى: ستقتل أمي وأخي وأبي وكل عائلتي؟

نظر حوله ثم همس:استمعي إليَّ. القتل تَمَّ. لا شيء نتكلم فيه الآن. وعندما أعود سترحلين. أريدك في أمان حتى أعود.

قالت على مضض: سأبقى هنا بعد أن تنتهي الحرب.

أمسك بباب السيارة وكأنه يريد أن يمسك بها إلى الأبد ثم أغلقه في قوة. لم ينطق ولم تنطق.

دخلت أخته وزوجها وأولادها.

انطلقت السيارة إلى شمال لبنان.

سمعت صوت باب السيارة.. وكأنه ضربة على رأسها. لحظة تلاشى من أمامها.. انفجرت كل المشاعر وتشابكت.

التقت أعينهما والعربة تسير.. نظرة عينيه.صافية قوية متكبرة، عينان سوداوان، ومقلتان واسعتان.

هل ستراهما من جديد؟ وهل للألم أن يتجاوز الحدود! ماذا قالت؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أين سيذهب زوجها لمدة شهر كامل؟ وكيف سيتغيب عن عمله كل هذا الوقت؟ هل سيذهب إلى من يعمل معهم.. هل سيُهرِّب سلاحًا للمقاتلين؟ هل سيعقد اتفاقات مستقبلية؟ ماذا سيفعل طوال شهر كامل؟ بدأت تفهم تصرفاته.. تصرفات رجل مخابرات أو عميل أو جاسوس أو مقاتل، لا تدري بالضبط. كان ذكيًّا شديد الذكاء.. ولكن ما كان يميِّزه حقًّا، وما كان يذهلها هو قدرته على التوقع! كانت عنده قدرة فائقة على التخمين والتوقع. كان يعرف جيِّدًا كل تصرف ستقوم به، كل كلمة ستقولها. كان يناور أمريكا نفسها، ويعرف رد فعل الصديق والعدو. هذا ما كان يميِّزه. كثيرًا ما كان يجيب عن أسئلة واتهامات لم تنطق بها. كثيرًا ما كان يحلِّل الموقف ويبرهن ويعطي النتائج في تلقائية، كان يَنفذ بداخل كل من حوله، ويلقي بالتعليقات لها في فتور وواقعية، وكأنه قضى عُمْرًا يدرس عقل الإنسان، وكأنه تخصَّص في علم الخبث والتلصُّص. وكثيرًا ما كانت تراه أمامها وكأنه ظهر للتو من السماء.. خطواته لا يشعر بها أحد، وأنفاسه صامتة إلى حد كبير.

هذا هو زوجها.

شهر كامل! ماذا سيفعل؟ لابد أنه يهرِّب الأسلحة.. يفاوض.. ينقل معلومات.. يخطط لعملية قادمة؟ ماذا سيفعل؟

زوجها.. رجل نادرًا ما يفقد السيطرة على نفسه. وعندما يتفجَّر العنف بداخله يثير الرعب في قلوب الجميع. رجل يُحكِم السيطرة.. وإذا فقدها فيا ويل من أفقده السيطرة! وكانت هي من أفقدته السيطرة.

هي.. المصرية البسيطة التي تحيا في الإسكندرية، وتسمع عن لبنان في الأخبار وتمصمص الشفاه على أمريكا، وتَأْسَى على فلسطين والعراق.. وتدرس في المدرسة الدول العربية بخريطة لا تعترف بإسرائيل.. خريطة تعطي معلومات وعالم يعطي معلومات مختلفة. تدرس في المدرسة دولة فلسطين المحتلة، وتحفظ موانئ العالم العربي، وتعرف أن المغرب تصدر الفوسفات، وأن ميناء صور يقع في لبنان، وأن الأرز والشعير من منتجات مصر، وأن السودان بها ثروة حيوانية شاسعة، والسعودية بها بترول كثير.

هي مصرية.. درست التاريخ الفرعوني والإسلامي.. والروماني واليوناني ثم العثماني، حتى المماليك حكمونا!

هي مصرية.. كان عليها أن ترسم خريطة الوطن العربي، وتحفظ خريطة الوطن العربي، ولم تتوقع يومًا أن تدخل إلى الخريطة بسيقان سحرية ولا تعرف متى تخرج!

كانت تريد العيش في دبي دون الدخول إلى الخريطة. كانت تريد أن تكون ككل المصريين في الخليج.. تجمع المال لتعيش في مصر.. تجمع المال لتصرفه في مصر.. لا هي منهم ولا تعرفهم. ولا تطأ قدمها الخريطة.

وها هو ذا يضعها في منتصف الخريطة، يلقى بها إلى الأعماق ثم يرحل شهرًا كاملًا!

زوجها.. ترى ماذا سيفعل طوال الشهر؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت أخته في رتابة: الطريق ليس طويلًا، ساعتان على الأكثر للشمال، ولكننا في حالة حرب والكل يرحل. سيأخذ وقتًا أطول. أتريدين شيئًا؟ معي سندوتشات ومياه.

البرود الذي كان يسيطر على الجميع كان يقلقها.

قالت في شيء من العصبية: الكثير يموت كل يوم.

نظرت إليها أخته التي كانت تجلس إلى جانب زوجها وقالت: نعم، الكثير. اعتدنا هذا يا حبيبتي. كانت القنابل جزءًا من حياتنا، ننام ونحيا ولا تؤثر فينا. عندما تتوقف نستمر في الحياة وكأن شيئًا لم يكن. نقاتل ونستمر.

ثم أدارت وجهها، وبدأت الكلام مع زوجها.

صورته وهو يغلق باب السيارة لم تفارق مخيلتها. رحل هو أيضًا؟ إلى أين؟ تساءلت من جديد، هل سيحارب؟ هل رحل إلى من يعمل معهم؟ ربما لن يرحل على الإطلاق. ربما قال هذا حتى ترحل هي. ربما يبقى مع أمه. وربما..

نظرت حولها.. لعربة الإسعاف التي تسرع لتأخذ المرضى والمطافئ التي تحاول إخماد حريق هائل بلا جدوى.. للبيوت التي دُكَّت وأصبحت لا شيء في لحظات.

ربما.. لا تراه مرَّة أخرى.

لم تعد تفهم أي شيء أبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريق كان طويلًا أكثر مما توقَّعت. على الأقل ثماني ساعات. وهي تفكر وتحلِّل. تتكلم الكلمات القليلة مع أخته عن مصر، عن المسلسلات، عنه هو. وشعرت بأن أخته لا تعرفه، لأنه رحل عن لبنان وهي لا تزال صغيرة جدًّا. وكان واضحًا أيضًا أنه هو من أنفق على زواجها وتعليمها.

كانت تتكلم عنه باحترام وتقدير وشيء من الغيرة عليه من صفاء.

وكان زوجها يعمل مهندسًا، وكان شديد الهدوء. يقود السيارة بحرص والأولاد يرتجفون من الخوف ويهمسون: ماما.. هل ستموت جدتنا؟

قالت سمر: لا، أعوذ بالله، لن تموت.

- هل سيموت عمو نبيل؟

ارتجفت لحظات. أغمضت عينيها.

قالت سمر في قوة: لن يموت أحد.

قالت ابنتها: ولكن كل الناس تموت. كل أصدقائي سيموتون، أليس كذلك؟

قالت في عدم صبر: لن يموت أحد، كلهم رحلوا. وسيعودون بعد انتهاء الحرب.

قالت الطفلة من جديد: ولكن جدتنا لم ترحل. هل سيموت كل من لم يرحل؟

قالت مسرعة: لا. ونامي الآن.

وصلا عند بيت خالة زوجها. كان بيتًا صغيرًا. ولم تدرِ ماذا تفعل في هذا المكان ومع هؤلاء.

كان هناك شعور غريب من جديد بالألفة والغربة. رحبت بهم الخالة ونظرت لصفاء وكأنها تنظر لزوجة الملك العادل.

قسَّمت الحجرات إلى حجرتين: حجرة للنساء، وأخرى للرجال.

وضعت رأسها على الوسادة وهي تنظر حولها. كان هناك سرير كبير تنام فيه أخته وأولادها. وسمعت بكاء الطفلة ليلًا لخوفها من القنابل وهدَّأتها أمها، ونامت من جديد.

في تلك اللحظة.. في عام 2006 شعرت صفاء بالرغبة القوية أن تكون في حضن أمها هي أيضًا.

لم تبك. بقيت ساكنة، وصور وأحداث تتصاعد في عقلها. وما يقلقها حقًّا هو أنها لم تفكر طوال الطريق في الجريمة التي ارتكبها زوجها على الإطلاق.

ما إن رحلت معهم.. حتى وجدت نفسها تتساءل عما إذا كان سيعود حيًّا، وعما إذا كانت ستراه مرة أخرى. كان هناك الكثير الذي تريد أن تقوله له. الكثير. وكانت قد تأكدَّت دون أدنى شك من أنه يحبها.

ما إن رحلت حتى بدأت ترى العالم بمنظوره.. هو.

ما إن رحلت.. حتى همست في ندم: لم أقل له وداعًا.. سيموت وأنا لم أقل له وداعًا.

تجلَّت لها الحقيقة كاملة.. هو أنقذ حياتها. كان يمكن أن يقتلوها، وهو أنقذها. لابد أنه اتفق معهم على شيء لا تدري ما هو لينقذها. يعشقها. وهي لا تستحقه.

بالطبع لا تستحقه. لماذا تقلق على مصير رجل خائن لا تعرفه.

كل هذا القلق على مصير خائن لا تعرفه! مات وانتهى الأمر.

ولم تحزن على موته.

ما أخافَها حقًّا هو أنها لم تحزن على موته.

بل كان هناك شعور مخيف بالارتياح لنهاية الصراع. وكأن موته سيحل كل المشاكل.

أأخرج نبيل الشر بداخلها أم الخير؟

هل بقاؤها هنا يذيب عقلها.. يفقدها عقلها؟

عدم توازن غريب مرَّت به.

أحيانًا تلومه، وأحيانًا تراه بطلًا.

أحيانًا تخافه، وأحيانًا تشفق عليه.

مشاعرها مزيج من أشياء كثيرة،. ولكنها تعرف جيِّدًا أنها تحبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت خالته: تريدين الاتصال بأهلك؟

حاولَت الاتصال به هو ولم تستطع، كان قد أغلق تليفونه المحمول.

أمسكت بالتليفون وطلبت رقم أمها.

- صفاء.. هل أنت بخير.. صفاء.. ارحلي يا بنتي بسرعة.

ترقرقت الدموع في عينيها وقالت: أنا بخير لا تقلقي علي.

قالت والدتها في قلق: صوتك مش عاجبني.. مالك؟

- خايفة.

نظرت حولها، كان الطفلان يلعبان معًا بالعرائس.. وكانت أخته وخالته في المطبخ. همست في صوت مبحوح والكلمات تحترق في حلقها: خايفة قوي.

- معلهش. تعالي بسرعة.

همست: خايفة عليه. ربما لا أراه. لا أدري. ربما لا أراه. ماما.. ادعي لي.

انقطع الخط.

مسحت دموعها بسرعة، واتجهت إلى المطبخ، وبدأت تساعدهما في آليَّة. كانوا يعاملونها كلهم بلطف وأدب. حاولت أخته أحيانًا أن تتكلم معها. وأحيانًا كانت تقضي وقتها على السرير الصغير تفكر. فيه وفي حالها.

وأقلقها أنها لم تحزن مطلقًا على الرجل الذي قتله زوجها. أخافها هذا. وبدأت تتفهم القتل وتستسيغه.. وكان كل شيء مجنونًا حولها على كل حال. والعالم يحترق على كل حال. من هو؟ رجل آخر؟ من يكون؟ رجل لا أكثر.. مات المئات في أيام قليلة.

حاولت أن تستعيد بذاكرتها شكل الرجل في حفل العشاء العربي.. لم تتذكر سوى وجهه.. ضحكته.. ملامحه مُشوَّشة في عقلها. لو كان خائنًا فلابدَّ أن يموت. بالطبع لابد أن يموت. وربما لا يكون خائنًا. ولكن لماذا لم ينقذ نبيل الأبرياء.. كل من مات في الأيام العشرة الأخيرة؟

قال إنه يريد إنقاذ الأبرياء؟ لماذا لم ينقذ الأبرياء؟

وهي لم تر حتى الآن سوى الموت. موت الشِّرير وموت الطيِّب، البريء والمذنب.

لابد أن تسأله عن هذا عندما تراه.

إذا رأته.

ستراه بالطبع.

لا شفقة في قلبها على الوزير، كان لابد أن يكون هناك شفقة في قلبها لعائلته، لأبنائه، لزوجته، لأمه. ماذا بها؟

وكأن العالم يدور حول بركان هائج وهي وسطه. لابد أن تكون أفكارها مشوشة.

الكثير من الأشخاص في صراع على الأرض.. الكثير.. كل شبر وكل قطعة.

لبنانيون.. إسرائيليون.. فلسطينيون.. سوريون.. مغاربة.. عراقيون.. إيرانيون.. أردنيون..

الأفكار تتناثر حولها كالجثث والأشلاء.

زوجها على حق. لو مات كل خائن.. سيسيل الكثير من الدماء. وستبقى الأرض. لم يتبقَّ منها الكثير. من باع الأرض؟ ومن ترك الأرض؟ ومن زحف على الأرض؟ ومن اجتثت جثته من الأرض؟ وأين الأرض؟

ماذا يجمعنا سوى الندم.. الشجن.. اليأس والموت؟

وطنه.. وطن زوجها كتلة من النار واليأس.

أحِبَّة يتقاتلون، وأعداء يتقاتلون. مع من هي؟

مع ابنة أخته الصغيرة التي تسأل في قلق عن جدتها. نعم معها هي.

ومع زوجها.

كان لابد أن تقدم له العون والمساندة فهو بطل. وماذا فعلت؟ نظرت إليه على أنه سفاح وقاتل. كان لابد أن تكون معه الآن.

صاحت أخته: صفاء.. تليفون علشانك.

قامت في حماس وقالت: نبيل؟

- لا.. صديقة من صديقاتك على ما أعتقد.

أمسكت بسماعة التليفون وقالت في خيبة أمل: ألو.

قالت زينة بسرعة وصوتها مليء بالفرح: صفاء. كيف حالك؟ هل أنت بخير؟

قالت في دهشة: كيف عرفتِ الرقم؟

- أخذته من أمك. صفاء.. هل أنت بخير؟ لقد افتقدتك، وعندي أخبار لن تصدقيها.

قالت في مرارة: أصدِّق كل شيء.

- أبي وافق على زواجي من توم. حقًّا وافق. هو ليس سعيدًا، في الحقيقة. لقد وجدته يبكي في حجرته ويتمتم لأمي بأنه لا يعرف أولاده الآن، بأنه لا

يدري من هم. ولكنه وافق. سنتزوج بعد يومين. وتوم.. كم أحبه! تحدَّى أمه وأباه من أجلي. الحب ينتصر في النهاية يا صفاء. تمامًا كما في الأفلام.

رددت: كما في الأفلام. مبروك.

قالت زينة في حماس: كنت أريد أن أقضي شهر العسل في مصر. أتمنى أن أرى مصر، فلي صديقة من مصر طبعًا، ولكن توم خائف من أجل الحرب في لبنان.

قالت في تلقائية: وما دخل الحرب في لبنان بمصر؟

- هو لا يعرف كل هذا. في الخريطة لبنان أقرب إلى مصر بكثير من قرب واشنطن إلى شيكاجو أو كاليفورنيا. هو يظن أن العالم العربي كله كتلة واحدة. أنت تعرفين جهل الأمريكان، يطلقون على المنطقة الشرق الأوسط، ولا يعرفون أي شيء عنها. خلِّي بالك من نفسك يا حبيبتي.

انقطع الخط.

بقيت في مكانها مذهولة.

قالت زينة: الحب انتصر في النهاية.

تزوجت من يهودي. أمَّا هي صفاء.. فلا تدري ما مصيرها مع زوجها العربي المسلم.

ما أجمل العرب عندما يلتقون على مائدة طعام!

ما أجمل العرب وهم يحاولون عبور الجسر والغول يقف وسط الجسر! كل عربي يدفع بأخيه والغول يبتلعه في ثوان!

ذهبت إلى حجرتها من جديد. لابد أن تستمرَّ في التفكير، فكل شيء سيبدو واضحًا بعد بعض الوقت.

لكل سؤال إجابة واضحة. واضحة جدًّا. ولكل رجل تعريف.

دوَّت كلمات عزة في أذنيها: إياك أن تحاولي معرفة رجل. اعشقيه دون محاولة التفتيش عن هويته. فالرجل المُعرف يفقد رونقه!

وهل تستطيع؟

زينة الأردنية ستتزوج من يهودي.. ستنجح.. وهي.. هي وزوجها العربي.. ما مصيرهما؟ آه من العرب وفتنتهم وقتالهم وحربهم!

آه من العرب وحبِّهم!

حبَّهم أخطر من أي شيء.

الآن تعرف ما هو الحب على الطريقة العربية!!

وربما لا تعرف بالضبط.

ففي هذه الأيام كل شيء مبهم.

قالت لأخته في مرارة: لم يحاول الاتصال بي ولو مرَّة.

فأجابت في لامبالاة: ربما لا يستطيع.

انقبض قلبها وقالت: ماذا تقصدين؟

- في الجنوب الخطوط كلُّها مقطوعة.

نظرت إليها لثوان ثم قالت: هل تخافين عليه؟

تردَّدت سمر قليلًا ثم قالت وهي تقشر بعض الخضراوات: بالطبع هو أخي.

- هل كان يأتي إلى لبنان كثيرًا؟

- أحيانًا. وكان كريمًا جدًّا معنا، وهو أخي الوحيد. أقصد كنت صغيرة عندما مات أخي الكبير، ولم أعرف أخًا آخر.

وبدا على سمر التحفُّظ الشديد.. وبدأت صفاء تشك في أن سمر تعرف كل شيء. ربما كل من حوله يعرف. من يدري؟ ربما هي كانت آخر من يعلم.

قالت سمر وهي تغيِّر الموضوع: تريدين الخروج معنا اليوم؟

كانت تظن أن اللبنانيين أهدأ بكثير من المصريين، ولكن اللامبالاة وقت الموت بدأت تثير أعصابها.

- ستخرجين، وأنت لا تعرفين ما إذا كان أخوك حيًّا أم ميتًا، وأمك؟ لا أنا لا أستطيع.

قالت في شيء من الخجل: الأولاد يحتاجون إلى التغيير، ونحن اعتدنا قنابل إسرائيل. أصبحت جزءًا من حياتنا اليومية، تعلمنا أن الانتصار الحقيقي هو الاستمرار في الحياة.

- لا أفهم.

- منذ الصغر ونحن نتعلم هذا. ماذا تريد إسرائيل؟ أن تُروِّعنا.. أن تبث الخوف فينا. وعندما نخاف نجري، وعندما نجري تأخذ الأرض والولد. ولكن الموت لا يخيف إذا اعتدتِه. في الحقيقة أنا أخاف.. على أولادي طوال الوقت، ولكننا نَتَشَبَّثُ بالحياةِ دائمًا.

قالت صفاء: أنا آسفة. لم أقصد يعني.. أعصابي متعبة بعض الشيء. أفتقد نبيل كثيرًا، وأخاف عليه، ولم أعتد الحروب. أتعرفين؟ حاربنا كثيرًا وكان هذا قبل أن أولد. عندما ولدت كانت مصر كالابن المغضوب عليه المطرود.

ابتسمت: إيه.. كالابن المطرود؟ في حد يطرد الابن الأكبر، ومن تحمَّل المسؤلية سنين؟ الابن البكر لا يُطْرد ولا تستقيم الحياة بدونه! للأسف لا تستقيم. ألم تري أمي؟ حياتها لم تستقم قط. قاسينا أنا ونبيل كثيرًا من هذا. تعرفين أنَّ حزن الأم ينفذ إلى القلب ويفقدك القدرة على الثبات. حزن يقتلعك من جذورك. لا بأس، سأجهز الغداء.

قالت صفاء مسرعة: تحبين مصر؟ أعني تكرهين السادات من أجل السلام؟

ابتسمت سمر: بالطبع كلنا نحب مصر. ألم أقل لك إنها الابن البكر الذي ترك دراسته ليتحمل المسئولية. استبعادها من جامعة الدول العربية كان جريمة كبيرة.. لا تستقيم الأمور بدونها.

سكتت قليلًا ثم أكملت: ولكنكم محظوظون في مصر.. الحدود لم تتغير منذ خمسة آلاف سنة، وربما لهذا السبب تشعرون بأنكم مصريون أولًا، ثم عرب ثانيًا.

- نحن محظوظون! نحن بلد فقير جدًّا.

- ربما.. لكنني أظن أنكم محظوظون، عندكم أفلام يا ألله كتير بتجنِّن!

كانت تبدو مثقفة، وكانت مدرسة لغة إنجليزية في مدرسة صغيرة في قريتهم. وبدأت صفاء تشعر بالارتياح لها.

عندما خرجت سمر مع أولادها، فتحت صفاء التليفزيون وعيناها لا تريان شيئًا. كان التيار الكهربائي ينقطع كثيرًا، ولم يزل التليفزيون يذيع كل شيء. أخبار الحرب.. أغاني النساء العاريات، مسلسلات تمتد لسنين! مسلسلات مكسيكية بلهجة عربية فصيحة!

لم تكن ترى أيَّ شيء.

بدأت خالته في إعداد العشاء.. ولم تكن تشعر بالرغبة في الأكل.

ثم قالت خالته وهي تبتسم: إيه عم بتحبي هيك المسلسل؟

نظرت إليها صفاء وقالت مسرعة: آسفة! ماذا قلت؟

أعادت خالته السؤال عليها، ثم قالت وهي تضع اللبنة والخبز على الطاولة: غريب جدًّا أن يتكلم المكسيكيون العربية الفصحى، أليس كذلك؟ تعرفي نحنا عم بنقول هنا فيه لغة عامية لبنانية ولغة مكسيكية يعني عربية فصحى!

ثم ابتسمت وأكملت: عم بتفهمين عليَّ؟ وشو يعني عم بنترجم الإسباني للفصحى، كأن عم بنريد العالم يتكلم فصحى وعم بنتخيل.. عرفتي كيف؟

لم تفهم بالضبط صفاء ماذا تقصد خالته؟ أتحب الفصحى أم تعترض عليها؟ ولماذا يترجمون التمثيليات إلى الفصحى وليس إلى العامية؟ ولم يشغلها السؤال، ثم أكملت خالته:تقبري قلبي يا صفاء ما بتحبي اللبنة بعرف يا صفاء.. لكن اللبنة كتير طيبة تعالي جربي..

ابتسمت صفاء، وقالت في مرارة: شكرًا.

بقيت مكانها على الكرسي الخشبي ساعتين.. وهي لا تتحرك.

عادت سمر مع أبنائها وزوجها، وكان الأطفال يحملون الحلوى واللعب وهم فرحون، ومدَّت سمر يدها ببعض البقلاوة، وقالت: هل جربت البقلاوة اللبناني!

لم تزل تشعر بالصدمة من تصرفات سمر وموقفها تجاه الموقف برمته. وهزَّت رأسها بالنفي وهي تبتسم في أسى.

ابتسمت سمر، وجلست إلى جانبها، وقالت: تحبين نبيل كثيرًا! لا أنكر أنني في البداية لم أكن متأكدة أبدًا. ولكنك أخت الآن.

هزَّت رأسها: نعم، أخت.

- قبل أن ترحلي لابد أن تأخذي الكثير من الحلوى، دخيلك يا صفاء لا أحد يصنع الحلوى مثل اللبنانيين والسوريين، يعني أنتم في مصر.. تتفوقون في أشياء أخرى، ولكن ليس في الحلوى الشامية!

حلوى شامية!

هذا ما بقي من الخريطة!

هذا ما يوحِّد الخريطة! حلوى شامية، وبرامج تليفزيونية، ومسلسلات مكسيكية بالفصحى! هذا بالطبع ما يوحِّد الخريطة.

حلوى شامية، وبرامج كلامية تمتد لساعات، وتحليلات سياسية واجتماعات، ومجالس، وجامعة عربية، ودعوات للملوك والرؤساء.. وحلوى شامية يحبها كل العرب لأنها تأتي من الشام!

هل يعني هذا دمشق إذن؟ في الخريطة الجديدة أم القديمة؟!

نعشق الكلام والمناقشات والمجادلات وتبادل التهم واللوم.

ونستمر في الحياة وسط الضياع.

حلوى شامية بالطبع.. في مصر والخليج وكل العالم.

في أمريكا تسمى حلوى لبنانية، وفي مصر شامية.

الأسماء والمصطلحات تنصهر وتندفع مع الأمواج. لا تعريف لشيء ولا قيمة لشيء.

وهي بداخل الخريطة تائهة كأليس في بلاد العجائب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فؤاد زوج سمر كان هادئًا كما لاحظت ولم تكن تفهم موقفه من الأمر كله، حتى قال يومًا وهو جالس يحتسي الشاي مع زوجته وصفاء تسند رأسها إلى المقعد في أسى: هل كنا نحتاج هذه الحرب؟ لماذا لا يتركنا العالم نعيش في سلام. اغتيال الساسة والحرب المستمرة مع إسرائيل لن تساعد لبنان أبدًا. لابد أن نفكر في بلدنا أولًا! ما ذنب كل الأبرياء الذين يموتون كل يوم؟ وهل هي مسألة عِناد مع قوى أكبر وأكثر قسوة منَّا؟

ظهر الإحراج على سمر، وقالت لصفاء: أنا لا أتفق مع زوجي على السياسة!

قال فؤاد في حماس: سمر، نحن على شفا حرب أهلية جديدة بين الشيعة والسنة، وبلدنا لا يتنفَّس أبدًا من أجل مبادئ واعتقادات متعصبة، بالطبع لا أتفق معها! لماذا يغتال الوزير شهاب الدين؟ لأنه يدعو إلى السلام؟

فتحت صفاء فمها وقالت في تلقائية: ولكن هل تريد إسرائيل السلام؟ لا أرى أي نوايا حسنة من جانب إسرائيل. كيف تدعو إلى السلام ثم تدك كل من يرفع إصبعًا لمعارضتها؟ و..

تردَّدت قليلًا ثم قالت: السلام لا يأتي إلا بالقوة، ولبنان جزء من كيان أكبر.

قال فؤاد بلهجة لبنانية: لا. نحن لبنانيُّون أولًا. مثلكم تمامًا، أنتم مصريُّون أولًا، نعم، تفتخرون بحضارتكم الفرعونية وتعرفون أنكم مختلفون ونحن أيضًا نفتخر بحضارتنا الفينيقية، ونعرف أننا شعب متمدن ومتحضر، ويجمع كل مزايا الشرق والغرب. لابد أن تفكر كل دولة في مصلحتها وفي إنقاذ أبنائها.

قالت صفاء في تلقائية: ولكن ما دامت كل دولة الآن تفكر في نفسها فقط، فلماذا لم يعم السلام العالم؟ ربما لابد أن نفكر معًا

ابتسم في سخرية: في المشمش كما تقولون في مصر. هل نريد حربًا مستمرة مع إسرائيل؟ أم نريد التدخل السوري؟

قالت زوجته في تهكم: فؤاد، تفضِّل أن ندخل سوريا بفيزا ونفتح الحدود مع إسرائيل؟

قام قائلًا في يأس: لن أتكلم معك. لن تفهمي. فلنتغدَّ وننسَ السياسة وندعُ الله أن تنتهي الحرب!

نظرت صفاء إليهما. ولم تصدق ما قالت. أكانت تدافع عن وجهة نظر زوجها؟ هي؟ لماذا؟

همست لها سمر: فؤاد لا يأتي من الجنوب أصلًا ولا يفهم شيئًا، ولكنه طيب. لابد من البعد عن السياسة هذه الأيام حتى وأنت تتحدثين مع زوجك، فكل منا ينتمي إلى كتلة مختلفة!

كانت تبتسم وهي تتكلم، ولم تفهم صفاء أكانت تمزح معها أم تقر حقيقة.

دخلت صفاء الحجرة لتختلي بنفسها قبل أن تأتي سمر وأطفالها وخالتهاليناموا.

فتحت حقيبتها، وأمسكت بكارت الفيزا ونظرت إليه. ماذا يعني؟ لا شيء.

لم تقو على استعماله طوال وجودها في الشمال، ولا حتى على شراء أي شيء، ولا على الخروج.

عضَّت على شفتيها والدموع دائمًا محتبسة في عينيها.. كم تحبه! وكم تندم على عدم وداعه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد عشرة أيام.. توقفت القنابل وكانت قد استمرت ثمانية عشر يومًا.

وبعد عشرة أيام استعدُّوا للرحيل والعودة إلى الجنوب مرَّة أخرى. وقلبها يخفق بشدة. ربما يكون هناك. لابد أنه هناك. مع أمه.

كان الطريق أقصر بعض الشيء. وشعرت هي بأنها إنسانة شبه مختلفة تمامًا.

لا أماني قليلة.

لا دبي. لا تريد رجلًا متفهمًا. لا تريد كارت فيزا. لا تريد سواه. وقد أقنعت نفسها بأن كل ما يفعله صواب. كان لابد أن تقتنع بهذا. وهل تمكن رجل من أن يعشقها كما يعشقها هو؟

هل يمكن هذا؟

ما إن رأت البيت حتى جرت ناحيته في لهفة.

وبالطبع لم يكن موجودًا. كانت أمه تجلس بجانب النافذة كعادتها، وكأنها لم تتحرك طوال الوقت الماضي. وكانت البيوت المجاورة قد هدمت تمامًا، ونصب أهلها الخيام فوق بيوتهم المهدومة ليناموا ليلتهم. ورأت الدخان

الرمادي يَغْشَى المكان ليذكِّر الناس بأن ما يُهدَم يصعب إصلاحه، وبأن ما يضيع لا يأتي، وبأن الروح تزهق مرَّة واحدة فقط، مرَّة واحدة بلا رجعة. ولا تبقى جاثمة في الهواء كالدخان.

بقى اللون الرمادي ليذكرهم بأنَّ النار باقية، وسوف تشتعل أعنف مما اشتعلت من قبل، وسوف تشتعل باندفاع الشلال الذي لا يترك خِيامًا قائمة ولا طفلًا يبكي في الزاوية.

قبّلت صفاء أمه وجلست إلى جانبها، وقالت في لهفة: نبيل عاد؟

قالت وهي تبتسم: لم يعد بعد.

- هل اتصل بك؟

- لا يا ابنتي. لا تقلقي عليه.

قالت في عدم صبر: لم يتصل بي ولا بك! لماذا؟

قالت الأم: هذه طبيعته. يختفي أحيانًا ثم يعود. هل وعدك بأن يعود؟ لابد أن يعود.

رأت أمامها.. امرأة عراقية.. سمعت عنها ولم ترها.. تنتظر زوجها سنين. والأمل لا يموت. انقبض قلبها من جديد.

ودخلت حجرتهما، وألقت برأسها على الوسادة.. وهي تتساءل: أين هي الآن.. ومن هؤلاء؟ ومتى تركت حي الإبراهيمية؟ ولماذا تركت حي الإبراهيمية الذي يعج بالسكان.. بالفقر والبهجة؟ وما المشكلة في لافتة «ابتسم فأنت في الإسكندرية»؟! هل اللافتة تثير أعصابها إلى هذا الحد؟ لابد أن تجد زوجها. ولا تدري أين تبحث. قال: إنه سيعود بعد شهر. ستنتظر الشهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أسبوع من عودتها إلى الجنوب بدأت تتأكد تدريجيًّا من أنها تحمل في أحشائها طفله. وكان هذا بالنسبة إليها أفضل شيء في الوجود. في الحقيقة كانت تتمنى طفلًا منه، وأيضًا تريد أن تقهره وتذله. وكانت غايته ألَّا ينجب. والآن هي حامل في طفله. لابد لنبيل أن يعرف أن الكون لا يسير كما يريد هو. وأن قدرته على تغيير الحدود محدودة للغاية!

ولم يعرف بعد. لم يزل عنده براءة ورومانسية العربي العاجز في كل الأحيان. فلنر ماذا سيفعل عندما يعرف.. لو عرف؟

وكانت تريد أن تشيع الخبر لكل من حولها. أخبرت أمه أولًا، فبدأت الدموع تترقرق في عينيها وهي تربت على ظهرها وتقول: مبروك يا بنتي. كنت أتمنى

أن أرى طفله.

ثم أخبرت أخته.

وكانت تخبر أخته في فخر، وكأنها تقول: أنا لست أقل منك وأستطيع أن أنجب أيضًا. وبداخلها غريزة المرأة التي تعشق التفاخر بقدرتها على الإنجاب.

بدأ الخبر يسعدها، واتصلت بأخيها وأمها وأبيها وأخبرت الجميع. وقالت إن زوجها سيعود بعد أسبوعين على الأكثر. قال: إنه سيعود بعد شهر.

استلقت على السرير، وأمسكت ببطنها في كبرياء.. طفله هنا معها. كيف يستطيع الهرب؟ سجنته في سجن أقوى من كل السجون، سجن أبدي.

بدأت تخاف ألا يتقبل الحقيقة.. هل يمكن أن يلومها؟ هو السبب. بل هي متأكدة من أنه تعمَّد هذا، أنه تمنى هذا.

ولو لم يعد.

لم تقبِّله حتى قبلة وداع. لا قبلة وداع، لا أحضان، لا كلمة حب واحدة. لا شيء. لابد أن يعود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلست على سريرها، ونظرت إلى حقيبته الصغيرة التي تركها. اتجهت للحقيبة، وأخرجت منها قميصه، واحتضنته، ثم وقعت عيناها على الخريطة التي هي كربه وهمه ومنقذه.

أمسكت بالخريطة، ونظرت إليها برهة، ثم أمسكت بقلم، وبدأت ترسم عليها أشكالًا ودوائر وخُطوطًا. فرسم الحدود مُمتع، كرسم الخطوط في دفتر محاضرات داخل محاضرة مملة. وما أجمل رسم الأشكال!

أشارت بقلمها الأخضر الرفيع إلى بلد..

في هذا البلد.. أهرام ثلاثة تميِّز بلدًا كاملًا.. وشعبًا يتكاثر بالملايين، ويتناثر كالرمال وسط الأصرح العالية التي يشيدها الحكام.. لا أحد يشعر به وهو يلهث وراء القمح الممتزج بالحجارة كما كان يفعل منذ آلاف السنين. كُتِبَ عليه أن يحيا وهو يلهث، وكُتِبَ على القمح أن يبقى ممتزجًا بالحجارة.

أشارت بقلمها الأخضر الرفيع إلى بلد آخر.

وفي هذا البلد ترسم سيارة، فللسيارات طعم جديد وهدف أسمى.. أصبحت السيارة ترمز إلى الموت والراحة الأبدية. وأصبحت السيارة هي أسرع وسيلة لإبهام الحدود وطمس المعالم. ومن يمت في سيارة ملغومة في هذا العصر

كمن تأخذه ريح عاتية وترحل به إلى آخر العالم.. لا يظهر مرة أخرى، ولا نرى من جثته شيئًا على الإطلاق.

ما أعظم فائدة السيارات في زمن الموت فيه فنٌّ لا يعاني من نقص في المبدعين!

نعم.. ما أعظم فائدة السيارات في زمن الموت فيه فنٌّ لا يعاني من نقص في المبدعين.

أشارت بقلمها الأخضر الرفيع إلى بلد آخر.

وهذا البلد.. سوف ترسم عليه أبراجًا عالية لتقي الأغنياء من جنوح الفقراء كمياه الفيضان.

أشارت بقلمها الأخضر الرفيع إلى بلد آخر.

وفي هذا البلد سوف ترسم ضمة وكسرة وفتحة لترمز إلى حركات كثيرة يتناحر أفرادها، ويصبح الإنسان فيها ضحية لعدو وصديق وأهل وجيران وأغراب، والموت في هذه الحالة راحة لا مثيل لها، فالتحرك المستمر مرهق إلى أبعد حد.

أشارت بقلمها الأخضر الرفيع إلى بلد آخر.

وفي هذا البلد سوف ترسم نقطة دماء واسعة بألوان حية ورائحة طازجة. وقد أقسم شعب هذا البلد بروحه على أن يحافظ على نقطة الدماء طازجة، والألوان حية إلى الأبد، مهما كلَّفه الأمر.

أشارت بقلمها الأخضر الرفيع إلى بلد آخر.

وفي هذا البلد سوف ترسم جبالًا عالية تنسينا أننا كنا نحكم العالم ونقتحم المستحيل، وتقينا من تذكر إهانة الطرد من أوروبا، والهزيمة المكتوبة إلى أبد الدهر، وتذكرنا بأننا لسنا عَرَبًا.. أبدًا لسنا عربًا.. مسلمون ربما، ولكننا لسنا عربًا!

عرب.. مسلمون.. مسيحيون.. يهود.. هوية نشيِّدها ونهدمها كل يوم، ونتأمل ونفكر ونتناقش ويلوم بعضنا بعضًا ونتقاتل، ويذبح بعضنا بعضًا، ويُكفِّر بعضنا بعضًا!

ويبقى الحل الأمثل..

رسم الصور والأشكال.

الدوائر، الكثير من الدوائر، فكلنا ندور في حلقات مفرغة إلى الأبد.

وأين سترسم الغول الكبير؟ لابد ألا ترسمه وإلّا طغى على كل الرسوم الأخرى. فلتَبْقَ الدائرة وسط الخريطة. فهذا أفضل للجميع.

وتبقى الخريطة ورقة أحيانًا، وكيانًا أحيانًا، وفكرة أحيانًا، وشعورًا طاغيًا في الأغلب، في بلاد تقدِّر المشاعر، وتبكي على الأطلال، وتعشق المدح والذم.

فهمت هوسه بالخرائط. وما دامت هي الآن في أعماق الخريطة، ومادامت لا تستطيع سوى رسم الرموز على خريطة ورقية، وما دامت تشعر بألمهم ويأسهم، وما دامت زوجته، فهي منهم ولهم.

لبرهة بل لأيام تشعر بأنها تفهمه وتعرف أهدافه. ولا تعرف طريقته في تحقيقها ولا تفهمها.

ضمَّت الخريطة إلى صدرها وهمست: كم أفتقدك!

ماذا يملك اللاجئ في بلاد لا تعرف الرحمة؟ ماذا يملك التائه في شوارع لا يعرفها؟ ماذا يملك من ترك بيته ليهرب من النار وألقى بنفسه بين ذراعي الموت ليحميه من الدمار؟

وماذا كان يملك زوجها وهو في السابعة عشرة من عمره؟

خريطة! خريطة لبيته وعمره وطفولته وطموحه وحضن أمه الذي لم يستمتع به يومًا.

خريطة! بحدود تتحرك وتتلون وآمال تطفو على السطح..

خريطة بتضاريس مختلفة ولغة واحدة وشكل متقارب وعيون سوداء، ورجال مهووسين بالحرية المستحيلة، ونساء مهووسات بالكرامة الصعبة المنال.

خريطة.. ليبحث عن وطنه الكبير. فالوطن الصغير أخذله وأذلَّه، ونَزَعَ منه الحبيبَ والقريبَ.

ووطنه الكبير..

حاولت النوم وهي لم تزل تضم الخريطة إلى صدرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن النوم سهلًا هذه الأيام، وكانت تشعر كثيرًا بالغثيان، وتتقلب من جنب إلى جنب. نظرت إلى ساعتها، كانت الحادية عشرة مساء. سمعت صوت عجلات سيارة.. وكانت القرية عادةً هادئة. لابد أنه هو.

قامت وهي بقميص نومها.. نظرت من النافذة، كان هناك سيارة، بالتأكيد تتوقف عند بيتهم. هو. لابد أنَّه هو.

أو ربما خبر موته.

ربما جثته.

ربما..

فتحت باب الحجرة وقلبها يخفق بشدة، ووالدته لم تزل تجلس بجانب النافذة لا تتحرك، قالت في لهفة: نبيل عاد.

هزَّت الأم رأسها بالإيجاب، ولم تنطق.

فتحت باب البيت. وجرت بقدم حافية لتستقبله.

نظرت أمامها.

وكان هو.

حيًّا.

أمامها ينظر إليها في شوق.

ما إن رأته.. حتى اندفعت في أحضانه دون أدنى تردد. أخذت تحك خدَّها بخِّده الخشن وكأنها تتأكد من أنه حي.

صدره يدفئها ويحميها كالعادة، وقد قضت شهرًا من الحيرة والضياع والخوف وهو بعيد عنها.

ضمَّها في قوة، وقبّل خدَّها قبلة طويلة وهو يتمتم: افتقدتك.

قالت وهي تتلعثم.. كان لديها الكثير الذي تودُّ قوله: لقد اكتشفتُ الحقيقة وأنت غائب. اكتشفتُ الكثير. حقًّا. كان لابد أن أودعك قبل رحيلك. كنتُ خائفة جدًّا عليك. ظننت أنك لن تعود. لا أستطيع أن أمر بهذا مرة أخرى. الغارات وأصوات المدافع والقنابل.. لم.. لم أعتد هذا.

قال في حتمية: نعم أعرف.. لابد أن ترحلي.. وجودك هنا خطر.. خطر كبير.

قالت مسرعة وناقوس الخطر يصم أذنيها: فلنرحل معًا ونعش في مصر.. في أمريكا.. في.. أي مكان.. أي مكان معك. لا تتركني مرة أخرى.

ضمَّها أكثر وهمس: لن نتكلم الآن. الآن أريدك بين ذراعي.

أبقاها بين ذراعيه برهة بلا كلمة وسط الأشجار والظلام، ثم ابتعد عنها بعض الشيء ويده بين يديها ودخل البيت.

سلَّم على أمه. قبَّلها وهي جالسة على الأريكة، ربتت من جديد على كتفه كما تفعل دائمًا بيد مرتجفة مترددة، يد في حيرة من أمرها، يد نصفها ميت،

ونصفها حي.

قال وهو يتجه إلى الغرفة: تعالي يا صفاء، أريد أن أتكلم معك.

جلست على السرير.. تنتظر المفاجأة الجديدة وتتوقعها.

جلس إلى جانبها.. التقت أعينهما، رأت الشوق في عينيه واليأس، ثم قال في حتمية: لابد أن ترحلي من هنا.. سأعود إلى أمريكا، ربما بعد أسبوع. لم يزل عندي عمل هنا. صفاء.. هناك أسباب كثيرة، أولها أن حياتك في خطر. خطر كبير. تعرفين الكثير. لو بقيت معي الآن فأنت نقطة ضعف، وقتلك شيء سهل جدًّا. القتل بسيط وسهل دائمًا. أنت الآن تحت تأثير الكثير من الأحداث والعواطف وعندما تهدئين ستفكرين في كل شيء. وعندئذ ربما تلومينني وتكرهينني. لا أريد أن أرى ذلك اليوم. الآن أنا ربما بطل بالنسبة إليك، لو عدنا إلى أمريكا معًا فسأكون سفاحًا وقاتلًا مرَّة أخرى. سيبقى السؤال بداخلك دائمًا ما إذا كان زوجك مجرمًا أم لا. طوال عمرك.

همَّت بأن تنطق فقال في حزم: استمعي إليَّ للنهاية. لا أستطيع أن أبقى معك وأنت في خطر، لا أريد هذا.

توقف لحظات وكأنه يريد أن يختار كلماته بعناية، ولا يريد أن يتكلم عن الحب والرومانسية..

أكمل في حتمية: لابد أن ترحلي. حياتي أنا نفسي دائمًا في خطر. هذه قضيتي أنا وليست قضيتك. قالت في مرارة: ربما هي قضيتي أنا أيضًا.

- ربما! لا نعرف بعد. هذا أفضل للجميع.

قالت في تحدٍّ: وأفضل لطفلك أيضًا؟

توقف عن التنفس لحظة من وَقْع المفاجأة.

ثم تنفَّس نفسًا عميقًا، ولمعت عيناه بضوء جديد، وقال في بطء وكأنه يحاول ترتيب أفكاره: بالطبع.. كان يجب أن أتوقع هذا. ولست نادمًا يا صفاء. كنت أتمنى هذا. شيء يربطك بي إلى الأبد. ربما تُعِدِّينها جريمة أخرى في حقك..

قاطعته مسرعة: لا. لا تقل هذا.

- لا بأس. لن تنسيني إذن. أبدًا.

تمتمت في تلقائية: لن أنساك أبدًا.

سقطت الحقيقة فوق رأسها.. ساعات وسوف ترحل. ساعات.

كانت تتكلم بسرعة وشبه هستيرية: أنا أتفهم. كان عليك أن تفعل ما فعلت. حياتك كانت في خطر، وأنت مقتنع أن هذا لمصلحة الكثيرين، ولإنقاذ حياة الكثيرين، أنا أفهم.. أفهم الآن أكثر من قبل، أكثر بكثير. أفهمك و...

صمتت، نظرت إلى عينيه. كان قد ثبَّت نظره على وجهها يتفحصها وهو جالس على طرف السرير قال في فتور: الآن تتفهمين، ولكن غدًا ربما لا.

قبل أن تنطق قال مرة أخرى في تأكيد: الآن تتفهمين ولكن غدًا ربما لا.

اقتربت منه ويدها ترتجف والدموع بدأت تتساقط بلا توقف: لا تشعر ناحيتي بأي شيء! أي شيء!

ساد الصمت برهة.

لم يعد ينظر إليها. كان ينظر إلى الأفق من النافذة الكبيرة مثل أمه تمامًا بعينين زائغتين، وتمتم ويده تتجه إلى يدها في تلقائية:غدًا تعودين إلى مصر. سوف نأخذ السفينة لقبرص، ومن هناك تأخذين الطائرة إلى مصر.

فتحت فمها لتصرخ في وجهه، نزعت يدها من يده ورغبة قوية في أن تصفعه، تقتله، تسيطر عليها.. ولكنه قال قبل أن تنطق: هل تفهمين ما أقوله؟ ليس لدينا الكثير من الوقت. لابد أن ترحلي، وصلنا إلى النهاية. كان لابد من نهاية. دائمًا لابد من نهاية. انسي كل ما سمعتِ وكل ما رأيتِ. عودي إلى حياتك في الإسكندرية، وأغلقي عينيك وفمك وأذنيك. هذا أفضل. بكثير.

وقف فجأة وقال في إصرار: أحيانًا تفاجئنا الدنيا بأشياء لا نتوقعها ولا نطلبها. كنت قد عزمت أمري على أن..

قالت في عدم صبر وهي تقف أمامه: كنت قد عزمت أمرك على أن تحيا بلا قلب، وتحارب من أجل القضية العربية، وألا تنجب الأطفال أبدًا إلا عندما تَئُول السيادة للعرب، وكل هذا الكلام الذي لا يعنيني.. ولكنني الآن أحمل في أحشائي طفلك، ولكنني الآن أحتاج إليك معي.. الآن..

انهمرت الدموع من عينيها من جديد.. وهوت إلى السرير.

كانت تعرف أن النهاية قد حانت، أن الدماء تتناثر من حولهما، وأن حياتها معه هي الجحيم بعينها والجنة كلها، وأن ما يقوله صواب.. كله، وكانت تعرف أنها إنسان آخر الآن، لا يدري من يكون وإلى أين ينتمي.

وأنها تعشقه وتخافه، وأحيانًا كثيرة لا تفهمه.

الدموع تتساقط بلا توقف.

نظر إليها لثوان، وتردد فجأة والحيرة تبدو على وجهه، ربما لأول مرة. جلس إلى جانبها، وضمَّها إلى صدره في قوة وهمس: لا تبكي يا صفاء. أريد أن أتذكر دائمًا ضحكاتك البريئة. لا أريد أن أرى حزنك.

صاحت في وجهه وهي تبتعد عنه والدموع تنتشر في كل وجهها: حطمت كل النساء من حولك كلهن الواحدة تلو الأخرى، ولم تحب أيًّا منهن قط! والآن الدور عليَّ أنا..

أمسك بذراعها، ضغط عليها، وشدها ناحيته في قسوة بدأت تعرفها هذه الأيام وقال: إلَّا أنت.

دفعت بيدها صدره والغيظ يملأ قلبها، ورغبة جامحة في أن تجرحه، تسيطر عليها: ابتعد عني. أنت لا تريدني! تريد التخلص مني

لسبب ما.. رأت العرق الثائر في رقبته ينبض بالغضب.

كانت تتوقع صفعة ربما.. دفعة إلى الباب.. قتلًا ربما.. أيَّ شيء. بل كانت تتمنى أن يفقد أعصابه. تتمنى في هذه اللحظة أن يطلق عليها النار فتموت على الفور.

كانت تتوقع أي شيء. ولم تعد تخافه.

أحاط خديها بكفيه في صرامة، وكأنه مرَّة أخرى يسجنها داخل الحدود، وسلَّط عينيه على عينيها وكأنه على وشك أن يطلق طلقة من بندقيته بين عينيها، ثم قال: إياك! هل تسمعين؟ إياك أن تقولي لي أو لنفسك يومًا: إنني لا أريدك.

ثم تركها، وأدار وجهه عنها، وتمنت لو ترى عينيه.

وقال وكأنه يتكلم مع نفسه: ما دُمتِ أنت بجانبي فأنت في خطر. أنت وطفلي. في خطر وحيرة. اليوم تتفهمين.. غدًا ربما لا.

عضَّت على شفتيها.. اقتربت منه.. أحاطت ظهره بذراعيها وألصقت خدها بظهره وهمست: أريد أن أكون زوجتك إلى الأبد.

أمسك بذراعيها اللتين تطوِّقان كتفه وقال: لا يوجد إلى الأبد أبدًا.

احتضن يدها بيده، ثم قرَّبها إلى فمه، وقبَّلها في حنان وهمس: لا يوجد إلى الأبد.

وعندما مارس الحب معها هذه المرة. كان للقائهما معنى جديد وعمق مخيف.

كان كمن يحارب حربًا خاسرة وحربًا عنيفة وحربًا قذرة وحربًا سيكسبها بالتأكيد.

كان يقبّل كل قطعة من جسدها في إتقان وبطء، وكأنه يتأكد من أنه حفر اسمه على كل قطعة منها إلى الأبد.

وكانت تريد أن تنتقم منه وتعشقه وتقتله وتغمره.

وكانت كل ما يريد في هذا الزمن، وكل ما يستحيل، وكل أحلامه الجريئة، وكل حماقة ارتكبها، وكل خيانة، وكل مكر وكل.. وكل هويته، وكل ما حارب من أجله، وكل أعدائه، وكل الطوائف وكل الجيران المترقبين موته، وكل الخناجر المسمومة والمال الوفير والرمال الذهبية.

كل المستحيل.

كانت كالوحدة التي تتلاشى من بين يديه كل يوم.

كالعروبة والأمة والباقي من العمر.

وكان يريد أن يبقى بداخلها إلى الأبد.

وكانت تغرقه كالساحرة بين جسدها.

كانت تبتلعه كالنيرات كما لم تبتلع امرأة رجلًا من قبل. تبتلعه وكأنه أوراق بردي أو بقايا خريطة قديمة. تمحي جسده بداخل جسدها إلى الأبد.

وكانت له وكان لها.

وسط الخيانة والنيران والموت والقنابل والأسلحة المشروعة وغير المشروعة، والبنادق التي تقتل الصديق قبل العدو، وصرخات الأطفال الآتية من الداخل والخارج.

كانت له وكان لها. لساعات.. ساعات ليس أكثر.

بقيت بين ذراعيه وهي تفكر وتتمنى ألَّا يأتي الغد أبدًا. لا نام هو ولا نامت هي. دفنت رأسها في صدره، وأراح خده على رأسها. ساعات. وكان الصمت أفضل من الكلام بكثير.

شعرت به وهو يقوم من السرير يرتدي بنطلونه ويفتح الباب.

خرج إلى الغابة.. إلى الأشجار الكثيفة التي يعرفها عن ظهر قلب.

كان ينظر إلى الأفق، إلى السماء، إلى الجبال، إلى الشمس. كان ينسج صورًا وحكايات مع الطبيعة. أسرارًا مع الشمس الضعيفة، البكر.. كان ينفخ عمره بين حنايا الجبال.

وهي تشاهده من بعيد.

جلس على الأرض في بطء

وعيناه لم تزالا تناجيان الأفق.

بعد برهة..

كان جالسًا على الأرض ووجهه بين راحتيه يبكي.. بكاءً صامتًا.

ولم تكن تتصور زوجها يبكي يومًا.

ولم تكن تدري أهي السبب في بكائه، أم أحلامه المحبطة، أم الشمس الضعيفة في الأفق، أم الصور والحكايات التي تزول الزوال الأبدي الذي يحاصرهما.

سترحل بعد ساعات.

سترحل وهو يظن أنها ربما يومًا ما تتزوج من غيره.. أنها ستنساه.. أنها غاضبة منه.

سترحل وهو.. لم يقل قط كلمة أحبك إلا وهو يهددها بالقتل!

اقتربت منه وجلست إلى جانبه، وضمته في صمت.

لم يفاجأ بها. وكأنه كان يتوقع ذراعيها حول كتفه إلى الأبد. أحاط بطنها بذراعيه، وأراح خده على بطنها وهو يتمنى أن يلمس طفله. ولم يتكلم.

همست وهي تداعب خصلات شعره وكأنه هو طفلها الوليد: لن أتزوج غيرك أبدًا. لا أستطيع. لا تطلقني. هناك أمل.. دائما هناك أمل.

هزَّ رأسه بالايجاب وكأن كلماتها قد قامت بمفعول السحر، وقال وهو يضمها أكثر: سيكون طفلًا عربيًّا. ليس مصريًّا وليس لبنانيًّا، عربيًّا.

لم يكن بوسعها سوى قول كلمات قالتها مرارًا: أنا أحبك يا نبيل.

ابتسم وهمس وهو يقبل بطنها قبلة طويلة، وكأنه يمتص رائحة طفله من داخل أعماقها: أعرف.

- هل تعدني بأن تحافظ على نفسك من أجلي ومن أجل طفلك؟. عدني. لا أريدك أن تموت.

- أعدك.

- ولا تطلقني أبدًا.

- لن أطلقك أبدًا

قالت في تأكيد: هذه ليست النهاية.

قال في قوة: لا، ليست النهاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

رحلت سريعًا، وكان متماسكًا، وكانت متماسكة. قالا كل شيء. وحبل من الشوق بينهما صعب قطعه. كانا يعرفان حدود خريطتهما وملامح دولتهما. وكانت واضحة وضوح النيران والقنابل.

همست من جديد: ليست النهاية.

وردَّد في قوة: لا، ليست النهاية.

سيعود زوجها لأمريكا بعد أسبوع، سيعود لحياة الزَّيْف والغموض والعمل المستمر. سيكون لبنانيًّا في أمريكا مرة أخرى، وأمام عينيه دائمًا خريطة واسعة. من حوله سيتهمونه بتحكيم العقل دائمًا، وبالقسوة وبالانتهازية وبالأمركة، وبأنه بلا أصل ولا وطن، سيتهمونه بأنه كالورود البرية المتوحشة التي لابد من قتلها واقتلاعها بأسرع ما يمكن، سيتهمونه بأنه لاجئ بماض مظلم وحاضر شائك. وستبقى الخريطة أبدًا أمام عينيه كالشمس الضعيفة في السماء.

وستعود هي إلى مصر ومعها قطعة منه، بل كل روحه وقلبه. ستعود إلى مصر لأنه يخاف عليها وهي معه؟ أم لأنه يخاف من حكمها عليه ويخشى أن يرى نظرات خوف ولوم وتضرع من جديد؟ لا تعرف بالضبط. من الصعب التأكد من أي شيء هذه الأيام. ولكنها تعرف أنه لها، وهذا يريحها بعض الشيء، ويعذبها إلى أبعد مدى. هو حي.. لم يزل حيًّا، هي إذن مختلفة عن المرأة العراقية، فهي تعرف أنه حي.

قلبها ممتلئ بالمشاعر تجاهه.. وكانت تعرف جيدًا أنها أبدًا لن تتزوج غيره.. وأنه لن يتزوج غيرها. كانت في السادسة والعشرين وحاملًا في شهر.. وكانت تظن أنها واقعية وليست رومانسية.. ولأنها واقعية كانت تعرف أنها له هو فقط للنهاية. لأسباب شديدة الواقعية.

نبيل نصار.. بطل شجاع أم قاتل محترف؟

زوجها.. سيُسميه البعض إرهابيًّا والبعض عميلًا مزدوجًا، والبعض ثوريًّا شجاعًا!

وستسميه هي.. رجلًا رومانسيًّا طغت عليه فكرته عن العالم، ففتنته وفتنتها.

كان هو الرجل الذي.. أَغْواها.. اغتصبها.. هدَّدها بالقتل

.. تزوَّجها.. عشقها.. مزَّقها.. أذلها.. أرعبها.. وضع النجوم بين يديها، وبكى وهو يناجي الشمس.

وهل لرجل آخر في العالم كله أن يتنافس معه؟

هل لرجل آخر في العالم كله أن يأخذ مكانه؟

نبيل نصار.. سيسميه البعض.. شيعيًّا، عربيًّا، متعصِّبًا، خائنًا!

سيسميه البعض.. صاحب الأفكار المستحيلة، والأماني الجريئة المميتة!

وسيسميه البعض.. رجلًا لبنانيًّا.. لا أكثر!

وستسميه هي.. عشقها!

نظرت إلى معصمها.. إلى كفها.. إلى العروق المنبثقة.. قال «هنا يكمن سر الحياة.. ».

قبَّلت معصمها في حنان.. كم مرة قبل معصمها؟ وقبلاته ولمساته كالموت.. لا تفنى.. ولا تتلاشى.

الموت دائم أبدًا.

حقيقة وعمر طويل.

من يمكنه أن يتنافس مع نبيل على قلبها إذن؟

رجل عاقل؟ وقد أدمنت الجنون.

رجل هادئ؟ وقد عرفت الثوار.

رجل طيب؟ وقد عاشت مع القسوة.

رجل ثري؟ وقد امتلكت العالم.

من سيتنافس معه؟

ومن سيصبح في ثوان ضحية وبطلًا وقنَّاصًا ومغامرًا وقاتلًا؟!

كانت تعرف أنه لها إلى الأبد.

هي له، وهو لها.

وربما يأتي يوم تستطيع فيه أن تكون معه من جديد.

كانت تخاف مصير المرأة العراقية التي تبحث عن زوجها لسنين.. وأصبحت هي هذه المرأة، تفهمها وتتعاطف معها. ولكنه حي على الأقل، وربما لا تبحث عنه لسنين.. هي المرأة العراقية، وهي ليست المرأة العراقية.. هي المرأة العربية، وهي ليست المرأة العربية. وهي من؟

سيعود.

لابد أنَّه سيعود.

وستنتظره وبين يديها طفلها.. ليس لأنها رومانسية حمقاء.. ولكن لأنها واقعية.. وتعرف أنه لا يوجد رجل في العالم يمكنه أن ينافس هذا الرجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأماني القليلة ليست آمنة أبدًا في العالم العربي.

والأماني الكثيرة مستحيلة في العالم العربي

صفاء كانت تريد أن تهاجر إلى دبي وتشتري الطماطم المغلَّفة من السوبر ماركت.

لم تهاجر إلى دبي.

وكان باستطاعتها أن تشتري الطماطم المغلَّفة، ولكنها لم تعد تريد هذا. لم تعد تريد شراء الطماطم على الإطلاق.

وكان معها الكارت السحري، ولم تقو على استعماله.

وعندما احتضنت نفسها في مطار القاهرة الدولي، ونظرت إلى كل اللافتات، وجدت فقط صورًا للفراعنة.. تماثيل للفراعنة.. كلمات عربية، ووجوه فرعونية... حورس.. رمز القوة والخير، والعدل المنتشر في أرجاء مصر والأمة بأسرها.

حورس في كل مكان.

ليذِّكرنا بالمستحيل. فما دام المستحيل في الأفق فسنعرف قدرنا وقيمتنا ونرضى بالنصيب. ليذكرنا بالجوع والعطش والرخاء والاستعباد والطغيان، وانتصار الشر غالبًا، والتفافنا حول وادٍ ونهر يغدران بنا أحيانًا، ونضحي من أجلهما بكل ما نملك. ومعذرة فلا نملك الكثير.. حتى عمرنا ليس في أيدينا. لا نملك الكثير على الإطلاق.

حورس.. يتفرع من إيزيس التي تلملم أشلاء الزوج.. إيزيس وأسطورتها الشهيرة.. قال نبيل زوجها: « الغرب يفتتنا كقطع الخبز الصغيرة ليسهل الهضم. يفتتنا كقطع الخبز الصغيرة.. بلا قيمة.. بلا هوية.. بلا حياة.. قطع هشة فقدت اللون والطعم. لابد أن لملمة فتات الخبز أصعب من لملمة الأشلاء. ولابد أن لملمة بقايا العمر تستحيل باستحالة الأساطير.

وحورس.. وحورس.. نحن.

المصريين القدامى.

المصريين الجدد.

نتكلم العربية.

نصف الأمة العربية.

لم تعد أمة.

نحن الباقون دائمًا..

نحن من نعيش على أرباح الثروة القديمة التي تركها الأجداد الفراعنة.. ونسى الأجداد أن يهمسوا بالوصية الأخيرة!

من تكون؟ ومن نكون؟

دوَّت كلماته في أذنيها «تتكلمين بأي لغة؟ تتنفسين أي هواء.. تشعرين بأي موت؟».

في الحقيقة أسئلته صعبة ولا تعرف الإجابة عنها.

لم تعد صفاء هي صفاء. ولم يعد للحياة لون معيَّن.

وشعرت بالعجز عن الإجابة والهوس بالسؤال.. سؤال واحد.. لا يترك عقلها..

وبالطبع سيولد ابنها «الأجنبي» في مصر ووالده عربي وليس مصريًّا. سيولد أجنبيًّا، وكأن والده فرنسي أو أمريكي.

والسؤال يلوح من أعلى رأسها: ماذا كانت الوصية الأخيرة للأجداد؟

لماذا نسى الأجداد أن يهمسوا بالوصية الأخيرة؟

لماذا يتركون الإرث وينسون النصيحة؟

هل همسوا بالوصية الأخيرة؟

ماذا كانت الوصية الأخيرة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

<u>Group Link – لينك الانضمام الى الجروب</u>

<u>Link – لينك القنـــــاة</u>

رس المحتويات

عن الرواية..

إهــــداء

بداية

الباب الأول

أمانٍ قليلة

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الباب الثاني

مملكة الحيرة

الفصل السادس

الفصل السابع